Karam, Karam Milḥim.

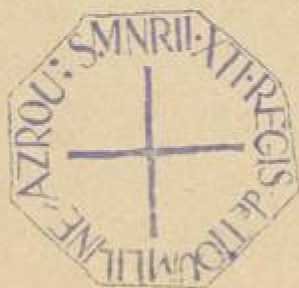
"

كرم ملحم كرم

/ Wā Muʻtaṣimāh /

وامعتصماه !

قصة وتاريخ



مكتبة صادر
بيروت

١١٠

الجزء الاول

في مضطرب الفتنة

١

– يا من لا يموت ارحم من يموت !

وصاح يستظهر بربه على امره . وطغت موجة ربداء ، هلوع ، على الجحافل العربية وقد انتشر فيها نبأ احتضار المأمون . فهي تقاتل تحت امرته علوج الروم وتقهرهم . وتشتت صفوفهم وقد دكت لهم خمسة عشر حصناً . واقام المأمون ، الخليفة العباسي السابع ، على نهر البديدون ، بجانب طرسوس ، يرقب عودة الغزاة الشوس من تنكيلهم بالعدو المخذول . وراقته مياه عين البديدون الصافية ، فألقى في قعرها درهماً تجلت له حروفه لفرط نقاوة الماء . واذا البرداء تفجأه فينادي اليه اطباءه ، وفيهم بختيشوع ، وابن ماسويه ، فلا يردان عنه مقدوراً

وجال في باصرتيه شبح المنية الاسحم ، فهتف بمن حوله واللوعة تحزّ في كبده المقرورة : اخرجوني اشرف على عسكري ، وانظر الى رجالي ، واتبين ملكي !

والليل ممدود البساط ، ادكن . فدعا اخوه محمد المعتصم بان تضرم

النيران كي يبصر امير المؤمنين بالمضارب، وبالجند، وقد يستعيد رمقه المستطير. على ان مرأى ذلك الحشد من الخيام والرجال زاد في يأس الخليفة من غده. فرجع الى مرقده والدمع يبلل لحيته. وهو يتلهف على نفسه وما زال في التاسعة والاربعين من العمر. ولم ينقطع فيه صياحه المستغيث: « يا من لا يموت ارحم من يموت! »، والبرداء تخضخضه حتى لا يملك رجلا يثبت بها في وقفة، ولا لساناً يعينه على النطق. فتتصاعد الكلمات من شفتيه متقطعة، مرضوضة، كأنها هشيم في عقفة منجل حصود. والتفت الى من حوله وبدا له اخوه المعتصم بجانبه، فاوصى له من بعده. وكان قد شاع ان خليفته ابنه العباس. غير ان العباس في مقدمة الجيش، يقاتل ويظفر بالمناوئين، فما اتسع له ان يحضر نزع ابيه الوقور

وانطفأ المأمون في رعدته وجميع من تحلقوا عليه لدرء الغاشية عنه على رعب وذهول. فيا للموت من مختلس زنيم، يختطف الجبابرة في لمحات عجالى كأنهم لديه زرازير. وجاب النعي المضارب كالشرارة في متكاثف الدهمة. وكبّر القوم ورجّعوا وفي عيونهم الذعر، وفي افئدتهم الاسى. فمن لهم بعد الخليفة المقدام الحكيم؟

وهالهم ان يسمعوا بوصيته لاخيه، ولهم الى ابنه العباس جنوح. فالعباس اقرب اليهم وله من حسن تدبيره، ورقة خلقه، ما اسر به المهج، ودانت له الميول. غير ان كلمة ابيه فاصلة لا تنقض، وللمعتصم عليها الشهود العدول. وبدا العباس جهماً غضوباً وقد التف حوله القادة ينكرون البيعة للمعتصم، ويهتفون للعباس، وفي طليعتهم عُجَيف بن عنبسة. فلن يلووا رقابهم لسيد جلف، يتنمّر عليهم بقوة ساعده، وبعنجهيته، وليس له من رجاحة علمه ما يسد

به ثلمة احدثتها في الخلافة خسارة المأمون اللبيب، العليم

وجاراهم معظم الجند في الرغبة. وكادت تتقد الفتنة وجثمان المأمون لا يزال مطروحاً في النعش يرقب من يصلي عليه ويدفنه. وخشي المعتصم على نفسه من صولة القادة والجيوش، فهفا الى ابن اخيه يخاطبه بالقول الحلوب، الانوس: ألا تجلّ اباك في ملتمسه يا ابن اخي؟... قضى المأمون وهو يوصي لي من بعده، فهل ترتضي العبث بوصية ابيك؟... والله، ما كنت لاسلخها منك لو لم يهبها لي، رحمات الله عليه. فلا تكلف نفسك محو سطر مكتوب، والاستطالة على مشيئة ما تعوّدت التقهقر والخيبة. اني ارى في خصومتنا محنة هصوراً لا ينجو منها، اذا الجنا لها الاستنسار، المجد العباسي العريق!

فما زال العباس ممسكاً على حقه بالارث المنتقل اليه من ابيه. قال بشدة المؤمن برجحان كفته: ولكن ابي ما اوصى لك بالخلافة دوني يا ابا اسحق. فما فتئت اسمعه يعدني بها ولا اراه انكرني في سكرات الموت. ثم ان قادة الجند لا يوافقونك على ما تفتئت به، وثمة الغبن والاغتصاب!

فلمس المعتصم في ابن اخيه ثورة النقمة. الا انه ما زال يرجو ان يطوي في الشاب المطماع عنف الوثبة. قال يلاينه: ليس لي ان امهد الى فتنة شبيهة بما احتدم بين ابيك وعمك الامين، يا ابن اخي. فيذهب احدنا ضحية لها ويشمت بنا الكارهون. فاذا شئت ان اتنزل لك عن وصية ابيك فاني لافعل راضياً، وليس يغلو لك النفيس وانت منا في اللباب، ومن اكرمنا نفساً، واسمانا مهزّة. ولكني احاذر ان يقال فيك انك خرقت، بملء يديك، طلبة ذلك الثاوي برحمة ربه، يستميح ديّانه العفو، ويرجو جزيل الثواب!

ولاح له من العباس، وهو يصغي الى هذا القول الرفيق، الحافل بوهج

الحمية ، الحريص على طيب الاحدوثة، ان الشاب اخذ يتند في اللجاجة. فأبان المعتصم يتساخى : والذي روحي بيده ، يا ابن اخي ، لافسحنَّ لك بعدي . فالعباسيون لا يطول عهدهم بالخلافة ، ومعظمنا ينقصف في لدونة العمر . فأبح لي تخضيد شوكة الشذّاذ وتعال اقبض بيمينك على مقاليد الامر، وانت بمأمن من كل نفثة موبوءة . فاهدم لك بابك الخرّميّ الثائر في جبال البذّ ، وقد اهلك عشرات الالوف منا . واكبح جماح الروم فلا تتصدى لك اعلاجهم بأذى . واخمد كل سعي في نفوس الخوارج للائتمار بنا . وعندما يصفو الجو من الغمائم الدهم ، وينجلي الافق عن ناصع اللألاء ، ادفع اليك الاعنة ، فتجري بالدولة الى ذروة السعد والاشراق !

وأخفت فيه كل مناكرة . واوهمه ان الغد له وما يزال من العمر على غضاضة . الا ان اولئك القادة ما غضبوا ليشيح عنهم من غضبوا له ، ويستهين بولائهم المبين . قال العباس يحتج بهم : وكيف اداري امر هؤلاء الناقمين يا عمي وليس فيهم من يرضى عن سواي إماماً ؟... فهل لي ان انفضهم مني فيتعرضوا لاذاك ، واخون ثقتهم بي ، واستبيح حرمة المعروف وجلال العون ؟

فابتسم محمد المعتصم وأوضح : وتربة ابي هرون الرشيد ، وحرمة اخي المأمون ابيك المتوسد نعشه ، لاعفونّ عن كل من نصرك دوني ، ولابقينّ الجميع في مراتبهم ومرتباتهم ، وانا الموقن انهم سيخلصون لي ما دمتَ ذلك المخلص لعمك . فالأمان شامل يا ابن اخي ، وليس في بغيتي ان اشعلها حرباً هصوراً تأكلنا معاً . اخطب فيهم انك تؤيد وصية ابيك في الخلافة ، وما للابن ان يشمخ على ملتمس ناجله ، وهم في ذمتي وعنقي !

واحسن البيان فانقاد له العباس . وقام من ساعته الى القادة والجند

الحردين يذيع فيهم : امير المؤمنين عبد الله المأمون نشر وصيته علينا ، واننا لموثقون بشهوة السيد الراحل عنا . فارخوا من حدتكم ، واذكروا حق الطاعة لخليفتكم ، وبايعوا المعتصم عمي ، وهو يعاهدكم على السير بكم في اثر السلف الصالح . مات امير المؤمنين . عاش امير المؤمنين !

فأوجعهم هذا التخلّف عن ركوب السدة وجميع من حوله يشدّون به اليها . وان يكن سايره في الرجاوة فريق من ذوي الاعتدال ، وبايعوا المعتصم ، فما انفكّ النفور يغلي في صدور الآخرين ، وقد حقدوا على الاثنين ، على العباس والمعتصم معاً . وران على وجوههم القطوب فانصرفوا الى نسج احبولة تطيح المعتصم ، وتحيد به عن المهيع ، وما كانوا يحملون فيه الغطرسة المستفيضة ، والفظاظة المحرجة . ووقف فيهم المعتصم يجاهد في منع الاهواء من النشوز لئلا يفلت من قبضته الامر ، فقال : الحمد لله الذي رفع بكم شأن المسلمين واعزّنا بحميتكم . فانتم لا تنطلقون الى ميادين النصر لاجل افراد يقومون بأمركم ، بل لهدف يتوطد به شملكم ، ويعلو به شأوكم . ومن قبض امير المؤمنين ، اخي المأمون ، لن يبخل عليكم بمن يتابع الخطو ، وينطلق بكم الى المنى . ولقد اختارتني القدرة ، جلّ جلالها ، كي اسير بكم الى مطارح العلى ، ماضياً في نهج شقّه لنا الهداة ، ورسخ فيه اخي المأمون ، غفر الله لنا وله . واني لاقطع لكم على نفسي العهد الصادق باكرام ذوي الولاء منكم ، وبالابقاء على ما وصل اليه جهدكم . فلن اقوّض ما تُشيّد ، ولن انكر على ذي حق حقه ، بل سأعطي الجدير ما يتكافأ وحسن سعيه . وازيد لمن يجاهد في انصاف امته من الغاصبين . واقيم العدل . وأذلّ المشاغبين . فانا وانتم حرب على كل شقاق ونفاق !

فما همدت في القادة غمغمات النفرة . على ان المعتصم لم يقف ليصغي الى دمدمات الحانقين، ولن يسلم من جانحتها، بل نزع فوراً الى الصلاة على اخيه في اليوم المشؤوم نفسه ، من ١٧ رجب سنة ٢١٨ ، ودفنه في مدينة طرسوس ، على يسار المسجد. ولم يبق في ساحة القتال وقد خشي على مهجته من غليان القادة المستمسكين بجفوتهم . فنفر الى بغداد يستقر منها بصرح الخلافة، ويدعو الجيوش الى اللحاق به، وقد بدد المأمون قوات الروم وأدرك الفوز المكين

وما زال ابو اسحق يتقي صولة الجيوش العربية الموتورة ، وما تطيق ظله. فسكن الى الاتراك يخطب ودهم، ويرفع شأنهم، وهم اخواله، ويتحامى شر العرب المتبرمين بصلفه وجهله. وما امه، ماوية بنت شبيب، سوى تركية النسب، من إماء هرون الرشيد ابيه . بنى بها ابو الامين فولدت محمداً المعتصم

والتف القادة العرب في طرسوس حول العباس بن المأمون يعيبون عليه استرخاءه . قالوا : ما حسبناك في هذا الضعف من عمك. فتخلع عليه حقاً يصبو اليه ولا يملكه. فالخلافة تتهادى صاغرة اليك، فكيف تنبذها وتتجانف عنها ؟... لو اطلقت لنا ايدينا في امرك لرفعناك الى مسندها، ولالقينا اليك مغاليقها . فما عمك غير مغتصب . وقد يكون ابوك اوصى له بها في اوان غفلته، وما ابقت له الحشرجة فسحة الى روية. ألا باي قاهر رميتنا وسنكابد في زمنه الشدة والجبر، وهو يرى في نفسه صلابة واعتداداً لا ينثنيان حيال رشد ، ولا يقرّان بحق ؟

وهتف عُجَيف بن عنبسة : أتدري الى من وكلت امورنا؟... الى من سيستهين بنا ويقلقل رؤوسنا عن اكتافنا . وربما جرفك التيار فتبتلعك

اللجة . لا ، ما احسنت يا ابن ابي العباس وقد اسأت الينا ، والى نفسك .
ابوك ضلّ عن الهدية في الوصية ، فاقبلنا نقوّم اوده بشفار سيوفنا ، فامسكت
بنا عن الانتصاف لنا ولك . عفا الله عنك كم تستنيم الى حسن الظن بالناس ،
وما كان حسن الظن بالخلة الحميدة . فان حولك من الغيلان من لا يركن
اليهم في مسالة . عمك اقسى عليك من اعدائك ، وسوف يبدو لك صدقي في
النبوءة . بيني وبينك الغد القريب !

فبلع العباس ريقه خيبة . أيكون حاد عن الحجا وقد باغته عمه بالقولة
الخادعة ؟.. وخلا بعجيف يقول : وماذا عليّ يا عجيف وقد خلت من
الامر يدي ؟

فهز عجيف رأسه وزفر وقال متألماً : وماذا عليك ؟... ابقاك الله ! ...
كنا باجمعنا في نصرتك فخذلتنا . وهل لنا ان نقاوم الآن خليفة وافقته
على ركوب السدة ؟... لو تقاعدت عن المواءمة لاذللناه ولانكرنا عليه
الدعوى . اما وقد ظاهرته على ما ليس لسواك ان يتولى من إمامة ، فلم تفسح
لنا الى المضي في غضبتنا . هي سانحة جرّت اليك اذيالها فازويت بها ، ولا
اراها تعود فتصافيك . لقد اضعت النهزة يا ابن المأمون !

وخاطب نفسه بنفسه بانتفاضة من حنق : أنقبض على ناصيتها ، ثم نطلق
لها الرسن ، ونتلهف جازعين عليها ؟... انها لبادرة شطّت عن الصواب !

والتفت الى العباس يقول : لو ابحت لي الامر لرأى مني عمك ما ترتعد
له نفسه . ولكنك عجّلت وخيّبتنا . وعمك ادرك مبلغ نفورنا منه فعزف
عنا الى بغداد خشية منا . ولقد رأيته يمالىء الاتراك اخواله ، وهم قوم ذوو
بأس . فاذا أباح لهم العنان بلانا بشرّ داهية . فتشتعل الفتنة ، ونتطاحن

واولئك الانكاد الاشراس . لكأن الخلافة مصدر شغب وهرج، وما قامت لسوى التبريك والتقريب . الا انها الاهواء الزنخة تتقاذفها في كل فجّ وعر. هدانا الله !

فما زال العباس يكتوي بعضه . قال وهو في حنق على نفسه يكدّ في دفعه : أنقف حيال هفوتي مكتوفي الايـدي يا عُجَيْف ؟... بمن نلتمس الغوث اذا ما لجّ عمي في كيده، وطمع في قهري ؟

فابدى عُجَيْف بن عنبسة بلهجة الموقن بسداد ما ينشر من قولة : عليك بالفرس المضطغنين على العرب وقد سلبوهم السؤدد ، وانكروا عليهم صادق الولاء، واستذلوهم . فهم ابداً على كره لارباب الدولة العباسية ، ولا يمضي بعض الزمن حتى يظهر فيهم ذوو طماح واقلاق . فاذا ما والبناهم لقيناهم حرباً على المعتصم . يناوئنا بالاتراك فننازله بالفرس . وابوك فارسيُّ الميل ، والقوم اخواله . فهل لك في دعوتهم الى اغاثتك في النيل من هذا الراكب عنوة ذروة السلطان ؟

فذكر العباس ان جدته فارسية .فالمأمون، ابوه، ابن مراجل احدى جواري هرون الرشيد .ولا بد ان يحنّ الفرس الى معاضدة حفيدهم ،فيخزى المعتصم ابو اسحق . قال عُجَيْف : ولن نكلف انفسنا اثارة القلاقل في بلاد فارس وبابك الخرّمي لا يبقي على أمن سائد . فما لنا الا ان نباحثه في المناصرة كي يندفع الى مساندتنا بجميع قواه . فهو يرنجي هذه الآزفة ليهدم خلافة بغداد . وابوك ما برح على ثماني عشرة سنة يعاني منه الويل . فاذا ما استظهرنا به على المعتصم بات عمك ومن حوله احاديث !

فادهش العباس ان يدعوه عجيف الى استعداء بابك الثائر على المعتصم ،

وبابك يناوىء الخلافة في السياسة وفي الدين. فهو من اتباع «مزدك» النبي الفارسي، الداعي الى استباحة المحارم، وليس في شرعته دون الملذة حائل. واذا ما طغى امر هذا القبيح على بغداد ذهب بالتليد وبالطريف، وليس يكرم ديناً، ولا يرعى ذمة. فكل ما تقع عليه العين حلال لمبتغيه. قال العباس ينافي الملتمس: انك لتسوقني الى حيث تعلوني الدواهي يا عجيف. أنفزع الى من يروم سحقنا جميعاً؟... ابي قاسى المحن الشداد في مغالبة هذا الوقح وما ظفر به. فكل غارة شنّها على الخرّميّ نابها شر كسرة. ولقد سمعته يحرّضني على الكافر ويغريني بدمه. فكيف استخف برغبة ابي واحالف الزنديق؟

فابتسم عجيف ابتسامة من لا يستعظم حدثاً، وهو المجرّب، وقال: انت لو تغلغلت مثلي في حواني الزمن، يا عباس، لعلمت من امر الاحتيال على ادراك البغية ما يذلل كل خصومة وعداء. أتبدو لك تلك الاستباحة منكرة في دين «بابك» وتخشى صولتها؟... ولكننا سنكبحها ونقمعها لدن غلك الاعنة. ان هو الا مطيتنا لبلوغ الارب. فالداهية، يا ابن سيدي، من اجاز لنفسه ركوب كل حرام، وصافى في الوصول الى هدفه اكره اعدائه، حتى اذا ما ساد ابعد عنه عصبة الاشرار بسعة حيلة. فالصدق ويلٌ على صاحبه. واذا كنت أتفادى من الكذب في ديني، فاني لافرّه في معاملة الناس. وكلهم يعطيك المين والختل، مما بات به الاخلاص نكداً وحمقاً!

– ولكن يا عُجَيْف...

– دعني من التردد يا ابن المأمون. فوالله ما ارتضي الخسف. عمك لا يصلح للخلافة. اما انت فانك منها لفي مقعدك. فلنكن إلباً على المعتصم.

وسوف تراني في خدمته دون ان ابيح له الوقوف على ما يغلي منه في صدري . الا انه لا يكاد يفتح عينه في احدى ساعات طمأنينته حتى يبصر نصلتي في ألواحه. فلا علينا اذا خاتلنا للفوز بالمراد ، والولاء بلاء!

– أتكون من انصار «بابك» يا عجيف ؟

– من انصار الكافر ابن الكافر ما دامت مخالفته تنيلنا الشهوة . وما ان ننعم بالطلبة حتى يمسي الوحش المفكوك الرباط مكبلاً بالقيود ، مقلّم المخالب ، مفلول الانياب !

– أنسحقه وقد اجارنا على عمي ؟

فابدى عجيف بمستطيل التهكم : نسحقه ونصلبه امعاناً في الارهاب. فلن نقوى على فلّ غرب المفسدين بسوى العبرة الصارخة . ومن الضرورة ان يشيع في الناس اننا قوم لا نصبر على مضض . فنجازي المسيء باساءته ، والمحسن باحسانه . كان عمك نمراً فافترسناه عقاباً على ولوغه في دمنا . واستطاب «بابك» ان يكون ذئباً فحطمنا وثبته وكسرنا شدقيه . ولمن لا يزال ناهداً الى العيث الكريه ان يبرز الى الميدان كي نشدخ رأسه باعقاب النعال !

وتكلم عجيف بخشونة الجندي المتمرس باساليب التدويخ . فلا حياة بسوى الافناء . واستوضح العباس وهو لا ينفك على رجرجة : ومن لك الى بابك الخرّميّ يا عجيف؟.. أتكون به على صلة؟.. ألا تخاف ان يفضحك وانت تحضه على مناوأة الخليفة؟.. يا ويلك من عمي وقد درى بما تبيّت له من مكر . اني لاخشى منك عليك يا ابن أمي !

فأبان عُجَيف وقد استطال في تهكمه : لا تخشَ عليّ بقدار خشيتك

على نفسك . فكلانا طعمة النار . على اننا سنسعى لاطفائها قبل ان تلتهمنا . لنرجع الى بغداد ولنتظاهر بموالاة المعتصم فيما نوشقه بالموالك، محتجبين بما نسمّيه الاخلاص . ولو رسخت قدمك في المناوأة لنجونا من جميع هذه الصعاب، ولكان عمك يستعدي علينا ابناء الضلال دون ان يوفق للاذى، ونصالنا تبتّ عنقه قبل ان تسعفه قدمه في خطوة الى الايلام والحرمان !

فلم يكن للعباس الا ان يقرّ رأي عُجيف، وما ينطوي على سوى الفكر الحمير . ضلّ الفتى وقد قمره عمه في التخلي عن الامامة، مع كونه احق الناس بها . وزفر ابن المأمون واعلن بلهجة الكسير، الحسير : اني اعهد اليك في امري على مختلف وجوهه يا عُجَيْف. فلقد عركتك الايام وعركتها، ووقفت على ظاهرها ومضمرها . فاقبض على أعنة المقاومة ولنكن على عمي المعتصم ويلاً دامعاً . رفعته الى المنصة العليا بجهلي فلنقلبه عنها، بحنكتك ودهائك، الى اسفل درك . اني لاعرفك من رجال ابي الابرار فلن تبيعني للحدثان تهصرني وتذروني !

فأذاع عُجيف يستشهد القدرة على اخلاصه : ومن براني من عدم لن اكون في خدمتك غير ذلك الامين المطواع . فانت ابن سيدي ولي في التوفر على نصرتك عريق هوى . فالتمكين لبيتكم المنيف فرض عليّ وما فتئت امهد له وانا في كنف ابيك . لنعد الى بغداد ولم يبق في طرسوس سوى جثمان ابيك الهمام، رحمه الله ونفعنا بهواديه !

وعرجا على القبر يتبركان بترابه . وجثا العباس وعفّر وجهه في ثرى الضريح، وقرأ الآيات السمان . وانبسطت يدان، وابدى فمان قاسيان بلهجة

عزوم : كن ذلك المنجد يا ابا العباس ، نحن نجري في إحقاق ما ترددت في اقراره من راهن ، مبين !

فالابن والقائد يعاهدان على الانتصاف من المضيمة . وامتطى كل منهما جواده الى دار السلام ، وفي العين عبوس حانق ، وفي الخاطر شرود سبوح

٢

ما كاد العباس وعُجيف يزجيان الى بغداد المطايا حتى وفد عليهما وصيف، حاجب المعتصم، يقول : ألا اسرعا. مولاي يرقب ظهوركما بجانبه، وما انفك يسألني عنكما. انه ليميل الى ولوج بغداد، والوقوف فيها خطيباً، وأنت عن يمينه يا ابن المأمون . فالقوم يشوقهم ان يبصروك بلصق عمك ليوقنوا بتأييدك اياه في منصب الخلافة !

فالتفت العباس الى عجيف دون ان يتكلم . وومضت عيناه ببريق وقّاد . بمَ يعالن الرسول ؟... هل ينكص عما خطا فيه وينادي الى الفتنة بعدما جامل في المواءمة؟...وتراءى له ان ثمة متسعاً للعصيان وللدعوة الى مكايدة عمه، ولكن هل يفعل وينقض ما أبرم، فيبدو للناس رجراجاً لا يتماسك على طلبة ؟

وغاظه ان يقال فيه انه غرّ ، وان عمّه ختله عن نفسه . فلم يرقب نصيحة عُجيف، بل نزع الى حاجب المعتصم يجاهره بقوله: اننا لسائران في صعيد بغداد يا وصيف، فليطمئنّ عمي بالاً، وما تخلفت عنه كي أفسد ما تواضعنا عليه!

واذاع في القائد ابن عنبسة قوله : هلمّ يا عُجيف !

فوثبت الى حنجرة القائد كلمات الحنق. وحوقل وهو يصرف باسنانه . الا انه تمالك عن تفجير غضبه على مرأى من حاجب المعتصم، وليس يغيب عنه ما سوف يلقى اذا درى به أمير المؤمنين . فاكتفى بالقول الفاتر : اني لمندفع في أثرك أيها الأمير !

وحثّا مطيتيهما الى مدينة السلام يرومان بلوغها في أيام خواطف .

وأيقنا ، وهما يشقان اليها الفدافد والأدغال، ان المعتصم يطوّقهما بكتائب جرّارة من الأتراك تأبى عليهما طلاقة النفَس. فهمس عُجيف في اذن العبّاس: أرأيت ما نجني من برّك عمك؟... انه ليضيّق عليك الخناق حتى ما تستطيع ان تستنشق عرف الأمان . زده ولاء يزدك تدويخاً . ما أنت أوّل سارٍ غرّه قمرُ!

فتعاظمت نقمة العباس على نفسه، وخجل من عمايته . ولكن الفسحة لا تزال رحيبة لزعزعة ما شيّدته الغفلة، وسكت عنه الاحتشام . سوف يعاني المعتصم يوماً فاحماً لا يرتفع له فيه لواء

وتبين العباس انه شبه أسير، وهو يجتاز صفوف الجند القائمة عن جانبي طريقه سوراً منيعاً تحيبه في الظاهر ، على حين تكاد تنصبّ عليه فتسحقه كما تضمر الخفايا الدهم

وأوشك ان يضيق صدره باضطغانه . فما هي بالبادرة الاولى يلوي فيها عمه من مديد شأوه والتنافس بينهما ما يفتأ يتأجج منذ عهد المأمون . فالمعتصم حنّ الى الامامة فيما أبو العبّاس يركب السدة. وأبدى من الكره للعباس، ومن السعي لقهر وثبته الى استخلاف أبيه، ما لا يزال منه في الضلوع فلول

وهذه المناكدات لا تنفك تتجلى للعباس بخبائثها . فالزحام أبعده عن عمه أبي اسحق في كل موقف، وفي كل مقام. فاذا ما دفعه أبوه الى مغالبة المفسدين، وبدد جموعهم برهيف شباته، مال المعتصم الى الحط من روعة الغزوة المنصورة . واذا ما التقيا في نهج تهالك ابو اسحق على المسير في الطليعة، لا يبيح لابن اخيه ان يتقدمه في خطو

وان يكن لاكرام السن والعمومة يد رحيبة في سكوت العباس عن

اثرة عمه، فما كانت تسلم احياناً المصادمة من لاطم القول ، وناهك الحدة . فيتناكر العم وابن اخيه ويعلو الوعيد الصاهر . ويسقط الى المأمون نبأ الواقعة فيصلح بحكمته وراجح حلمه بين الحصنين الحبيبين. ويؤمله ان تحتدم الفائرة بين اخيه وابنه، وكلاهما كريم عليه . غير انه لا ينسى اي مطمع يحدوهما على المنافرة، وقد خاض غمار معركة مماثلة لطخت يديه بدم اخيه. فالسؤدد حافز الى ايغار الصدور ، والى العبث بوشائج القربى . فيتجاهل الابن اباه ، والاخ اخاه ، ويتبرأ من وشيجة الارحام كل طمّاح نهم

وحاول الاطراق العباس وقد شاعت فيه كمدة الخيبة . بأي نفرة سيلقاه اعوانه وقد جبهم بالنكد؟... فلم يكن له ان يردّ لهم رغبة حتى مع افضاء السعي الى الاخفاق. بيد ان الاخفاق ما كان لينطرق الى المبتغى وثمة الجيش ينصر الرجاوة ، ويتهالك على تشييد مداميكها العراض .

وامعن في غضاضة العباس خجله من امه ، ومن عادة غير امه تريده في الذروة. فما غابت عنه «نوران» ابنة القائد عُجَيْف نفسه، وهي من استهوته وعقدت له على ضميرها تعلله بالرغد والجذل . وما «نوران» سوى اشهى غانية في بغداد الزاخرة بالعمران ، وقد توافدت اليها الدنيا على رحابها ترتزق من روافدها ، وتشارك في ازدهـار غواليها . فضافت بالخلق. وقامت فيها حضارة وازنة ، مكتنزة ، انتقلت اليها من الهند واشور وبابل وفارس ويونان، تستظل الدوحة العربية الصلبة الجذع ، الوثابة النماء

ونوران حدثت العباس عن ضرورة الكدح لغده . قالت وهي ذات مطمع في المجد، وصبوة الى السلطان: حذار ان يسبقك عمك الى سدة ابيك يا عباس ، ولا عيش لك ان لم تملك الاعنة !

وتكلمت بشهوتها في اقتعاد الاريكة العليا في بسطة العرب . فلن تكون الخيزران في دولة المهدي ، ولا زبيدة في عهد الرشيد ، ولا بوران في زمن المأمون، ابعد شأواً ولا اطول يداً. واصغى العباس، الفتى الناشئ، الى نفحات الخزام المتصاعدة من مبسم ابنة عجيف بن عنبسة. فانتشى بالفوح الزكي وقال: وهل لي الى التخلي عن الكرائم عذر يا نوران ؟... والله، لأسوقنّ اليك المعالي عبداناً تجري على استذلال في موكبك. جميع نواضر العز خدمٌ بين يديك !

قالت وهي لا تنفك تحرضه على عمه : ولكن ابي يحدثني عن المعتصم بما لا يطمئن اليه خاطري. ففي عمك من النزوع الى اغتصاب السدة ما يجبهك بالخطر. الا ان ابي في طاعتك. وله من قواته ما يكسف به عنجهية المعتصم. وسيستميل إليك الجيش لتقضي به على جنوح ابي اسحق الى مركب الخلافة. وكل ما عليك ان تشحذ عزيمتك للنضال عن حقك. فما لمخلوق ان يتقدمك في احراز جاه أبيك !

وهمست في اذنه قولها، كأنها تخشى ان تقع كلماتها في مسمع غير كتوم: ولا تنسَ ان الجيش في قبضة سادة ينتمون في معظمهم الى فارس ، وقد آثرهم أبوك على القادة العرب لايمانه باقدامهم واقتدارهم . وهؤلاء يؤيدوننا بأجمعهم في ابعاد عمك عن طلبته ، فكن يقظاً صلباً !

وضحك العبّاس عالياً وهو يصغي الى مقالة نوران بنت عجيف ، كأنه لا يحتاج الى نصح . فما لعمه ان يعلوه في رحبة السؤدد، وله من حكمة أبيه ، ومن صلابة عوده ، ما يقصي كل مقتحم عن متكأ الحول والطول . ووثقت نوران بما يلقي اليها . على انها، مع ثقتها بان الطريق معبّد الى الهدف،

ما ونيت تحاذر ان يستأثر المعتصم بالسدّة، ويزيح عنها كل ناهد البنا. وليست تجهل ابنة عُجَيف ما يملك أبو اسحق من ضلاعة العصب. وهو في قدرة تبيح له ان يرفع بين يديه فيلاً، وان يلوي حزمة من قضبان صلاب. وله من غطرفته ما يرمي كل من حوله بالوجل. فلا يتفق لذي حول ان يخالفه في رأي، وان ينقلب عليه في مهادنة.

الا ان محمداً المعتصم لبس الجيش. وهو ما استندت اليه نوران في زحزحة أبي اسحق عن الصبوة. وما كانت لتنثني في مجالسة أبيها عن حضه على موالاة العباس، وله فيها جزيل العائدة. فوعدها عجيف خيراً وأبان: ان السواد الأعظم من الجيش لفي غوثنا يا ابنتي. فما على العباس الا ان يومىء كي يعلو صليل سيوفنا، وتناطح رؤوس أسنتنا جوانح مناهضيه!

وعجيف نارٌ على المناوئين، وكفة نصر راجحة في قومه. على ان العباس خذله في مصادمة المعتصم، وقد ماع ابن المأمون في المقارعة، كأن لعمه من السيطرة عليه ما يخفت فيه كل حسّ

وحار العبّاس في الاهتداء الى عذر وجيه يقنع به امه وفاتنته بصواب عمله. وما اتقى غضبة أمه بمقدار ما خشي امتعاض نوران. فتمثلها، وهو في طريقه الى بغداد، لبوءة مستطيلة المخالب، مسنونة الأنياب، تتحفز لقضمه وتمزيقه

ورهب مرآها وصمم على اجتنابها. فلن يبدو ازاءها مخافة زرايتها به ورشقها اياه بالمقال المهين. أبمثله تجدر المعالي وهو الزعنفة ؟... وطال عليه السهوم وقد خانته الجرأة حتى في النظر الى عجيف، والد نوران، السائر على مقربة منه. وكلما اجتاز كتيبة من الجند تأوه، وحنق، وودّ لو لم تلده امه

وأنى جمح به خياله تراءت له نوران في غضبتها ولذعتها . أبداً نوران . أما لهذا الطيف الناقم ان يغرب عنه وهو لا يفتأ ينقضّ عليه تبريحاً وتجريحاً ؟... وتحين منه لفتة الى ماضيه الحلو ، الباهر اللألاء ، فتتقد في خاطره ذكريات سماح أضاءت زمناً على ضفاف دجلة ، وشاطرته اياها نوران العذبة المبسم ، الوشيقة الخطو ، الدعجاء العينين ، كأن في مقلتيها ليلاً يضلّ به حتى المهتدي ، البضة البشرة ، المختمرة بلون الافق بعيد الغروب ، الأسيلة الخدين ، الطويلة العنق ، الرخصة الأنامل ، كأن أصابعها بواكير التمر النضيج . وما زالت ضحكاتها الرخيمة متجاوبة الاصداء في مسمع ابن المأمون . وما فتئت أحاديثها الطافحة بالانس والفطنة تنبسط كالنشوة الفسيحة الأمد في وعيه الصدوق ، فيعيدها ويستعيدها بغبطة الرحب الأمل ، المشرق الغد . أما الآن فماذا بقي من هذه الطيبات وقد بعزقها ببلاهته ، وكان فيها أشبه بمن يقبل اليه السعد فينحره ، ويستصفي دمه ، وانما ينحر نفسه ويبيح للفناء التهامه ، دون ان يكلف مهجته مغالبة العفاء الاكول ؟

لا ، لن يجبو الى ذات السنى المنيف وما يحتمل وقع ملامها ، وقد كان دون المرجوّ في ادراك الملتمس . فليس حقيقاً بالدرّ من أسفّ الى التراب . لتبقَ نوران في خبائها وليس لوهج الحسن ان يسطع على النفاية . واشتدت بالعباس الجهامة . ورأى للخروج بنفسه عن المعاير ان يعتب على ابيه . فما انصفه المأمون وهو يبايع المعتصم . وهل نسي ابو العباس حسن بلاء ابنه في الحروب ، وقد هدم له المشاغبين ، وخضد شكيمة الروم ؟

وما ضرّ المأمون لو امسك عن مبايعة اخيه وهناك ابنه ، والابن اولى من الجميع بان يرث اباه ؟.. هلا كان اشبه بمعاوية بن ابي سفيان وقد اقام

وسعة العرب واقعدها في البناء ليزيد، حتى اقلق ابناء الخلفاء في مضاجعهم، واكرههم على مبايعة ابنه بحكم السيف الصقيل ؟

ولكن المأمون ممن لا يقرّ لهم قرار، وهو من الهائمين بمناهضة المألوف. فالتمرد على العرف يشوقه، كأنه في الاوتار العباسية نغمة شاذة. قال العباس وخاطره يتلظى حقداً على ناجله : ما لي اتحامل على نفسي وابي اقصاني بمل‌ء رضاه عن المأمول ؟.. فكأنه اذا اوصى من بعده لاولاده نطق كفراً ؟.. وما كنت لادري اي نقص يعشش في ذلك الذهن السامق، المتفوّق، فيميل به احياناً عن النهج السويّ. نشأ العباسيون على لبس السواد والاستظهار بالامامة ، فهفا المأمون الى الخضرة ونادى بعلي الرضى ولياً لعهده، مستهيناً بحق سلالته بالخلافة ، مما اهاب بعمه ابرهيم بن المهدي الى انكار سعيه وخلعه والثورة عليه. وقال بخلق القرآن فدعا الائمة الى مناهضته، وفي طليعتهم احمد ابن حنبل . فغضب عليه ابو العباس وسجنه وما يزال غارقاً في الظلمات . واباح المتعة والشرعة تتجانف عنها. ولولا موت علي الرضى لكان امر الخلافة اليوم في متناول العلويين ، ولاضحت يد بني العباس منها صفراً . على ان هذا الحق، وقد عاد الينا بانصاف القدرة، ابى والدي الا ان يزجيه في مدرج تنبو عنه الحكمة . فكأن كل شذوذ حبيب الى المأمون !

ولقي في هذا البيان مخرجاً لغفلته . فلا تبعة عليه اذا افلتت منه الخلافة وابوه قضى عليه فيها بالخسران . واعتمد على هذه الحجة في نفي الاسترخاء عن نفسه . فعلى مَ يقوى في مكافحة رغبة أيّدة منزلة؟.. وتنفس، ولكن دون ان يشفي حزازته، وما فتى‌ء يتألم كأن كل ما يستر به وهنه من حُجُب متصدع الأس . ومال على عُجَيْف بن عنبسة يقول : أتدعوني الى الظهور

بجانبه وهو يذيع في الناس خطبة ركوب السدة يا عجيف ؟

وعجيف، مع مضائه، ونفرته من مبايعة المعتصم، لم يعدم النظر الصائب، ولم يكن يعزّ عليه في مواضع التأني ان يطوي سخائمه . قال : ما ابقيت ليومك مسلكاً آخر تحبو فيه. فاندفع في طريق شققته بيديك ثم نتبين لنا مجالاً ننفذ منه الى الوطر. ابوك احتمل عمك الامين خمس سنوات راجحة، فلا بأس ان تعادله في الصبر على الشدة !

فاقلقه ان يضطر الى الانتظار هذا المدى البعيد، ونبر: أأقيم على المضض خمس سنوات ، لا ابا لك ؟

فحامت على شفتي القائد بسمة هازئة ، حاقدة ، وقال: اذا نجونا منه في خمس سنوات فقد فتحنا فتحاً مبيناً . لا تنسَ كم اكتنز عوده وقد امسك بقاليد الخلافة . فالكثرة من الكاشحين امست في حشد الموالين. عليك بالجلد يا ابن سيدي. فمن ضاق به الصبر فقد شالت كفته ، واضحى من الهالكين !

فتململ . ان السنوات الخمس لعمر طويل . وعمي عما حوله واصابه دوار زاد في ارتباكه، وفي ضغينته . كم بدا كابي الحظ ، عاثر الرأي ، وهو يستنيم الى طلبة عمه . وما امسى على ابواب بغداد حتى ظهر له المعتصم بلحيته الطويلة الصهباء ، ووجهه الابيض ، يرحب به . قال ابو اسحق وهو يفتح صدره لابن اخيه فيضمه اليه ويعانقه : لم اشأ ان ادخلها الا وانت رفيقي اليها يا عباس . فما ازال ارقب ان تبدو كي نقتحمها معاً يا ابن اخي . ولقد دفعت اليك حاجبي وصيفاً لتستعجل الوثبة . بورك فيك وقد جئت في الاوان . لندخل . لا ابعدك الله عن عمك، وهو يرى فيك الامل المبرور !

واومأ الى الركائب والجحافل ان تحركوا . فماجت الصفوف تزحف الى بغداد الواجمة ، المتلهفة على المأمون الراحل وقد فقدت به ركناً وحامياً . فما عرفت عهداً توطدت فيه ركائز السعد واليمن كعصره. فكأن كل ما بذل العباسيون من وكد، اختمر في عصر المأمون. فهو وجه النهضة العباسية، وغاية وثبتها منذ قيام ابي العباس ، وابي جعفر ، والمهدي ، والرشيد. ولم يبق ذو فكر وعلم الا شمّر الى بغداد يسكنها ويبني فيها لنفسه لاحراز الصيت والرزق

وجزع القوم وهم يلمّون بنبأ ارتقاء المعتصم الى مسند الخلافة، وما يندّ عنهم أمره . فليس يدين لسوى القوة والعنف . وبغداد ، الآخذة باسباب الرقي، تمانع في ان يسيطر عليها من يزورّ عنه العلم، ولا يجد في السلطان غير الشدّة والنزق . وودت لو قبض على ناصيتها العبّاس وهو ينحو نحو أبيه في التوطيد للعمران والعرفان. بيد ان العبّاس انهزم في الشوط، ودلّ على خنوع ، كأنه موقن بكونه دون المهمة

وأدهش هذا التقهقر عن المجد بغداد على بكرة أبيها ، وكان قد نمي اليها نبأ المبايعة ، ودرت بان المعتصم تولاها اغتصاباً. وعتبت على المأمون وهو يستلّ من ابنه الحق التليد، ليهبه لرجل يصلح في عرفها للصراع، أكثر منه للحكم . وما أحجمت عن مشاطرة العباس رأيه في أبيه المستطيب الشذوذ. فقالت لا تتهيب : وهذه إحدى بدع المأمون !

وانتشر في وجه العباس القطوب ، على حين أشرق البشر في المعتصم ، وأضاءت الغلبة نفسه . فخلا من أثر التلهف على أخيه ، وقد طوى أسواق بغداد ، وجاداتها ، باستنسار القرم المرخيّ العنان. ولاح بجانبه العباس للعيون كأنه البغاث ، شاحب اللون ، ملتوي الكتفين ، ذليل الروح

واندفع الموكب الى قصر الخلد . وما جهل المعتصم ان بغداد فاترة في توحيبها به، وانها تنظر اليه بعين باردة، كأنها على خيبة . الا انه لم يعـدم بعض الهتاف والتصفيق، جـاد بهما عليه جماعة الأتراك . وقـد هبت ريحهم بعد ركود

وزخر قصر الخلد بالوفود . وضرب عليه الجند نطاقاً منيعاً لا تخرق له جنبة . واحتشد في الساح الخلق، حتى لم يكن هناك غـير رؤوس، كأن الرحاب منابت هامات. وأطلّ المعتصم من الشرفة الكبرى يتصدرها، وعن يمينه العباس ابن أخيه، وعن يساره هرون ابنه. وبدا للقوم في ربعته وبدانته وشبابه ولحيته الطويلة الصهباء. وأجال عينيه الحادتين في الجموع المتراصة، كأنها مشدودة بوثاق . وقال بلهجة لا تنبو عن الاعتداد : أمير المؤمنين، عبد الله المأمون، مات وهو يوصيني بكم، ويوصيكم بي. فاسألوا الله ان يتغمد الراحل العظيم برضوانه، وشدوا إزري في قهر أعدائه . فـأقوم فيكم هادياً، وكلكم حبيب عليّ. فما لا يرضيكم مني فالفتوني اليه . ومـا يوطد جلال هذه الامة، ويقيها الكبوة، فكونوا يدي في رسم معالمه، وتشييد مغانيه. وهذا هو العبّاس ابن أخي على ما أقول شهيد !

وجنح الى العبّاس معلناً : ألا أذع فيهم مشيئة أبيك يا ابن أخي !

وأهاب به الى التأييد . فاشتدت بالعبّاس الجهمة . أيغضي في نحر حقه بالخلافة، ويبايع عمه غير مدخر لنفسه فضالة من رجاء؟... وتنحنح كأن في صوته بحّة . وود لو أمسك عن النطق . وتاهت عيناه تسألان في الصفوف عن عُجيف بن عنبسة، وعن ابنة عجيف . فالى مَ يرشدانه وقـد أحسّ بالارتباك، وضاع عن أمره؟... ولكن ابن عنبسة وابنته نوران لم يقعا في

بصر ابن المأمون. فتعاظمت حيرة الفتى وخشي فتكة عمه المرتقب على نار بيان المبايعة، وإلا أطاح الحرد الحرون. وغمغم العباس بعدلأي، ولا محيد عن المواءمة : أبي ، رحمات الله عليه ، قضى ، ولا مردّ للقضاء . خليفتنا عمي أبو اسحق محمد المعتصم . واني لمؤيده في ما أراده عليه خليفتكم المطويّ الكتاب !

فعضّ جمع غفير شفاههم كمداً ونقمة . ما كان أشهى الانقلاب على ابي اسحق والسانحة مؤاتية . على ان اللسان أفاض بما ذهب بالحين المؤاتي . فالعباس نزع عفواً من عنقه قلادة الخلافة ليطوّق بها جيد عمه . وارتفعت الصيحات : عاش الخليفة ابو اسحق محمد المعتصم !

وقرعت الطبول . ونُفخ في الأبواق . لن يعدم الخليفة من ينصره ويمينه استأثرت بمقاليد الامامة ، والناس في طاعة القوي حتى على عسفه . وانجلت عن وجه المعتصم الحيرة الحائمة على الأسارير ، مخافة ان يتردد العبّاس في المبايعة ، لتنبسط فيه الغبطة الفضفاضة . فالفرحة ملأت الجوانح وسطعت في المباسم . وسدد أبو اسحق نظرة التيه الى الجحافل المؤازرة بين يديه وقال : أنا المعتصم بالله فيكم . أطيعوني فانصركم ، والويل للدسّاسين !

فعاد الهتاف يناطح الافلاك : عاش أمير المؤمنين !

على ان ثمة شفاهاً خرست ودلت على الوجوم الخاذل . ولم يكن عجيف ابن عنبسة ، وابنته نوران ، في سوى الرعيل الاول من هؤلاء الحانقين ، الموتورين ، وقد ذهب العباس بالتالد الخصب ، قانعاً بالجافّ اليبيس

٣

في دار المأمون صائحة كأن المناحة فيها متسلسلة الفصول . فاحتشدت زوجات ابي العباس وبناته وجواريه يبكين الامام الراحل ، وما كان لاحزانهن ان ينضب لها مسيل وقد التوى العزّ ، وصُوّح الرجاء . وأقبلت عريب ، الجارية الفارهة ، الفارعة ، وللمأمون بها متمادي الولوع ، تذيب صبيب الدمع ، وترثي سيدها الهمام بأندى صوت ، وأطيب شعر . وتحلقت عليها النساء يشاطرنها النواح ، ويرددن لوعتها المنظومة الرثات والقوافي ، كأنها رصائع الشجو الملتاع على المجد الدفين

وامتزج الغضب بالأسى . فما ارتضى ذو صواب في الدار المفجوعة بعميدها ان ينأى عنها السلطان ، فيتنزل العباس عن الحق الأثيل . وعاب عليه اخوته جبنه ، وليس له ان يخفت صيحة الجند وقد التمعت في نصرته الشفار المسنونة . وماجت امه على غيظ هادر . أيكون ابنها ذلك الغبيّ ، فينكر على نفسه ما أثبته فيه الجيش ، وبايعته فيه الدولة العباسية على شاسع آمادها ؟... ألا أين ذكاء المأمون في من أنجب ؟... أيسود الإمام الهادي القوم بوسيع علمه ، وجميل رأيه ، ولا ينجل من يوث عنه سجاياه الملاح ؟... ولكن أم العباس تعرف في ابنها الصولة والبأس ، فهل طار عنه اقدامه حيال عمه المعتصم ، وأضحى الشبل حملاً لا ناب له ولا ظفر ؟

ومانعت في ان تضمه اليها وهو يبدو ازاءها بانكساره وبحرانه . ووقفت منه موقف المندد الناقم . لا كان الرجال اذا تكشفوا عن معدن وشيك العطب . ولم يتعجب العباس من كمدة أمه ، ونفارها ، وما غاب عنه فاضح

استرخائه وخبله . فدنا منها يقول بطاغي المذلة : من حقك ان تلطميني ولم أكن ذلك المقدام الجسور !

فغشيت عينيها الدموع السخان وهتفت : واذلاه ، لمن الجئنا بقعودك عن ادراك شأو ابي العباس، ابيك ؟

فأحس بالطعنة نجاح كبده. ان في قولة امه لصادق اللومة . لمن ابقى هذا البيت الباذخ، وقد تخلف عن توطيد ما بنى ابوه من دعائم، وصان من حرمات ؟.. قال يدفع عنه التبعة بلعثمة المقهور : ولكن ابي خذلني في الامنية يا اماه ، وهو من قضى عليّ بالحرمان . مات وانا في جبهة الجيش . ولقي بجانبه المعتصم، عمي، فعهد اليه في امر الدولة وتناساني . لا ، وحقك ، ما انصف المأمون !

وخضب لهجته الاكتئاب الدامع . فصرخت به امه : ألا ما كان يمنعك من اقتناص السانحة والجند في معظمه عالنك الولاء؟... أتحبو اليك الرجاوة فتشيح عنها إزوراء بها ؟.. ماذا ترقب لنا من مصير وقد فجعتنا بابهة العلياء؟

وهفا اليه اخوته يعيبون عليه التواني . لن يظفر بنهزة تعينه على الارب كالآزفة الموفورة في طرسوس، وهذه المتجلية في بغداد. الا انه غفل عنهما فضاع واضاع. وكاد يفضي ، حيال هذا التنديد الموجع، بما تواطأ عليه عجيف بن عنبسة . الا انه حرص على السر ولن يبيح له الشيوع . واكتفى بان يستوضح : ألا يجود الدهر ببارقة ينزع بها الى موالاتنا ؟

فارتابوا بان تعرض له شرارة من امل بعد استهانته بالومضة المتهالكة على المعونة، قائلين له: بات عمك سمين الضلع،طويل اليد، فأنى تصاوله وهو في راسخ الجبروت،وقد انكفأت عنه وانت اصلب عوداً ، وارحب باعاً ؟

فسكت. انهم لينطقون بالرأي الصائب . غير انهم يجهلون ما عقد عليه النية ووالد نوران . وخيرٌ لهم ان يظلوا على جهل لئلا تنسلّ الى المعتصم غمغمة فاضحة . قالت امه تعيّره الكبوة الهتاكة : لم يبقَ لك إلاّ ان تستنيم الى غفلتك وقد سلبتنا جميعاً منعة السؤدد. شقيت واشقيتنا !

وانفجر فيها الاعوال وما زالت الصائحة تملأ الدار تلهفاً على الامام المفقود . واذا جلبة تعلو . واتجهت الابصار الى باحة الصرح، فوقعت على موكب الخليفة المهيب ، وقد سعى الى دار اخيه يعزي بالمأمون اولاده وحرمه . قال وهو يبدو فيهم بفخفخة السيد الموفن بوارف قدرته : ليس لي الا ان اقاسمكم شهوة التفجع على العميد المهصور في أوج البطولة . دحر العدو بمضاء. وابصر، قبل ان يسطو عليه الردى، فلول مقاتليه تنهزم بضعضعة الخزي، ومعرّة الهوان. وهو ما يصبو الى بلوغه كل مغوار. ما كان المأمون فينا إماماً هادياً وحسب ، بل غازياً قاهراً . وكل ما اجنح اليه في زمني ان يهب لي العليّ، الرحيم، بعض ما ملك اخي من همة وفطنة، للمسير بهذه الدولة في طريق عبّده الاوائل، ودفعونا فيه لاكمال رسالة الهداية والعمران. ولي من اخلاصكم، ومن مبرّة مظاهرتكم، ما يميل بي الى اليقين اني لن اعيا عن المهمة الموكولة اليّ !

فساد الاطراق . وغرزت العيون في الارض جزعاً وارتعاضاً . انها لخسارة فادحة منية المأمون. ولم يشفع في الاسرة قيام ابن له يليه، مما زاد في مدى الحرقة . قال المعتصم مجاهداً في مداواة الافئدة المكلومة : اذا قضى اخي فان لكم مني السند الأمين ، والغوث الواقي . فما يزال المعتصم يجد نفسه من هذه العصبة المتوفرة على رفع مكانة العباسيين . انا من نما في

هذا البيت ، ودان بهوى سيد هذه البيئة . فما بثّ المأمون من عقائد لن يمحى له حرف ، ولن يخفت له جَرْس . وبوسعكم الاتكال عليّ في جميع ما يعرض لكم من حاجات ، كأن أبا العباس لا يفتأ يعيش . فلا تبرح الخلافة ملء ايديكم . واذا تقلدت زمامها فما انكر انها منّتكم عليّ !

وانحنى على العباس يقول: ستكون في دولة عمك المعتصم ، يا ابن اخي، كما كنت في عهد ابيك . فالرأي رأيك في التنظيم والتدبير وانت وليّ الجيش . فلا يقوم اشناس والافشين وعجيف بسعي انت له معاند. فالجند في عصمتك، وعليك ان تسوسه بما حسن فيك من سداد الخاطر ، واصالة التدريب !

فجمجم العباس وهو يكاد يختنق : شكراً يا عماه !

قال المعتصم: وسأدفع اليكم من بيت المال ما يبدد عنكم كل متعبة. فليس للأمراء العباسيين ان يعانوا صلف الأيام وشؤم الصروف !

فأعلنت أم العباس بلهجة الاباء المغتاظ : ليس لنا ان نكلفك ارهاق بيت المال وهو ذخر الامة يا ابا اسحق. فالمأمون، اخوك، ابقى لنا من الوفر ما يقصي عنا مضض المحن. اننا لفي غنى عن الأخذ من بني قومنا لأنفسنا !

فشعر المعتصم بجفاء النبرة ، الا انه احتمل وقع النفار . فليس له ان يحاسب في الذرّة وقد اغار على الجسيم ونعم به كله . وما كان يجهل انه سيصادف في اسرة المأمون امتعاضاً ، وغلّاً، وليس لمن تهوي عنه النعمة ان يطيق ظل من دلفت اليه . على انه ابدى من الكياسة ما دل على كونه لا يجحد الفضل، وما توافر له اقتعاد الاريكة السامقة لولا سماح المأمون . وتحدث عما سيجري على ابناء اخيه من مناصب، ولن يفضلهم عنده ولداه

اسحق وجعفر. فما لسلالة المأمون ان تحتّي في ارائك العز ويساورها العفاء.

ولكن هذا المفرنّش الحبيل ، المحبوك من زكيّ الريحان ، لم يبلغ من الافئدة مرماه وما كانت البواني صافية الدخلة . فالنقمة على المعتصم هاجت في الصدور وما لقي ابو اسحق في دار اخيه منفذاً الى رحابة. ولولا فروض الضيافة لتطايرت الضغائن تدلي بدمدمتها. وشعر الخليفة برهبة الجو ، الا انه ودّ ألا ييأس من اجتذاب هؤلاء المتأففين ، الحاقدين

واسرف في المجاملة وفي السخاء بالوعود. غير انه رحل عن دار المأمون وهو يحس بجفاف اللقاء والوداع. فما في القوم من يرضى عن نكبة الحرمان. وارمدت المخاشنة عين ابي اسحق ، فقال يخاطب نفسه وهو يعود الى قصر الخلد في موكبه الانيق الحفيل : وماذا لهم ان يعترضوا به عليّ والمبايعة وقعت ، والعباس جهر بها مرتين ؟... اذا استطابوا الشغب فاني لاول من يرهف له الحد ويطفىء جمرته . فليس الامر مباحاً في دولتي للمقلقين !

وامتدّ به الخاطر الى مجابهة الوقيعة اذا استعان العباس بالفرس ، وهم رجال ابيه . فالاتراك في طاعة المعتصم وله في القائدين اشناس وايتاخ ، التركيين ، اقوى دعامة لتوطيد عزته . ولا بأس ان يضيء الوجه التركي في رحبة العرب بعدما سطع طويلاً الوجه الفارسي . واي فارسي ادناه منهم العرب ولم ينهد الى المكايدة والعصيان؟... وليس للدولة العربية ان تحتمل مكر هؤلاء الموالين في العلن، والمناكدين في الخفاء. تضيق صدورهم بالحنين الى استعادة العز الضائع وابادة العرب الغزاة ، على حين تجود افواههم بالمقال الحلوب ، السمح . قال المعتصم بفيض من حنق وهو لا يفتأ يخاطب نفسه فيما يمتطي صهوة جواده الادهم : هم شرّ علينا من اعلاج الروم . فاتنا

لنعرف الروم أعداء لنا ، أما الفرس فما ندري أأعداء هم ام اصدقاء، وما انفكوا ينقلبون علينا ليستعيدوا عظمتهم الموؤودة. فجابهونا بالفتن منذ قيام ابي جعفر المنصور، جدّ ابي ، وما برحوا يدهموننا بالصدمات . فما نجا من مكرهم حتى المأمون ، مع احتفاله بامرهم ، ومو الاتهم ، وقد حشد منهم في جيوشه ودواوينه العدد اللجّ . على اني ساخضد شوكتهم ، ولي عليهم من الاتراك خير معين . فالتركي اسلم جانباً ، واقطع حساماً . وما كان لاشناس وايتاخ ان يتقهقرا عن طاهر بن الحسين وابيه . فليحذر العباس . اني لاضنّ به ان يحترق بنار تضرمها يداه !

وبلغ «دار الخلد» ليعجل في دعوة اشناس وايتاخ اليه . وظهر القائدان التركيان بعرض ألواحهما، واعتدادهما بصولتهما . ووقفا بين يدي الخليفة ينحنيان حتى الارض، ويعلنان متناهي الخضوع. قال المعتصم : ليس لنا ايها الصفيّان ان نغفل عما يراد بنا في جبال البذّ، وقد استنسر فيها البغاث . فما لبابك الخرّميّ ان يمضي في غطرسته وقد بلغت ضحاياه منا ما لا يقل عن مئة الف . وانتما تعلمان ما لقي فيه اخي المأمون من عناء، وعياء ، بما ارجو ان لا يعوقنا في مناوأته. فسأدفعكما الى قهره ودقّ عنقه، وانا الموقن انكما لن ترجعا عنه بالخذلان !

فقال ايتاخ وهو من ذوي الصلابة ، وحسن الرأي : سوف يرى منا امير المؤمنين ، في تشتيت شمل الآبق، ما يوقن به اننا من خلصانه. وليس لنا ان نجحد نعمته ، وان نشيح عن مذهب الوفاء !

وابان «اشناس» ، وما كان يعزّ عليه ان يلين حتى يمسي هباءة، وان يتنمّر حتى يصبح ناراً اكولاً : ظل المأمون ثماني عشرة سنة يقاتل الخرّميّ

يا ابا اسحق دون ان يصيب منه مغمزاً. فالنصر ما انفك يوالي الزنديق العابث بالمكرمات. على اننا سوف نجيئك به مرضوضاً، ينوء بالسلاسل، ولنا من ايماننا بوارف سطوتك ما يذهب بكل افّاك متلاف !

قال المعتصم راضياً عما يسمع : دعاني اخي المأمون، وهو يموت، الى انقاذ الدولة من شر هذا المخاتل . واريد منكما ان تحققا ما عاهدت عليه اخي قبيل ان يطلق الروح . فما لذاك الجلف ان يظهر علينا وانتما لي ظهيران !

فنبر ايتاخ : لنطرحنّه تحت نعليك ذليل الهامة يا امير المؤمنين !

فاعلن بلهجة قاطعة : اذن تأهبا . عليّ ان افتح عهدي بضربة عزوم تتجاوب اصداؤها في الخافقين . ولم أرَ للمهمة اصلح منكما فندبتكما لها . فدلاّني على ان الجرأة ليست وقفاً على الفرس. فما ابتدع كسرى انوشروان وقومه لن يضيق به الاتراك. كان بوسعي ان ادفع الى بابك بني امه، وفي قادة جندي منهم العديد الجمّ، الا اني امسك عن الركون اليهم وما اجد في الفرس ذا حفاظ . فكم اوقعوا بنا وما ننفك نكابد عصيانهم، كأنهم يضيقون بسؤددنا، ويجنحون الى استعادة ما دال عنهم من علياء . ولكن الزمن لا يوالي أمة ابد الدهر . فلا بد من تداعي البناء يوماً مهما بلغ في تشييده منشئوه من حذق ، وتوطيد اركان !

فهتفا معاً : سمعاً وطاعة يا ابا اسحق !

قال : اذا انقذتماني من بابك فلن يقاسمني جاهي سواكما . ارادها المأمون عربية فارسية، وانا اريدها عربية تركية . وليس لسلالة المفسدين ان تفوز تحت لوائي بالرفعة والصفاء . ما ارام الا يرموننا ابداً بابي مسلم وأشباهه، كأن ليس للسكينة ان ترفرف على دنيا العرب وهؤلاء الانكاد لنا بالمرصاد !

فقال « ايتاخ » بصوت جهير : سنكفيك شرهم يا امير المؤمنين !

فاذاع بشدة : احملا اليّ « بابك » وليس لكلمة عندي ان تعلو كلمتكما . فالعرب والاتراك اقرب الى التحالف والتعاضد من اولئك الضائعين عن دين يعتصمون به . آناً يعبدون المرأة ، وآونة يعبدون النار . وما « بابك » الا صورة عن « مزدك » . هذا دعا الى الاباحة ، والخرّميّ النذل من انصارها ، كأن ليس على المرء في ذريته حرام . فالأم مباحة لابنها ، والأخت لأخيها ، والابنة لأبيها . فهل سمعتما بمثل هذه الموبقات ؟ .. ألا لنفلّ غرب الزنديق ولنقوّض به جبال البذّ . فمهما استأسد فمن المحال ان يبلغ شأو الروم . والروم اذللناهم ، فهل تبطر الخنفساء ؟ ... والله ، لن تغمض لي عين الا يوم ابصر الكافر مهدود الحيل ، مخضباً بالدم ، يستجديني الرحمة فيتلقاهـــا رفسة تكسر اضلاعه ! وهل نعجز عن وغد ؟

فابدى « اشناس » بدماثة بيان : معاذ الله يا امير المؤمنين . فليس للاشرار في عهدك ان يطمئنوا . واذا تقهقر المأمون عن المفسد ، فقد يكون لبعض الجنود الفرس يد في الهزيمة . اما نحن فسننقضّ على الملحد اتراكاً في اتراك !

فاعلن متحمساً : انتما شريكاي في امتلاك الاعنة ، فلا تخذلاني في الموقف الفصل . وما يخفى عليّ ما بدوتما فيه يوم المبايعة وقد ذدتما عني ، وانقذتماني من كيد المشاغبين ، وانتما تلمسان فيهم شهوة الانتقام بي ، وما هم غير فرس اقحاح . ولو تمّ لهم ان يظفروا بالعباس إماماً لدالت دولة العرب ، وعاد الاكاسرة الى ركوب العرش واستعبدونا . ولكن القدرة تأبى ان يفوز ذوو الشرك ويخزى الموحّدون . مسكين العباس ، ابن اخي ، ما كان غير لقمة

سهلة، في حلوقهم الشرهة، لو توسد منصة ابيه، ودانت له مقاليد الاسلام !

وتكلم بحنق الموتور . سيضرب «بابك» كي يعتبر العباس وجميع من يستأنسون بفتى يراه قاصراً عن الحلم. فعلى المتأكدين ان يعلموا، ان من قام على رأس الدولة، ليس ممن تروّعهم الاحداث، ولا ممن يحفلون بمن يعكّرون عليهم الماء، وما ان يضرب حتى يستأصل، وما ان ينقم حتى يطحن، فليحذر الاغرار !

فأبان ايتاخ : ما كان غير لقمة في حلق الأفشين، وابن عنبسة، وكلاهما يفغر شدقيه لابتلاع البسطة العربية . فالفرس باتوا يرهفون الأنياب لقطع دولة هي شوكة في الحلاقيم ، وحربة في الاضلاع !

فجلجل أبو اسحق : أتغريني بدم الافشين وابن عنبسة يا ايتاخ؟..والله، اذا تحركت في ضميرهما بادرة شموخ فاني لحاصد هامتيهما بشفرة هذا البتار. وهل للنغلين ان يستأسدا وهما من صنائعنا وموالينا ؟... قد يبطر العبد ويتنمّر على مولاه ، ولكن ليعلم الاوغاد اننا لسنا غافلين عن خناهم ، ولا عاجزين عن كبح طماحهم . فما رسخت لفارسيّ قدم في هذه الدولة لولا رفقنا بالانكاس. وهل لاح لك من الوغدين أثر من فتنة، وطفرة الى استنسار، يا ايتاخ ؟

فتدارك « اشناس » بدهائه استفحال الخطب وقال : لا يرمي ايتاخ الى سعاية بمن لا تحوم عليهما شبهة يا أمير المؤمنين. الا انه يجري في الحدس الى التحذير من سوء المنقلب . فالفرس غير ثقات !

فهتف المعتصم : وهو ما لا تندّ عني فيه دراية أيها الصفبّان . فان ما بلغ الثعالب من مكر، وعاقبناهم عليه بدقّ أعناقهم، ليدلني على ما تطفح به

نفوسهم من غلّ ودخل. فيرمد عيونهم ان يذهب للعرب في الأرض جذوع ضخام، وان ينشر لواؤهم في دنيا البقاء. غير اني عليهم عيون. وسأدفع الأفشين وعجيفاً الى مناصرتكما على بابك الزنديق. واذا توانيا في الهجمة فاني لصالبهما في صدر بغداد عبرة لكل مخادع عيّاث!

وطغى الحنق على الخليفة الربعة، الممتلىء الألواح، الصلب الهامة، الطاحن بيده الحجر، الملتهب الغضبة كأن في حوانيه ناراً لا يخبو لها ضرم. فقال اشناس: لا أرى في دخلة الرجلين كيداً تخشى صولته يا أمير المؤمنين. وجلّ ما يلتمسان ان ينعما بعفوك وبرّك. غير اننا لن نتعامى عن مواربتهما اذا ما جنحا الى الروغان. ولنا من جلالة شأنك ما نقدّ به جوانحهما، ونهبهما أشلاء لحشرات الغبراء!

فقال يعتزّ بسامق قدرته: لست المعتصم اذا أبقيت لفارسي، في وسعة العباسيين، مدى يعينه على الزهو المختال. لكن الأتراك ساعدي، وأنا قاهر كل ذي بأس، ومدوّخ كل مطماع!

ونفخ نفخة الغيظ المندلع في نفاد الصبر وتسخّط. ليس لمن يقبض العرب على نواصيهم، منذ مئتي سنة، ان يزحزحوا النير، ويقرضوا اللجام. وغمغم وكأنه يخاطب نفسه: سامح الله أخي المأمون، وقد مالأ هؤلاء المارقين بما خيل به اليهم انهم أضحوا قوة لا تقهر، ورمحاً لا يلوى له سنان!

٤

اذا قُيِّض للعباس ان يجتاز، ببعض الأمان، غضبة أمه الناقمة على السؤدد المخضود ، والعز الصريع ، فما شخص له ان النجاة من موجدة « نوران » عليه موفورة، وقد تعرض عنه الغادة اللعوب، وتزدريه. فان تكن ارتضته حبيباً ونجياً ، فان لافتتانها بسمو قدره بعض اليد في هيامها به . أما وقد تضاءل عن شأوه، وتداعى غده ، فلن يتألق فيه ما يغريها بجلاله، فتعزف عنه

وهو ما يخشى العباس بن المأمون . وما كان يعدل بالخلافة «نوران» . فاذا بقيت له ابنة عجيف بن عنبسة، فكأنه يقبض على المجد من جميع اطرافه. فلينعم عمه المعتصم بالخلافة ، وليهب له نوران ، ولن يستزيده . على ان « نوران » ما كانت ترتضي العباس عاطلاً من الخلافة، وهو ما يحرّق فيه ابن المأمون الارم

ولكن اين «نوران» المشوقة القدّ ، الرشيقة الخطو ، الآمرة النظرة ، الباهرة الطلعة ؟... ان العباس ليجيل باصرتيه في من يضمهم الصرح ولا يلمح لها خيالاً . فهل ناجزته العداء دون ان تصغي فيه الى عذر ؟

وشاء ان يراها مع كل ما سوف يلقى من توبيخها القاسي . فحنّ الى ملء عينيه بصباحتها مع كونه يتقيها . وتراءت له في كل خيال يموج ، وفي كل وقع خطوة . غير انها ما كانت تبدو بقدها الأهيف ، وفمها الدقيق ، وزهوها الطاغي. وأوجعه ان تغيب عنه في الشدة. وأحرق مهجته السلوان. فهل أعرضت عنه وقد بدا لها منه انه ذلك البليد ، الغرّ ؟

وتحرّكت مراراً شفتاه بالسؤال عنها ، الا انـه كان يتماسك . فليس

المجال بمساعد على الاستقصاء وثمة ما يشغل من حوله عن نوران، وقد افلتت من بيت المأمون الخلافة ، الوهاجة السنى ، بعد اشراقها فيه واحداً وعشرين حولاً . واشتد بالعباس الوجوم . فهل تناءت عنه اسباب العلى والرفاه على متعدد ضروبها ؟

وخندق في وجه القطوب . ما للاماني تجفوه بلا رعشة من رفق ؟.. وكاد ينادي اخته ام الفضل مستوضحاً عن نوران ، الا ان الخيال المنتظر اسفر، وكأن الدكنة انجلت وهو يسطع . هذا هو القمر. واختلج العباس. ان لبعض الارواح على من حولها قوة وسلطاناً. ورمته نوران، وقد أطلّت، بعينين خادشتين صعقته بهما لفرط ما حفلتا به من امتهان وزراية . وسارت تواً الى امه واخواته تكرر التعزية . وما اهتزّ العباس وحده ، وقد لاحت نوران ، بل تأثر بمرآها جميع من ضمهم المجلس . هذا كوكب بغداد يطلع عليهم بنوره وتيهه

واستقرت بجانب ام العباس تفيض بالقول المؤاسي ببلاغة وحلو رنّة . فكأن في حنجرتها اوتاراً حاكية . وشخص اليها الجميع بعيونهم وآذانهم وقد احسوا بوقع السحر . واشتهى العباس ان ترنو اليه حتى في قسوة ، ولكنها تعامت عنه كأنه، لفرط ضؤولته لديها، رسم ممحوّ . فامعنت في قهره. وشعر الجميع بنقمتها عليه ، فما سعوا للتمهيد الى الوئام، كأنهم يوافقونها على مناكرة الفتى الركيك ، المغبون

ونهضت بعد اداء ما عليها من فرض مقاسمة الاشجان تبتغي الانصراف ، الا ان ام الفضل ، اخت العباس ، امسكت بها تقول : إبقي يا نوران ، ستجلسين الى مائدتنا فنتغدى معاً يا اختي !

فرامت ان تتمادى في خذل الغبي، المستهين بالرباح المواتئة . وابدت عذرها في استعجال الرحيل . ولكن ام الفضل ما انثنت عن اقناعها بضرورة البقاء. فاطاعت على كره منها لئلا يقال فيها انها تتدلل . الا انها ظلت لا تلتفت الى العباس الهزيل الرأي ، الاغلف القلب . وخاطبتها ام الفضل بقولها : جزعنا لفقد المأمون يا نوران ليس دون جزعنا لانطواء الامامة عنا. فالسعد غير فضفاض الذيول يا ابنة أمي ، وما ان يحابي حتى يعاند . انتزعه ابي من اخيه الامين ليعهد فيه الى اخيه المعتصم ، وابقانا تحت رحمة القدر العاتي ، كأنه جذبنا الى الوجود كي يلقينا في قبضة الزمن اللئيم . فاي ضيم كان يدهمه لو وهب السدة لابنه العباس ؟

فابدت «نوران» بمفرط الحقد : لم يكن واثقاً بضلاعة هذا الابن يا ام الفضل ، والا فما كان يقعد به عن توطيد المعالي في ذراريه ؟.. لو وضح له في العباس انه ذلك الضليع لما اشاح عنه !

فغاظ ام الفضل ان تسمع الطعن على اخيها ممن يتشهى العباس ان تسخو عليه بنظرة. وهتفت مهتاجة : أما ينجو حتى من قوارص لسانك يانوران؟... اذن من له يرأف به ؟

فاعلنت نوران لا تحتشم : ليس له احد وهو عدو نفسه. فالامامة اقبلت اليه على دفعتين فتنكب عنها. لم يبق جندي في الجيش، من عرب، وفرس، الا بايعه بها ، فزيّن له لبه السقيم ان يخلعها عنه لينفح بها عمه . ويا ويله من عمه وسيعوضه منها البلى . فما ارى المعتصم يطبق في جنبه دمّلا يهدده بشر مستطير !

فبلعت ام الفضل ريقها. «نوران» لا تفضي باللغو . وانى يكتب المعتصم

للعباس المناءة وهو يجد فيه خطراً كاسحاً ؟... فلن يتقاعد عن اجتثاثه ليخلو الجو لنسل ابي اسحق . ورهبت ام الفضل بطش عمها باخيها . ففي المعتصم من العبث بالعواقب ما يجيز له الاقدام على كل جسيم . قالت وقد استحكم منها الخوف على العباس : وما العمل يا نوران؟... اما دلك ابوك على جادة الهدى ؟

قالت وهي تحتدم نقمة : الهدى في السكون يا ام الفضل . فلا ارى السوانح مسعفة في استرداد المفقود . سامح الله اباك مرة ، وسامح العباس مرتين. قضيا علينا جميعاً بالاستسلام للمقدور. ولو ثبت العباس في استنكار المبايعة للقي حظه من النجح. بيد انه كان كرة في يدي عمه ، فتقاذفه المعتصم انى شاء . وكنت احسبه من ارباب الحزم والشدة . فلا يتيه في الدواهي الهوج عن مصلحته ومكانته. ولقد بلي بهذه المحنة ابوه. الا انه كسر عودها وخرج منها يطحن اخاه الامين . والايام تعيد نفسها . فما جاز في مناوأة الامين لا يرث في مقاومة المعتصم . والفوز ما كان ليهوي عنا والجيش لنا مطواع. والجيش هو الدولة يا ام الفضل. اما وقد تقهقر اخوك عن الطلبة ، فماذا وقع ؟... نفضه الجنود منهم وانحازوا الى عمه . وان يكن ثمة ذوو حفاظ فلا يجرؤون على الظهور !

فاستفهمت ام الفضل : وابوك يا نوران ، ماذا يرى ابوك ؟

– ابي لا تنفذ الى اخلاصه ريبة . ولكنه ليس الجيش بكامله ، ولا هو الدولة بفسيح جنباتها . ألا كم حرمنا اخوك الاستمتاع بوهج النور !

وتأوهت نوران. فنادت ام الفضل اليها أخاها العباس قائلة له بامتعاض: تعال اسمع !

وهو يرقب على جمر هذه الدعوة . وحبا الى اخته والى نوران يقول بصوت مكلوم : بمَ تتحدثان ؟

فلم تلتفت اليه نوران ماضية في احتقاره . وقالت اخته : نوران لا تؤيدك في التنزل عن حقك بالامامة . وانها لتجد في انقيادك الى عمك خطراً عليك . فلن يستبقيك المعتصم تسرح وتمرح وانت شر على سلطانه . فما ان ينقم عليه ناقم حتى يرميك بتهمة تحريضه عليه لنزع الخلافة من قبضته . وليس بعد التهمة غير الابادة . واشقيقاه !

فسأل هازئاً : أيقتلني عمي ؟

وساق كلامه الى نوران . فاجابت ابنة عجيف بتأجج الحرد : نعم ، يقتلك . وما يصونك من فتكه بك ؟ ... أفلا يأمن التبعة وهو يدعي ان اعداءه صوّبوك الى نحره ؟ ... ان ايامك لقلائل ان تكن ترقد على وسادة من خميل الوهن !

فأطلق ضحكة التهكم وقال : سوف يبدو لك من هو المعدود الايام يا نوران . فليس لي ان ابوح بسري . وما اجهل اني تسرعت في المبايعة . ولكنها مشيئة المأمون وما استطعت لها نقضاً . على اني ساستعدي عليها كيد الليالي . فلا يغترّ المعتصم بالفوز الطويل الأمد !

قالت ساخرة بما ينوي : ما ارى في المهزوم مضاء الغلبة ايها الأمير . فلو كنت ذلك المقدام لأقبلت على الأكلة تلتهمها وهي ميسورة . اما وقد عزت عليك فكل مجال الى بلوغها محال !

فأحرجته واذاع ما في نفسه فقال : ابوك ادرى الناس بطريقنا اليها يا نوران !

فخشيَت ان يكون سمع من في الردهة مقاله الفاضح . وهتفت به تدعوه الى الاعتصام بسره: اني لا يكايد وليّ امره. فان تكن تنجي جنوحه اليك، بعدما وقف سيفه على الخليفة المنصور، فانك لتطمع في وميض خادع. ما لقادة الجيش ان يخرجوا عما تواضع عليه الائمة ، وجرى فيه الدهماء !

فخجل من ضعفه في الحرص على السر . وجمجم متداعي الهمة : صدقت يا نوران. اني لاستمسك بحبل الامل الواهي. غير اني لن انام يا ابنة عجيف، وسأجاهد وحدي. واذا سقط في يدي فالدرك على عاتقي. لا ، ما كان ابوك ذلك المخاتل، النذل ، كي يحيد عن عهد قطع على نفسه للخليفة المستوي على دكة الامامة !

وزفر . ورجا من نوران النصرة. فما بها تتراجع عنه وله من رأيها هدى، ومن تأييدها حافز الى الاقدام ؟... واستطاب ان يجالسها بمعزل عن الجميع . وسنحت له الرجاوة . فنهضت اخته الى احدى جواريها في شأن عرض لها ، واتسع له ان يحادث نوران في شبه خلوة. قال يسترحم ويلتاع: عفوك عن هفواتي يا نوران. فوجئت بالبحران فارتبكت، واخذت اعثر في كل خطوة. وكلما حاولت الوثوب دهمتني الكبوة، حتى امسيت اجهل المهيع الآمن ، كأن الحكمة افلتت مني واباحتني للزلل يساورني دراكاً . بايعني الجيش فرذلته. ورقب مني القوم ان اتمرد اليوم في مجلس المبايعة فاخزيتهم. واتفقت واباك على امر فكدت افشوه الساعة . اني لعلى ضعضعة المحموم ، فغفرانكِ !

فجبهته بالقول المستهين، مدمدمة عليه : ما اخطأ ابوك في حرمانك السدة ولست خليقاً بها . فمن زعزعته الدواهي لا يصلح للمعالي يقتعد سنامها !

فنبر بغيظ : ألا تمتنع من المخاشنة ؟... دعي لي التكفير عما اجترحت. فاني لأقرّ بالشطط. وسيتجلى لك اني لا اضيق ذرعاً بالحيلة على تقويم المتآد. فما فرط مني سأتديره بهمة الصادق العزمة، الوافر الحنكة . فالشدائد خير مؤدب يا نوران !

فاستخبرته خبر هذا التدبير . الى اي طفرة يشحذ جهده ؟... قال يستوضح : أما اطلعك عجيف على ما تواضعنا عليه ؟... سنكون في هذه الدولة شطرين متناحرين. فالمعتصم يستند الى الاتراك ليتقي الاستطالة ، وانا اعتمد الفرس في تقويض الركن العائب . فالعرب اضحوا بين قوتين تتجاذبانهم ، وارى اننا الغالبون في الكفاح !

– أتشعلها فتنة في الوسعة العربية يذهب الاتراك والفرس حطباً لها ؟

– بل هي مشتعلة يا نوران . ألم تسمعي بممانعة بابك الخرّمي في جبال البذّ ؟... ان «بابك» لفارسيّ قح. وهو يدعو الى دين جديد . وله حوله مئات الالوف من الاعوان . وحاربه ابي ثماني عشرة سنة فلم يوفق لهدم معاقله . ولا محيد للمعتصم عن متابعة المقاومة. وما ان ينهد اليها حتى يسقط في اشراكها . فنتخلى عنه ويهزمه بابك . ولن يسود المجوسي وستتخطفه اسيافنا . فننجو من الشرين ويستوسق لنا الأمر !

فاستنبأت ببعض ارتياح : وهل وافقك ابي على هذه المكايدة ؟

– ما هناك مكايدة يا نوران ، بل سعي لتوطيد الحق المسلوب . عمي اغتصب مقعد الخلافة وعليّ ان استعيده منه. وليس لي، وقد بايعته، ان اعود عما قطعت على نفسي من ذمة، مما يميل بي الى ركوب الحيلة لادراك البغية. فادفع عمي الى الزلق ، واربع مكانه بالاريكة الباذخة. ولن اجد معانداً غير

فئة قليلة، معظمها من الاتراك، لا حول لها ولا طول. فما ان ابـدو حتى يخفت في صدرها كل نعيق!

فاستصوبت الرأي. وكانت قد سمعت من ابيها غمغمة استجلتها الساعة، وقد حاذر عجيف التفصيل. سيتفق العرب والفرس على التغرير بالمعتصم بتحريضه على «بابك» الثائر. ولا يكاد يفعل حتى تتراخى جموعهم في القحمة. فيظفر المجوسي ويدحر ابا اسحق ويبطش به. غير انه، لا يكاد يحذفه، حتى يلقى ممن قهرهم صدمة تخضخضه، وتدرجه في الكفن. فيقبض العباس على الناصية، ويعود الحق الى صاحبه الأثيل. وطاب لها ان تبثّ الدعوة الى ابادة الخرّميّ. فستزين للمعتصم ضرورة التنكيل بالاخرق، الزنيم المعتقد. وليس لأبي اسحق ان يرضى عن بقاء المفسد في الوكر العربي المنيع. وإلاّ اباح الدين السمح للكفرة يمعنون فيه تهشيماً، وطوّح بالمؤمنين. قالت بوفر من حماسة: نعمَ التدبير. يدهشني فيك ان تملك هذا الفكر السليم بعد طيشك عن الهدف. فالخلافة ملك يديك، وعليك ان لا تبيحها للمفتئتين بها. وما لا سبيل فيه الى القوة، لا علينا ونحن نستظهر عليه بالمصانعة. لا، لن يفلح المعتصم حيث تقهقر ابوك. وسيزيد في اخفاقه سعيكم للاسترخاء في العون. دعني افسح الى الفخ المنصوب، والمعتصم في من جرّت عليهم الاحقاب ذيل العفاء!

قال: لا حرج عليك في المحاولة. غير ان عمي يعدّ للامر عدته كما يبدو لي. فلن يطيق ان يقال فيه انه هان في منازلة الزنديق. وسمعت مراراً ابي يوغر عليه صدره، ويحضه على ضرب عنق المارق. وانى يبدو ابو اسحق، في قومه، ذلك الخليق بالامامة، ان لم يبلغ من المتجاسرين على سلطانه ما لم يبلغ المأمون؟... فصبراً اذاً. ليندفع المعتصم من تلقاء نفسه في اقتحام

معاقل الخرّمي،ولبس لنا ان نحفزه الى التشمير للمناوأة، حتى اذا ما انخذل تحامى القول اننا خدعناه كي نهدمه، وننتزع منه المقاليد !

فما راقها الاصغاء اليه . قالت : انا صديقة عليّة ابنته . وسازحف اليها في تهنئة ابيها بركوب مقعد الخلافة.واحدثها عن مخازي بابك الخرّمي ، هذا المستبيح المحارم،والقاضي على المصونات. واذا ما دفعتني الى ابيها، كي ألهب حماسته،فلن امسك عن المثول بين يديه،وعن زخرفة الهجمة على الضالّ . واني لاعرف في عمك ميلاً الى الظهور.فلن يتقاعس عن الانزلاق الى حتفه. دعني اختلس ايامه بزهرة من الورد يتطاير منها الاريج المسموم !

فابى عليها الوقوف في حضرة عمه،معلناً بقسوة: ولكن عمي يا نوران...

فتجاهلت ما في نفسه من قلق،واستفهمت بشدة : عمك ماذا ؟... هل يغلظ لي في القول ؟... هل يطردني من حضرته ؟

واكرهته على الابانة.فقال: هو لا يزال فتياً . واخشى اذا ما ابصرك، وانت زينة بغداد ، ان تحدثه نفسه ...

فقاطعته باستيضاح المستهجن : تحدثه نفسه بماذا ؟

واطالت اليه النظر،تكرهه على البيان،بازدراء المستخف بما سوف يسقط اليه . فتلعثم وارتبك . كيف يجلو لها ما في خاطره من وهلة ؟... قال وهو يجاهد في اذاعة ما يقلقه : انت تعرفين من امر ابي اسحق،يا نوران،انه ذلك الجاهل الاميّ . فما صرف همه الى العلم كما انقاد للفروسية واللهو . فعشق الجياد والنبال والبواتر والنساء . وله من مناعة اوصاله ما يبيح له الاستمتاع بهذه المباهج . وقد يلقى فيك احدى فواتنه،وانت تمثلين بين يديه، فيعلقك،وهو الجانح الى نهل الصبابات !

فاغضب فيها شموخ الانفة، ونبرت بغيظ : ليس لهذا المقال ان يساق اليّ وانا الوطيدة الحفاظ . عمك ابصرني منذ زمن بعيد وما اصاب مني نزوعاً . والخلافة لا تجرّني الى غواليها ،وما في خاطري حنين اليها الا وانت تتبوأ مقامها . فان تكن لا تثق بي ،فما يدعوك الى الارتباط بعهدي ،ولك من ذمتك رحيب المخرج ؟

فاخجلته .وابان بصوت متلجلج يمور فيه الاسترحام : لست اسيء الظن بك ، ولكن بعمي . فهو لا يعفّ عن جليل . وانت من الجلال في اعلى مناف . واذا تماسك عنك ،وهو لا يربع بدست الخلافة ،فلن تفلتي من قبضته وقد امسى ذلك السيد السامق العزة !

فهتفت وكل ما فيها يثور : انت لا تنفك تجهل نوران . ويحزّ في قلبي ان تكون تهواني، وتنزل مني ارفع مرتبة، وان تظل نفسي خافية عليك . ألا فاعلم ان عمك قد يظفر بنوران ، ولكن وهي جثمان بارد . فلن تلين له قناتي،الا وقد استنزف دمي . حينذاك يجد نوران طوع يديه . ألا وحق من جبلنا من عدم،لن يمسني سواكِ ، والا فلست نوران بنت عجيف ، بل سليلة ادنى الخلق . اني لمجهولة النسب اذا انكرت حباً شبيت عليه !

وتجلى الاعتزاز في قولتها . لن تدرج في صعيدين ، فتزيغ عن مهيع امتدت فيه قدماها . واضطر العباس الى الصمت . ليس له ان يعارض حيث لا تثبت له حجة . قالت نوران : ساحبو الى عليّة ابنة عمك،واحتال على مرأى المعتصم . وما ان يتفق لي ان اصادفه،حتى اوغر صدره على بابك، واغنم له الظفر في ميدان نكص عنه ابوك . ولن انخلع عنه،الا وقد هززته الى المخاطر يخوض لججها ، ويغور في اشداقها .فلا يبقى للخلافة سواك يستوي على اريكتها !

فما استطاع الا ان يشكر، ولكن على حيرة. بات يجهل اين يلقي رأسه، وفي اي مسلك تنطلق خطواته . أيقاوم ام يوافق ، أيسالم ام يثور ؟... ليس يدري . واباح لنوران يدها فيه . فان ضعضعته لتقدر عليه الاستنامة الى المتاح المكتوب، وقد افلت منه زمامه، وبات غمامة تائهة في مهب الريح

٥

قبض الاتراك في بغداد على الاعنة ، واستهانوا باقدار العرب والفرس .
فطمعوا في انشاء دولة تركية الوجه، واليد ،وقد والاهم الزمن. فما دام العرب لا ينصرون في سوادهم الاعظم محمداً المعتصم، الخليفة المستقر بمقعد السلطان، وما دام الفرس يجدون في ذهاب الامامة عن العباس بن المأمون شؤماً عليهم، وسداً دون التمكين لهم في المطمئن العربي، فلماذا لا ينتهز الاتراك السانحة، وترسخ قدمهم في صعيد الولاية ، فترتفع لهم راية، ويعلو لهم صوت ؟

والتأم شملهم . وجمعوا امرهم على الوثوب الى المعالي . كانوا خدماً في زمن الرشيد، وحشماً في عهد المأمون. واذا امسوا من ذوي الشأن، في نهاية عهد ابي العباس ، فما عليهم وقد ملكوا الحظوة الباذخة في مستهل خلافة المعتصم، وليس لمن يضحك له الدهر ان يقف منه كابي الهمة ، متردد الخطو؟

وشعرت بغداد بالزهو التركي ينشر جلبابه عليها . ولاح لها القادة الاتراك يجوبونها على صلف وغطرسة . فارتاعت . وحنقت. وتحلّق بنوها بعضهم على بعض يتهامسون في الزوايا ما يلقون من امتهان الاتراك ، وقد شمخوا بعد ذل . فما كان «اشناس » ، و« ايتاخ »، و« الخاقان » غير خدم يغوصون في الزوايا، فاضحوا سادة أعزّة تجري في ركابهم الجلالة، ويرهب صولتهم الاشداء

ودبت الجلافة الى جنودهم، فاستباحوا ارواح العرب والفرس، واخذوا يطلقون في بغداد جيادهم على مداها. فتسحق بحوافرها اجساد المارة، وتطحن جماجم الاشياخ والنساء والاطفال . وبغداد، يومذاك، في ذروة العمران، وقد احتشدت فيها الامم على متعدد ألوانها ، التماساً للامن والارتزاق. فضجّ الناس،

وشكوا الى المعتصم الخطب الفادح . فوعد ابو اسحق بان يتدارك الحيف ، ويتقي الغائلة

على انه لم يكن ممتعضاً مما تعاني بغداد من داهية،وقد سعى لقهرها وهي الناظرة اليه بفتور ، الحابسة عنه مودتها . فنزع الى الانتقام منها بخضد شوكتها ، وتقليم اظفارها . بل استطاب ان يخلع عنها عظمتها ، بهجرانها ، والثواء بعاصمة يشيدها لنفسه، عقاباً للزوراء على جفوتها. ولا بأس عليه ان يقتدي بابي جعفر المنصور بانيها . ابو جعفر ، جدّ ابيه ،وطد اركان بغداد، متنائياً عن الكوفة. وهو، ابو اسحق، سينشىء مدينة اخرى، متجانفاً عن بغداد،وليس له ان يحفظ عهد من لا تقيم له على حفاظ

لتطغَ الموجة التركيـة على هؤلاء المتنكرين له ، فيعلموا انه في حرز من مكايدهم واحقادهم، ولن يعدم قوماً ينجدونه في الملمات. ويغالبون من يستطيل عليه. ويصونون مجده من الشانئين،الساعين لهدمه . ولقد ابدى رضاه عن صلف الاتراك. ونادى اليه « اشناس »،احد قادتهم، يخاطبه بقوله: احسنت فيهم تنكيلا وترويعاً يا اشناس ، وليس لهم ان يحصدوا غير ما زرعوا . ولكن لا بأس ان تخفف عنهم من اذى جنودك.فالعبرة تكفي . واذا ما عادوا الى التظاهر باضطغانهم علينا،فلا ترحم فيهم عوداً صلباً، ولا ليناً، وما كان للموتورين ان يظفروا بعلالة من امان!

فقال « اشناس » وهو يبتسم : نفسي فدى امير المؤمنين ، ما رأيت غير التهشيم دواء ناجعاً فيهم . عليهم ان يوقنوا ان الخليفة، المعتصم بالله،ليس فرداً ،ونحن جنده،واعوانه . وقد لمست في الافشين حذراً ، وفي عجيف ابن عنبسة وجوماً . على ان السيف المصلت فوق الرقاب كفيل بتبديد

كل عصيان !

فهتف المعتصم : انا قوي بكم يا اشناس . وما كان للفرس ان يأووا الينا بعد فتك المنصور بأبي مسلم الخراساني . ولكن جدي المهدي ، وقد تزوج الخيزران ،وهي منهم ، اباح ليحيى البرمكي ،صاحب الرأي لديها،ان يتغلغل في قصورنا وامورنا . فانتشر فينا الخبثاء يماكرون ويصانعون . غير اني لمجتثّ اصولهم،وسوف يكون لهم يوم يكتوون فيه بجمرة الهلكة . فلا ينجو منهم سوى طويل العمر . اما بغداد،فساجنح عنها تأديباً لها . وسنرى هل يشرق فيها الرغد وانا محتجب عن افقها ؟... لقد بلغ الفياش منها مبلغ السفه، كأنها هي صانعة الخلفاء ، وكأن من قام في المسلمين خليفة عليه ان يخطب ودها . ومن لا ينعم بهذه المنحة، بل المحنة ، فلا حظ له بالبقاء. كذب الدجالون. سيبقى المعتصم ،وتفنى بغداد . ولولا حنيني الى صون الارواح، لقلت لكم تمادوا في اذلالها،وانا لكم عليها ظهير. ولكني اضنّ بالابرياء ان يذهبوا بجريرة الاشرار !

وارتجف سخطاً . فقال اشناس : على رسلك يا امير المؤمنين . ليس لمن يجحدوا فضلك ان يقرّوا عيناً بالغلبة ،والسيف بالمرصاد لبتر الرقاب . ما من تركي في دولة العرب الا ويفديك بالغالي . ارواحنا في قبضتك، فاطرح بنا انى شئت،وفتّت بنا الصخر العنود ، وطاول بنا السماك !

فابان وهو يتأجج ألماً لامتناع قومه من موالاته ، كأنه عنهم غريب : موعدنا جبال البذّ يا اشناس. هناك سيعلم المرجفون ان المعتصم اصلب من الصوّانة،وامنع من الطود . فاذا ما ضربتم «بابك» الخرّمي،الضربة القاطعة، تقاعس كل مشاغب عن تعكير الافق . فاعدّوا عدتكم، وعبّدوا الطريق

لاصطياد الذئب. وان نحن صرعناه، فلقد صرعنا الشغب في هذا البلد المحتاج الى العظة كي يدين للقوة، ويسكن الينا. فلا تنحني الهام لسوى من تقطر نصلته دماً. وليس من يقيم وزناً للين والسماح!

فقال القائد التركي يتمادى في ابداء المشايعة: في جبال البذّ ستنكسف وجوه، وتضيء وجوه، يا امير المؤمنين. وما نحن غير خاتم في بنصرك. لك ان توجهنا انى يستطيب بالك ان نكون!

قال الخليفة وصدره يتسع للعظائم، كأنه يميل الى جمع الدنيا بين جنبيه: اماناتكم لا تخفى عليّ يا اشناس، فاذهب الى اخوانك وجهزهم لليوم العصيب!

فابتعد «اشناس» وهو يكبر اقدام ابي اسحق، وما عرفه غير همام ندب. فاذا ما هفا الى النزال فلن تصدّه عن ملتمسه عقبة. ولكن هل يوفق للقضاء على بابك الخرّميّ، وقد كلّت عنه عظمة المأمون ؟... ان «بابك» لدولة في قلب الدولة، وله الجند، والدواوين، والاسلحة، والمؤن. فالتفّ حوله كل فارسي كاره للعرب، غير مؤمن بالاله الواحد، نابذ لتعاليم النبي العربي. وسطا هؤلاء على القوافل والمدن ينبهونها، ويفتكون برجالها، لا يرعون لضحاياهم حرمة، ولا يبالون ازهاق الارواح. فهل للمعتصم ان يطعن الشر في كبده، فينقذ منه وسعة تطمع في العيش الهنيء؟

ومضى «اشناس» الى اخوانه، القادة الاتراك، يطلعهم على ما لا يزال يعلل به ابو اسحق النفس، وهو يقول وقد استشرت فيه هواجسه: اخشى، اذا ما اشتبكنا وبابك، ان ينتهز العباس بن المأمون وصحبه السانحة، ويثيروا الفتنة، فنمسي بين نارين. بابك امامنا، والعباس وراءنا. واني لنا ان نردّ هذين

الويلين ، واذا فزنا باحدهما اودى بنا الآخر ؟

ولقي شكه في الفوز المبين تأييداً لدى اخوانه .قالوا يستصوبون خشيته : صدق اشناس . لسنا الجيش كله كي نقاوم العادية . فعلى الفرس ان يساندونا ، في مناوأة ابن ابيهم ، كي ندحرج « بابك » عن معاقله . فهل يمشي الافشين وعُجيف الى مصارعة الخرّمي ؟ ... وان هما زحفا اليه فهل يخلصان في المصادمة ؟... انا لنجدهما ينكفئان ويبقياننا في الضرم يشوينا . وما نحن بمن تعوزهم الجرأة ، ولا الحنكة ، ولكننا لسنا على وفرة . فاذا ضمن لنا ابو اسحق المدد الامين حملنا اليه بابك وفي عنقه رسن !

وكلفوا « اشناس » ان يعود الى المعتصم يعرض عليه الطلبة . فالاتراك لن يتوانوا في الاجابـة ، الا انهم باضطرار الى الاتكال على غوث يقيهم الانهيار ، اذا ما اعوزتهم المساندة . فهل لأبي اسحق ان يسهّل لهم الى الوجاوة ؟... قال اشناس : وهو ما اوافقكم عليه . فلا بد من العون ونحن نغير على الملحد . اما ان نسير اليه وحدنا فمما لا تتعادل فيه الكفتان ، والعدد لا يسعفنا في امتلاك الاعنة !

ورجع « اشناس » الى قصر الخليفة لايضاح رغبة اخوانه . على انه لم يقوَ على المثول فوراً بين يدي المعتصم . فعليه ان ينتظر ، او ان يعود في المساء ، والمعتصم في مجلس لا قبل له بفضّه . فلقد دخلت عليه عليّة ، ابنته ، تقود بيمينها اشهى مليحة في بسطة العرب ، نوران بنت عجيف . وما ابصرها ابو اسحق في سعة عينيها الدعجاوين ، وطول اهدابها ، وصباحتها الريّا ، وقامتها السمحة ، حتى احس بدبيب النشوة في عروقه ، وبسلطان السحر يفجأه ، فيخرج به عن وقاره . وابتسم ابتسامة الطرب ، وهتف على رغمه :

أأنت يا نوران ؟... ولكني رجوت ان ابصرك قبل اليوم في حضرتي . تأخرت في تهنئة ابي اسحق بركوب منصب الامامة. بيد ان مجيئك محا عتبي عليك . فكيف انت في رحبة الاحياء؟... اعتقد انك راضية عما آل اليه الأمر في دولة العباسيين !

فأوتيت القدرة على الابتسام وقالت : ليس أحبّ الى نفسي من ان اراك سيد هذه الارجاء الممتدة الى حيث لا ينتهي لها مدى . وان اكن تريثت في التهنئة،فما خمد البشر في جوانحي،اعجاباً برب هذه الذروة. نحن في اكناف امير المؤمنين على خفض وامن .فيسرّنا ان يرقى الى الكرائم، وله في ضمائرنا ارحب منزل ، وفي شفاهنا اكرم دعاء !

فضحك اغتباطاً بما تلقي اليه من نضير البيان، وقال: ان سامعك ليسكر بخمرة حديثك يا نوران ، فكأن في كلماتك عصير كرمة . والناظر اليك تفتنه محاسنك. لله انت وقد حفلت بخمرتين صافيتين ، ماتعتين !

فما تماسكت عن مغرورق البسمة،وسبوح الزهو ، وقالت: حسن ظن امير المؤمنين بي يهيب به الى الثناء عليّ بما لا اراني منه على لباقة . على ان ما يعلن ابو اسحق لا سبيل فيه الى معارضة. ومن نعمة الله عليّ ان يرضى عني مولاي الجليل !

فقال المعتصم : ليس لي ان اغالي في ما انت عليه من قسامة صبّاحة. فكيف تبصرينها يا عليّة ؟

والتفت الى ابنته يسألها عن رأيها في نوران. فقالت عليّة تكبر الحسن المتألق في ابنة عجيف : هي زينة بغداد يا امير المؤمنين !

فصاح وقد استقلّ الوصف : بـل قولي هي زينة الدنيا يا ابنتي . ما

ابصرت احسن ولا ابدع . سبحان الخالق المعطاء !

فتورّدت وجنتا نوران حياء، مما زاد في مواهتها وعذوبتها . فقال المعتصم : لأبيك ان يفاخر بهذه الروعة الناطقة في طليعتك . ألا اخبريني ، أيكون عجيف راضياً عن هذه المنحة الزكيّة الأريج ؟

فاتسعت فيها حمرة الخجل. ان المعتصم ليدغدغ خيلاءها . قالت وعيناها تتواريان في الارض خفراً : كلنا في طاعة امير المؤمنين وقد اثقل عواتقنا بعوارفه . ابي لا يفاخر بسوى كونه احد سيوف المعتصم بالله !

فاتقد فيه زاخر البشر . كيفما جاءها لقي فيها الكياسة المثلى . ما ندّ عن الواقع وهو يقول فيها انها ذات خمرتين. قال : وما رأي عجيف في المبايعة ؟... ألا يزال ناقماً على انتهائها اليّ ؟

فاجابت تخفي الضغينة المستحكمة من خصومه : ليس ابي بمن يطلب الخلافة لنفسه. واذا تخلى عنها ، من يتهالك عليها، فهل لعجيف ان يحرص على على ما نزل عنه الاصيل ؟... صارت الخلافة الى موئلها يا امير المؤمنين ، وكل سعي للصدوف بها عن مستقرها مشقة ضائعة،يشغل بها باطلاً روحه كل صغير الحلم !

— أيكون عُجَيْف ممن يوالوننا يا نوران ؟

فابدت برزانة المؤمن بما يذيع : ما كان عجيف ليرتضي البقاء في صفوف امير المؤمنين لو التوى فيه الخضوع لابي اسحق. فان لابن عنبسة من كرامته عليه حسيباً. وهيهات ان تبيح له هذه الكرامة الصلود الظهور بما ليس فيه !

فارتاح الى ما تعالنه به وقال : يشوقني ان نظل على صلات أيّدة المواثيق يا نوران . وان يكن ابوك ، بلغ في عهد اخي المأمون ، ما يرسخ فيه من

مرتبة ، فهو بالغ عندي ما يعدو حظوته في دولة الراحل الاثير . ليوضح لي انه من خلصاني وله رضاي وعوني . فما جاء المعتصم منتقماً، بل منصفاً . وما كان هادماً، بل بانياً. انه ليهدم العائب، اجل، غير انه يستبقي السليم!

فابانت وهي تتكاره على اخفاء نياتها : عجيف بن عنبسة من الحراص على ولائه لامير المؤمنين . ولابي اسحق ان يعجم عوده . فاذا ما خطر له ان يضرب به الشذاذ فليس لابي ان يتنكب عن المبادرة الى ابادة المرجفين!

– بورك فيك وفيه يا نوران. ساطلقه وشيكاً الى اقتناص المجد،فيربع ببحبوحة المعالي غازياً ، عزيزاً . فمن لا يغامر فلا ينعم بالسمو. مجال ابن عنبسة في قهر الخوارج، وساطلقه في مجاله لكسف الشر ، والتوطيد للدعة. فلن يضيره ان يكون في دولتي ذلك البازيّ المقحام، الطويل المخلب، الضارب بمنسره كل أفاك جموح !

– ومن هو للموقح الناهد الى تأديبه امير المؤمنين ؟

قال ينشر على الغادة اللعوب مطامعه : أيخفى عليك الزنيم يا نوران؟... ولكنه «بابك » المسيطر على جبال "البذّ" ، مقلق الآمنين ، والمنادي بالالحاد . فلا يكرم سيداً ، ولا يتصوّن عن حرام . ان يكن نجا من صولة المأمون فلن يأمن فتكتي . سارميه بالافشين ، وبعجيف، وباشناس، وببغا، وبايتاخ . وليس للانكد ان ينسلّ منا،وسنضرب عليه طوقاً لا نفاذ منه حتى لقطرة الماء . ألا تجدين اباك من الاكفياء لضربة الاجهاز ؟

فسرّها ان يتقد بحماسة تعدو حماستها في الوثوب على معاقل الخرّميّ . وعنفت تؤيد فيه السعي : ابي من حزمة الانصار المؤمنين بضرورة توطيد الحول العباسي. فاذا ما دفعته ، الى الراغب في قلقلة الشأو المترامي الامد، فانه

لينحره كما ينحر الجزار النعجة . فما نجهل ما يبتدع بابك، وما يماحك فيه . ولسنا من دعاة المخرقة والنفاق. ولامير المؤمنين ان يقتصّ بملء سلطانه من المارق العربيد . له ان يقطع لسانه كي يخرس . وان يفقأ عينيه كي يصاب بالعمى . وان يستلّ دماغه ويدوسه بقدمه كي يقضي على الشر في ينبوعه . فلا تُنشر له ملاءة . ولا يلمّ به الجهلاء ، فيدركهم اليه خسيس الحنين . لا ، ليس للمعتصم ان يهون حيث قصّر اخوه المصور !

فراقته نقمتها على بابك الخرّميّ وصاح بطرب: عوفيت يا توران. لكأنك تنطقين بفمي . والله ، ما زاد شوقي الى محق الكافر على ابتهاجي بمشاطرتك اياي ميلي الى طيّه في الرمس. سانتقم منه انتقاماً لا هوادة فيه. فاجعله عبرة، لا لمن يعيشون في عهدي وحسب ، بل لكل جيل يقبل في اثري . فيقال عني اني اقدمت على بليغ العقاب في ابادة الزنادقة . اجل ، يا ابنة عجيف ، سيتحدث التاريخ عن تنكيلي بالاثيم . نحن ارباب محارم ومكارم . فيضيمنا ان يقوم فينا مجوسي كنود يبيح المتعات، وينغمس في الموبقات. فيسود الدنس، وتمسي الاخلاق بؤرة ارجاس، يزورّ عنها كل عفيف، يضنُّ بالفضيلة ان تغور، في مقاذر يعرض عنها الشيخ والشاب والفطيم !

فهتفت تزيد في اضرام همته : كتب الله لك النجح يا امير المؤمنين . اننا في ركابك لسيوف مسنونة ، وكتائب مجنّدة، لقهر الزنيم. ساطير إلى أبي أحثه على استلال باتره في قطع الصلّ ، فيقينا سمه النقيع . وما عجيف غير ومضة محرقة ، ونهبة طائعة ، في رضى أبي إسحق ، الخليفة الاثير !

قال مسحوراً بفتنتها : سأدفع إلى عجيف بن عنبسة حاجبي وصيفاً ، فيدعوه اليّ ، واطلعه على ما تتلفت اليه نفسي من امر جليل . فان عيناً ،

تنظر اليك، لتأبى أن تنتقص من التذاذها بحلاوة مرآك. فاجلسي على مقربة مني ، وحدثيني بجلاء عما ترى بغداد في الخليفة العباسي الثامن . ألا تزال منه على نفار ؟

فذكرت مقال العباس بن المأمون فيما يدعوها المعتصم الى الاستقرار بجانبه. اهاب بها العباس الى التصوّن عن مجالسة عمه، وحذّرها من سوء المغبة ، وما يزال المعتصم في وهج الشباب، وفي حنين إلى الاستمتاع بصفايا الانس. وابتسمت لاحتفاء الخليفة بها ، واطرائه زهورتها . وما كان لها ان تشيح عن دعوته اياها الى البقاء في حضرته. قالت : أخشى أن أختلس وقت أمير المؤمنين، وهو للامة باسرها، لا لنوران بنت عجيف وحسب. أما ومشيئته العليا تريدني على الوقوف بين يديه ، فما عليّ غير الامتثال لأمره الكريم !

فقال يغالي في إعلان اعجابه بها : ولكنك توطدين للامة يا نوران في سعيك لمؤازرتي في محق الاثيم، الوبيء . وليس لبغية ، تساندين فيها ، أن تكون وبالاً على قومك، بل نعمة، وفي شفتيك البلسم، وفي محياك النور !

وصفق بيديه . فبدا حاجبه وصيف متهيباً . فصاح به المعتصم : جئني بعجيف بن عنبسة . ليسرع ، وثمة ما يقضي بالعجلة . قل له امير المؤمنين يدعوك !

فقال وصيف وفي أساريره خبر : ولكن «أشناس» بالباب يا مولاي، وهو يستأذن عليك في امر جلل !

— أيكون اشناس هنا ؟ ... أما انصرف ، وقد اوضحت له مطلبي ؟

فابان وصيف : انصرف ثم عاد يا امير المؤمنين ، وفي وجهه نبأ لا يبدو منه أنه يحفز الى الطمأنينة !

فنبر بوجل : ويك يا وصيف . أقلقت مهجتي . ماذا في صدر أشناس من رهيب ؟

ونهض وأشار إلى ابنتـه ، والى نوران ، أن تنحيّا . فاختبأتا وراء ستار مسدول في احدى زوايا الايوان . وحدج وصيفاً بنظرة تتسع هولاً وهو يستوضح : ألا ابن اشناس ؟ ... لا أم لك . ليدخل !

واحس بجنبيه يتقلقلان . واكفهرت أساريره . هل مَـانع الاتراك في الانقضاض على بابك ، واكتساح ملاجئه ؟ ... اذن لم يبق له من يستند اليه في جنده . فوا خيبة الآمال ، وسيخذله من بالغ في الاستظهار بهم على الشدة . وهاله ما يكمن وراء هذا النكوص من غلبة للعباس ، ابن اخيه . وجلجل وقد بدا في حضرته « أشناس » ، قائده التركي ، ببسمته المتملقة ، وانحناءته الغائرة في الارض : ألا ماذا يا اشناس ؟ ... صدعت روعي . هل من شقاق في الصفوف ؟

فرفع القائد التركي المعمّم ، الملتحي ، عينيه الى الخليفة الناقم ، المتحرّز ، وقال بدمائته المأثورة : ليس لمن والى امير المؤمنين ان يتقاعد عن فروض الولاء . فالأتراك على طاعة سبوح ، ولن يحجموا عن الاغارة على النذل الخبيث . الا انهم يلتمسون المدد ، كي يضربوا الضربة الدامغة . فتجري في نصرتهم كتائب العرب والفرس !

فصاح وقد اطمأن : ولكني سأنصرهم بجميع جيوشي . وأريدها طعنة تقدّ الضلوع ، فلا تبقي على ذرة للويل في دولتي . إلا انكم ستكونون كبد هذه الجيوش يا أشناس . أهذا ما عدت اليّ فيه ؟ ... لا عليك . لستُ بمن يجهل شر الوغد ، وموقعه من الايذاء . فسننطلق اليه بجحافلنا ،

وانتم في طليعة من اعتمد . ألا تكلمي يا ابنة عجيف بن عنبسة ، واوضحي لاشناس ما كنا فيه الساعة . فلن يبقى ، في دولة المعتصم ، ذو حسام الا وسيغمد نصلته في صدر الخرّميّ !

فارتفع صوت نوران، من وراء الستار ، معلناً برصانة ، ودفق عذوبة : أبي عجيف يفدي بروحه امير المؤمنين . بل كلنا يفدي أبا اسحق . ولقد كنت ، الساعة ، بين يدي الخليفة العظيم ، برفقة كريمته علية ، وما تزال بقربي . وصارحت رب هذه الدولة ، المنيعة الاصول ، بان على عهده أن يزدان بالاستقرار . وفي طليعة ما يستدعي التوطيد حذف الشوكة الممعنة في الايلام ، وقد كادت تستعصي ، في جبال البذّ ، على الاقتلاع . وسيقبل أبي للموافقة على ما أصغى اليّ فيه المعتصم بالله !

واذاعت علية بنت المعتصم : هذا ما دار عليه الحديث يا أشناس . فالنيات تجري صافية ، حازمة ، في افناء مستنسر البغاث !

واشناس يعرف عليّة ، وهي من لدات ابنته أترجة . فآمن بقولتها . غير أنه ارتاب بنوران . فما قادها الى أمير المؤمنين ، وقد فشا أمر ولوعها بالعباس بن المأمون ؟ ... وما حفزها الى حضّ المعتصم على مقاتلة بابك الخرّمي ؟ ... هل من مكيدة تحاك خيوطها لتقويض سدة أبي إسحق ؟

وما كان اشناس غير ذلك الفطين ، النافذ الحجا . فابتسم لعلية ، وقد سمعها تفضي اليه بما نقت إبنة عجيف للخليفة . وقال ، وفي بيانه وخزة ما استطاع أن يطوي حدتها : على ان تكون نيات الجميع صادقة ، يا ابنة مولاي . نحن قوم نجد في امير المؤمنين ظل السماء !

فانتفضت نوران وقد شعرت بوخزة القائد التركي . غير أنها لم تطلق

لغضبتها الزمام ، وهي من الدهاء على رجاحة ، بل ابدت بلهجة ما انفكت تحرص بها على الوقار : ليس لأي كان ، من اصفياء المعتصم ، أن يعدو الآخر في طاعة امير المؤمنين والاخلاص له ، يا أشناس . وسيقبل عجيف، وتتبين رأيه في الكافر الرجيم !

فلم يشأ « اشناس » إحراج غادة شهدت لها بغداد بالنضارة، والنباقة . بل رأى من حسن الكياسة أن يؤيدها . قال: لا يطمع أشناس،يا نوران، في سوى التفاف الامة ، باجمعها ، على مضافرة أبي إسحق . وإذا ما بلغنا هذه المرحلة من التعاضد ، قضينا ، لا محالة ، على بابك الفاجر . ونحن في نظيرة من ينتضي سيفه لتدويخ اللص !

وما طال الانتظار حتى بدا عجيف يلوي هامته بين يدي المعتصم ، ويقول ، وهو من امره على وهلة ، زاد في شدتها مرأى أشناس في ايوان الخليفة : روحي فدى أمير المؤمنين ، على مَ يريدني ،وقد وجه اليّ حاجبه وصيفاً ، يستحثني على التلبية ؟

فشاء أبو اسحق أن يمازحه وقال : وماذا تراءى لك من هذه الدعوة يا عجيف ؟ ... أعرفك ذا بصيرة متوقدة . أفما دانت لك الاحجية ؟

فأبدى إبن عنبسة ، وما كان يبخل بنفسه على المنايا : ليس لي ان أقف عن بذل دمي في رضى مولاي . لم يبقَ علينا ، بعد خذل الروم ، سوى جبال البذّ ندكها ، وندوّخ فيها الخرّمي . فان يكن امير المؤمنين ناداني اليه ، لهدم هذه العقبة ، فها هو ذا سيفي يتكفل بتصديعها !

فكادت نوران تصفق إكباراً لابيها الداهية . وهتف المعتصم باعجاب، وحماسة : أتفعل يا عجيف ، وتنقذني من الفاسق ، النتن ؟

فاعلن القائد الصلب الشكيمة : انا بحول أمير المؤمنين جيشٌ لجب ، فكيف وقد سرت في كتائب الخليفة لسحق المختال ، وحولي الافشين ، وبغا ، وأشناس ، وايتاخ ؟

فصاح به المعتصم بستفيض الغبطة : ألا اقترب مني يا عجيف كي أضمك اليّ ، وفي مقالك ما يثلج صدري ، وينعش به وكدي . أدركت عفواً ما استعديك عليه من جليل المهام ، وهو دليلي على أنكم تشاطرونني أربي !

فحبا اليه ابن عنبسة على مديد انحناءة . فعانقه المعتصم ، وقبله في كتفه . فلثم القائد يد أمير المؤمنين متبركاً بها ، وهو يبسمل ، ويكبّر ، ويدعو للخليفة بالنصر ، والبقاء . ومال أبو اسحق على أشناس التركي ، يقول بماضي الفخر ، والارتياح : هل سمعت يا أشناس ؟ ... كلنا إلبٌ على الفحّاش . لنسحقنه بنعالنا . ألا انصرف الى اخوانك ، وابلغهم ما رأيت . لن تكتب للخرّميّ ، المبتدع ، حياة . وانت يا عجيف ، إنطلق الى إخوانك القادة ، وادفعهم الى التأهب للمحو الحاسم . ضقت ذرعاً بالمتشامخ القزم . فان لم تجتثوه من جذوره ، فاي منزلة لعهد الجبابرة ، الاعلام ؟

فتوارى القائدان ، وفي الجواني ريبة ، وحذر . فساءل عجيف نفسه : هل وشى بي أشناس الى الخليفة ، وحدثه عن التواني عنه ، ومرافدتي للعباس ، وامتناعي من مقاتلة الخرّميّ ، المجوسي ؟ ... أرى هؤلاء الاتراك ينهدون الى طحننا ، ولكنهم سينهزمون في المناوأة . والمعتصم سينخذل ، ونحن من اعوان الخرّميّ عليه ، حتى ترجح كفة بابك . وعندذاك ، لا بابك ، ولا المعتصم ، بل العباس بن المأمون . إني لسائر الى الافشين

احدثه بما رأيت ، وما سمعت . فليس للاتراك ان يسودوا ، وأن يقبضوا على المقاود ، فنسي لديهم سوائم ترعى ، وللفرس من ماضيهم ما يفسح لهم الى بادخ السلطان !

واشناس قال في ضميره : من رمى المعتصم بنوران ، فاقبلت تمهد له الى مصادمة بابك ؟ ... أما حبت اليه تغرّر به ، وليس بابك باللقمة السهلة الازدراد ؟ ... لكأن المعتصم يبحث عن حتفه ، وهو يصيخ الى ما تدمّث له من نصح مبطّن بالغدر . إن من ازجاها ، الى امير المؤمنين ، لينفث في روع الخليفة زعاف السم . فهو يعرف عن ابي اسحق انه معشاق ، تفتنه الانوثة الساحرة ، وفي نوران خصب من فتنة ، يؤخذ به المعتصم . ولكنها فتنة تجرّه الى منيته . نوران إناء من ذهب ، الا انه طافح بالشراب الصاعق . على اننا بالمرصاد . بابك ستدقّ عنقه ، كما تدقّ عنق الافشين ، وعجيف ، والعباس ، ونوران !

مع ان نوران لم تفاتح المعتصم حديث بابك ، وان تكن اقبلت اليه في اعلان الطلبة الغرور . فلقد كاشفها بنفسه بنزوعه الى محق الكافر ، فحقق شهوتها دون ان تعالنه بالرجاوة المضللة . ولكن « اشناس » ، القائد التركي الشمّام ، ما غاب عنه النتن الفاشي في منازع الكاشحين . فوثب الى اخوانه ، مجلجلا : تأهبوا للقحمة . سنغالب « بابك » ونغلبه ، ونبيد كل فارسي مرفوع الرأس !

وقصّ عليهم ما شاهد ووعى ، فيما يميل المعتصم في ايوانه على نوران قائلا لها برقيق البيان : لا تطيلي احتجابك عني ، يا ذات الرونق السنيّ . يشوق ابا اسحق أن يستصبح بهذا الجمال الوقّاد !

فضحكت ، وانحنت بين يديه ، وهي تتراجع الى الباب . على أن عينيها سددتا اليه فيضاً من استهواء صرع لبه . فأحس ، طول نهاره ، وبعض ليله ، بانه متيّم ، ولهان . قبض على ناصية المطمئن العربي ، وقبضت على ناصيته احدى المستظلات سماء هذا المطمئن ، كأن قطب دولته نوران !

٦

لم يزد على شهود اربعة ، ذلك المجلس المحتجب في أعماق دار الافشين، القائد الفارسي الرحب الذراع ، البعيد الصولة . فجمع الافشين نفسه ، والعباس بن المأمون ، وعجيف بن عنبسة ، وابنته نوران . واعتمدوا على الهمس في أحاديثهم، كأنهم يخشون أن يكون لهواء المكان اجنحة ، فيحمل بها صدى اقوالهم ، الى آذان لا تؤتمن على نأمة. ونظر بعضهم الى بعض ، بارتباك آناً ، كأن الثقة متخلخلة فيهم ، فلا تشدّ احدهم بالآخر ، وباندفاع آونة ، كأنهم يذودون عن مأرب عميم

وبدت نوران أشدهم سعياً للتوفيق بين الآراء ، واكثرهم رغبة في التآلف والمناصرة . قالت تنفخ فيهم روح الوحدة، وتنفث فيهم الاضطغان على المعتصم ، وزبانيته الاتراك : انهم ليكيدون لكم . فاذا لم تتعاضدوا ذهبت بكم الدسيسة المحبوكة العرى ، وامسيتم احاديث . فالاتراك يطمعون في التنكيل بكم ، وفي اقصاء المعتصم عنكم ، جانحين الى الخلاص من الوجه الفارسي في الرحبة العربية . فلقد ضاقوا بالانحناء للسيطرة الفارسية على الخلفاء العرب ، كما يطيب لهم الزعم ، ونزعوا الى إقرار سيادتهم فينا . وما أن يمسي الخليفة من مؤيديهم ،حتى ينقلبوا عليه، ويغتصبوا منه الخلافة . إنهم ليبنون لدولة تركية خالصة ، تذهب بالعرب وبالفرس جميعاً !

فاستبعد الافشين أن يمتلك الاتراك هذه الضلاعة ، وقال : جلّ ما ينهدون اليه أن يظهروا بعد خمول. فالنباهة مشتهاهم. وإذا ما لاح لهم من الخليفة بعض الحدب عليهم، فلن يتنكروا له ، بل سيغتنمون النهزة وينتفعون بها.

أما أن يحلوا محلنـا ، في تنظيم أمور الدولة ، وفي التسلطن على الخليفة ، فهيهات !

فقال عجيف بن عنبسة يخمد في الافشين ظنه القائل : انت لم تكن اليوم في صرح الخليفة ، يا خيذر بن كاوس . ولو مثلت فيه ، لحملت نفسك على غير هذا الرأي . أما أنا فولجت الصرح ، وشهدت فيه ما روّعني . فالمعتصم لجأ الى «أشناس» التركي في مناوأة بابك الخرّميّ . غير أن أشناس آمن بانه هباءة إذا لم يضمن رهافة نصالنا ، وسداد نبالنا . فهفا الى أبي إسحق يرتجي أن نغيثه في المنازلة . فدعاني اليه أمير المؤمنين يسألني في النجدة ، فعرضت عليه سيفي ، ورمحي ، وجندي !

فاستفهم الافشين وهو يجرض بريقه : وهل خاف المعتصم أن نحيد عنه اذا ما استشارنا في امر بابك الخرّميّ ؟... ولكنا ما برحنا من اعداء الكافر الفحّاش . وإن يكن فارسياً فما هو بالدليل على كوننا نتشيع له في كفره . فما ندين بدين المجوس كي يوجس الخليفة منا شراً ، ويتقي مباحثتنا في امر النذل !

فقالت نوران ، وقد اعترمت اضرام النار : ما لم تتوقعه وقع ، ايها القائد المظفّر ، وأعرض عنك المعتصم ، كأنك لست منـه في عطف ، ولا مودة . وجلّ ما عليك أن تنظر في أمرك ، وأمر بني قومك ، وأن تلتفت الى غدك . فاذا راقك أن تمسي عبداً للاتراك ، فانطلق في ركابهم الى مناهضة بابك ، واسفك دمه بسيفك الصقيل ، ليقال ، وأنت تغمد شفرتك في قلبه ، إن الاتراك قضوا عليه ، وإنك كنت تطيعهم على رغمك في وثوبك عليه ، ولم يبق لك حول ولا طول . أترضى عن هذه المهانة ، يا مدوّخ الطغاة ،

وسيد المروءات ؟

فهدر ، وما كان يطيق ان تتضاءل فيه الكرامـة : خسئوا . لن يقود الحملة سواي . ولن يطفىء شعلة الحياة في بابك سواي . وسيجري اليـه الاتراك في أثري ، وليس لسيد فيهم أن يتقدمني ، وانا قائد الجيش !

فهزت برأسها استخفافاً بما يعلن . وقالت تمعن في إشعال حنقه : كنت قائد الجيش ، أما الآن ، فان أمر هـذا الجيش مردود الى « أشناس » ، و « إيتاخ » ، التركيين ، وما تعدو كونك من أتباعهما !

فغاظه أن تعبث بقدره ، ودمدم عليها : صوني لسانك يا ابنة عجيف !

فنبرت بحدة : وعمّ أصونه ؟ ... أأبصركم تهونـون ، وارتضي لكم المذلة ؟ ... لا ، والله . إن المعتصم ليرمي إلى إطاحتـكم . وليس لي ان اذهب بعيداً كي أجيئكم بالدليل الصراح ، وقـد أباح ابو اسحق للجنود الاتراك ان يسوقوا جيادهم ، في صدر بغداد ، على مدى طفرتها . فتجرف في طريقها ، بامتهان صارخ ، الصغار ، والاشياخ . ولماذا اجاز للاتراك ما لم يطلق فيه أيديكم ؟... أليس ليعالن الامة بأنكم دون أولئك الغرباء؟... ألا اعتبروا . إن يومكم لقريب . واحجام أبي إسحق عن الاستعانة برأيكم ، في مصير بابك ، إحدى هذه المعابث بخطركم . فحذار ، إذا مـا سرتم إلى بابك ،إحقاقـاً لملتمس المعتصم ، أن تفتكوا بالناشز ، بل افسحوا له في الخلاص إلى حيث يظـلّ درعكم في تخويف أبي اسحق ، فلا يأمن شره . وإلا ، إن انتم أزلتموه عن معاصمه ، وافنيتموه ، عاد سهمكم إلى نحركم . فيدهمكم الوبال. ويحس الخليفة ، القائم فينا ، بأنه بات بغنى عنكم، وقد أنقذتموه من الهول المتوعد. فيطويكم واحداً ، واحداً، رمماً بالية في الاشداق الفناء !

وافاضت نوران ، بالقولة الهبى ، امعاناً في إثارة الاوتار . وبـدا في الاساريرِ ما تختلج به السرائر من مواءمة ، وحفيظة . ليست تفتري إبنـة عجيف في ما تذيع ، والمعتصم يلابن الاتراك ، دون سائر الامم الراسبة في الدولة العباسية . وران على الجميع سكون قلِق ، لم تكن تجري فيـه الانفاس بطلاقة . وتكلم العباس بن المأمون فقال : ما نطقت نوران بسوى الحق . عمي يجد فينا خصماءه ، فلا يركن الينا وقد عجم في طرسوس اعوادنا ، فتكشفنا له عن كره ، وقلى . ولقي في الاتراك اعواناً يساندونه علينا ، فالتفت اليهم ، وصدف عنا . والاتراك ذوو مطامع فساح ، لم يدركوها ونحن نسدّ عليهم منهاجها . فتجنبوا النهزة ، وصانعوا عمي في رذلنا ، كي يمهد لهم الى المنى . واني لاجد فيهم طموحاً إلى الغطرفة . وما المعتصم غير خيال يتسترون به ليقبضوا على الناصيـة . ولا تكاد تدين لهم ، حتى يهيج فيهم البطر الشرس ، وينقلبوا على ولي نعمتهم بفظاظة الكنود . فيا ويلنا من المعتصم ، ويا ويل المعتصم من مواليـه الاتراك !

فهتف الافشين ببعيد خيلائه : لا تزال أحياء يا ابن المأمون. فما طمس عمك آثارنا كي يدهمنا العجز والهون . وما دمنا على نضاضة من رمق ، فسنقاوم ، ونخضد عرام المعتصم إن يكن يبغي علينا . نحن ذوو يد خيّرة على الدولة المنتصبة الدعامة ، وليس بالسهل غمط فضلنا . فلنا في الجيش اخوان ، وفي الامة اصفياء ، وكلهم عون لنا على عمك يوم يتجانف عنا . واذا ما رغبنا في تصديع أريكته ، فلن يكلفنا السعي لتقويضه ، غير هتفة في الجند ، فتدور على ابي إسحق الدائرة . ولكننا من ارباب الحفاظ ، فلا

تهدم اليوم ما شيدنا امس . لا ، لن تدوم مودة الاتراك للمعتصم ، وهم فئة لا يستنام اليها !

وفشا التهديد في بيان الافشين ، وقد أفاض بما لم يتحرّز من وباله . واطمأنت نوران الى فورة الحنق في القائد الهمام ، فقالت تسوق جميع هؤلاء المضطغنين في صعيد عبّدته لبلوغ هدفها : لنقاتل بابك كي نتظاهر بالخضوع لابي اسحق . ولكن لنتماسك عن ضربة الاجهاز ، وجدوانا في بقاء الخرّمي حياً ، وفي التسهيل له الى المعتصم كي يستأصله . وما ان يفعل ، حتى تتخطفه مواضينا . اتعظوا بعلي ، وخذوا عن معاوية !

وأحيت فيهم الروع ، وأرشدتهم الى الملتمس . ليس للاسنة أن تخترق كبد بابك ، والحكمة تدعو الى الابقاء عليه . وشخصوا اليها بابصارهم ، وقد فتنتهم ببيانها ، كما فتنتهم سحر زهورتها . وودوا أن تزيدهم من هذه الملهبات ، الملهمات . قالت ، وما استطاعت أن تستبقي في صدرها نفثة من سخيمة : أنتم لم تكونوا في إيوان المعتصم لما خاطب الخليفة قائده «أشناس» . أما انا فكنت ، وسمعت . وليس ما سمعت بما تغتبط به ارواحكم . قال أبو إسحق يسوق الكلام الى القائد التركي : « سننطلق الى بابك بجحافلنا ، وأنت في طليعة من نعتمد يا أشناس ! » . أجل ، في الطليعة . هذا ما أرجى اليه من بيان دون أن يبالي أمري . فهل وعيتم قولته ؟ ... فالاتراك في طليعة من يتكل عليهم فينا . ولما دعاني إلى إعلان ما يمور في افئدتنا من نيات ، وأذعت أننا عازمون على إفناء البغاث المستنسر ، تهكم بي «اشناس» بجبنه التليد ، فقال : « على ان تكون الميول صادقة ، يا ابنة عجيف ! » . فخضخض جناني ، وصحت به : « سوف يقبل عجيف ، وتتبين رأيه في

الكافر الرجيم ! » . ولمع وجـه أبي في الايوان ، واجاد الابانة ، فاخزى « أشناس » . على أن الماكر ما انفك يرتاب ، كأنه لا يؤمن بكوننا نصدق في موالاة المعتصم ، وقد سبق لنا أن تشيّعنا للعباس . فانظروا ما امسينا فيه من ظنة . فالاتراك ، وهم عبدان ، وإماء ، باتوا يشكّون في إخلاصنا لراكب السدة . ألا فلنطحنه ، ولنطحنهم . ولنكن بغـداد بحيرة تتلاطم فيها الدماء . فلا بأس أن يعيد التاريخ نفسه ، ونشهد مجزرة أشبه بمجزرة البرامكة ، إلا أن ضحاياها اتراك ، لا فرس !

وصبّت على النزوات النـار ، فزادت في إضرامها . وهتف الافشين ، وهو يصغي فيها إلى ما جاهر به الخليفة « اشناس » التركي : إذا لم يخنك وعيك في ما تصارحيننا به ، يا ابنة عجيف ، فهنيئاً للمعتصم أعوانه الاتراك . أجل ، سنمشي الى بابك نقاتله في رواسيه ، إلا اننا لن نهزمه . فلا بأس ان تدوم صولته ، ما دامت ترمد عين المعتصم . ابو العباس المأمون تقلب على مضضها ثمانية عشر حولاً ، فليكتوِ بها ابو اسحق دهراً كاملاً . ومن الخير لنـا ، أن يقوم في الدولة من نقوى به على كبح شراسة المغتصب ، والغضّ من عنجهيته . وإن نحن هزمنا بابك ، فلن نصيب حياته بسوء ، ليظل تلك الشوكة الممعنـة في الافلاق ، فلا يغمض للمستظهر بالامر جفنٌ قرير !

فابانت نوران ، وما كانت تبتغي التطويل للمعتصم في ركوب مقعـد الامامة : على بابك أن يبقى ما بقي محمد المعتصم ، يا خيـذر بن كاوس . وما أن ننجو من أبي إسحق ، حتى نحذف ذاك ، ويستتب الامر للعباس ، ولاجله كل ما نجاهد فيه من سعي ومنافرة . فليس لرجل أمي ، ولا لزنديق

مقيت ، أن يقتعدا دست السلطان وهو لنا !

فقال الافشين ينصرها في مذهبها: لن نحيد عن خطة رسمتِ قواعدها ، يا نوران . سنقاتل بابك ، تحت راية المعتصم ، وقلوبنا في نجدة العباس !

وجمعوا أمرهم على قتال المجوسي الكافر ، ولكن دون ان يطووا أيامه إذا ما ظفروا به . وما كانوا على يقين أنهم سيظفرون به ، وما فوجىء الخرّمي بجحافل الخليفة إلا ردها مقهورة، مفلولة. قالت نوران : إن تكن له الغلبة ، فلنفسح له إلى بغداد ، وليهدم فيها المعتصم وجماعته . ولن نعيا عن هدمه ، وقد ساد . فاذا فاتتنا القوة ، فلن نعدم الحيلة !

فهتف بها ابوها ، وهو يحس فيها بالافراط في ركوب الاوهام : دعي عنك الغلو في استعباد الاقدار يا بنيّة ، فالاقدار لا تلاين من يمتطيها . فإما أن نملك القوة فنستأصل بابك ، وإما ان يملكها فيسودنا . وإذا ما اقتلعناه، من جذوره ، فعلينا ان نرتدّ الى المعتصم فنذروه في مهب السوافي،لنوطد للعباس . والا ، فلا نحن ، ولا المعتصم ، ولا العباس !

فأبى عليه الافشين أن يصدم نوران في حماستها ، معلناً : لا تزعزع فيها مكنة الايمان ، يا عجيف . تكلمي بما يروقك يا نوران ، وكلنا مسامع صاغية اليك. سنحقق لك الشهوة على ما يحلو لخاطرك، ويطيب به جأشك !

وجلجل في إخوانه : لا تركي بعد اليوم في هذه الرحاب . زحفوا الينا يرتزقون بخدمتنا ، فاشرأبت أعناقهم الى امتلاك الاعنة . ألا خاب فألهم. سنعيدهم الى اجحارهم مستوحشين، مكدودين. بل سندق هذه الاعناق، ونأبى عليها أن تغلظ . فالحرب بيننا وبين المزهوّين، الأغرار. وهي حربٌ حفزنا اليها أبو إسحق ، على رغمنا ، وستجرفه سيولها الى حيث يبيت هباءة

ممحوّة . فلسنا بمن يرضون بان تداس أنفتهم ، وما كنا ، وما نزال ، غير شوس ، بصيد !

وكانت الكلمة الفاصلة ، والافشين من ذوي الرأي الحاسم ، والشدة الراسخة . وساد السكون المجلس ، وقد لقيت فورة خيذر بن كاوس مطارح ترسو فيها ، وعقولاً تروزها ، وتستنيم اليها . فالقول الرشيد ما أفضى به . وليس للاتراك ، وهم من الخدم والخوَل ، أن يسيطروا على دولة العباسيين ، وان يتحكموا في العرب والفرس . وإن يكن المعتصم ، وطأ لهم إلى أكتافه ، فمن يضمن له برّهم في النصرة ؟

وعلا دقّ بالباب إرتعضت له الخواطر . من المفاجىء المقلق ؟ ... ونهض الافشين بنفسه يفتح ليرد الخطر المباغت . وإذا به حيال إبنه الحسن يقول له ببسمة يفرضها الحرص على سرّ الخلوة : وصيف ، حاجب امير المؤمنين ، يلحّ في مرأى أبي . وهو يعلن أن الخليفة يدعوك ، فبادر إلى التلبية !

فسمع العباس ، وعجيف ، ونوران ، وشاعت فيهم الرهبة . إذا ابصرهم وصيف ، في تلك الوحدة المريبة ، طفر الى مولاه يقص عليه الخبر ، ويحيي في نفسه رهيف الشك . فيمعن الخليفة في الحذر ، وتنفضح الدسيسة . فاختبأوا في الزوايا ، وفي المهج رعشات من وجل . غير ان الافشين أغلق الباب ، ومضى الى وصيف يرحب به بمستطير البشاشة ، ويداعبه بقوله : أأنت يا وصيف ؟ ... ألا مرحباً . ما إن أبصرك حتى يضطرب جناني . ماذا لديك من رهيب ؟

فابتسم وصيف وقال : كل ما عندي يبعث على الاطمئنان ، يا خيذر

ابن كاوس . هلاّ عجلت الى امير المؤمنين ، وهو يشدد في مرآك ؟

– أيريدني مولانا الخليفة ؟ ... ألا مـا اطربها من بشرى . إني لمنطلق اليه . هب لي من الوقت ما أتقلد به سيفي ، وأخلع عليّ عباءتي ، وأنا وإياك في حضرة سيد البلاد ، والعباد !

وتماسك بما أوتي من عزم . وارتدّ الى إخوانه الحائرين في أمرهم ، في الحجرة المغلقة ، يقول : طيبوا قلباً . أنا شاخص إلى القصر ، وليس يندّ عني ما يبتغي المعتصم مني ، وسيحادثني في ضرورة التأهب لمنازلة بابك . أما أنتم ، فابقوا في مكانكم إذا شئتم . وليس في بقائكم ، أو رحيلكم ، باعث على الظنة . واكتموا كل ما تساقطنا من مقال . وموعد لقائنا وشيـك . أستودعكم الله !

وامتطى فرسه إلى أمير المؤمنين . ودخل على الخليفة يقبل الارض بين يديه . فابتسم له المعتصم ابتسامة الرضى ، وقال بـمديد الانس : والله ، ما كنت أقوى على كتمان ما في نفسي عنك ، يا خيـذر بن كاوس . فاني ، وخاطري ، لفي مصادمة ما ادري كيف انجو من لطماتها . فرأيت أن أدعوك اليّ كي تنجدني في حلّ لها . أتبطن الاخلاص لامير المؤمنين ؟

والمعتصم يعلم من أمر الافشين ما يهيب به الى اكبار مهزة القائـد الفارسي ، الصؤول ، والى البذل في خطب وده . ولا غنية عنه في اقتناص الغلبة ، وتوطيد ركن السلطة . ولا سيما في عهد بعُد فيه شأو الفرس بركوبهم المعالي ، وبامتناع بابك الخرّميّ في جبال البذّ . وبابك ، اذا ما استمال اليه بني قومه ، استعاد مجد الاكاسرة . وشالت كفـة العرب . وقضي على المعتصم وعلى من يليه من العباسيين . قال الافشين يبدي التأييد ، والطاعة ،

ببسمة تحاول نشر الصدق على الألفاظ المتصاعدة من الشفتين : ما نحن في جناب امير المؤمنين غير سيوف لا تكلّ لها شفرة ، ولا تنبو لها ضربة . وإننا لسائرون في النهج الامين ما دامت أرواحنا تنتفض بخلجة من رمق . فليستطلعني ابو إسحق الرأي في ما يصبو اليه ، وإني للمعاهد على الفداء في كل ما ينتدبني له مولاي !

فاغتبط المعتصم، راضياً عما يلقي اليه الافشين من بيان الخضوع الدفاق، وقال: ما كان لي أن ارتاب بركين حفاظك، يا خيذر . وهذه الثقة الوافية قادتني الى استيضاحك أمر هؤلاء العيّاثين في صفاء الامن . فهل ترى ، من الخليق بنا ، أن نسكت عن مخازيهم ، ونبيح لهم الاستخفاف بكراماتنا ؟

فهتف الافشين يبدي الحزم : بل علينا أن نطيحهم يا امير المؤمنين . فلا نبقي للسان فيهم أن يستصرخ في مدد، ولا ليمين ان تمتد في ردّ فتكة. ما قامت دولتك إلا لتمحو البطل ، وتنشر الدعة ، وتبيد الشذوذ !

فأيقن الخليفة أنه لقي في الافشين يداً موالية ، وقلباً أميناً ، فأذاع بفرحة : والله ، لقد زدتني شوقاً إلى تأديب المنافقين ، يا ابن كاوس . فما قولك ، وقد دفعتك إلى كسر شوكة الخرّمي ، المستظهر في جبال البذّ بطغيانه ، المفتئت بالارواح يذيقها الويل ، والنكد ؟

فابتسم الافشين . ما أخطأ حدسه . فما ناداه المعتصم اليه إلا ليرمي به بابك المارق ، العاصي . قال يوضح منزعه بحكمة أخي التجارب : ليس لامير المؤمنين ان يسكت عن الدعيّ. فان تكن نصال أبي العباس المأمون قصّرت عن المخرق، الوقح، فما لاسنّة ابي إسحق ان تنتكس دون الباغي، الزنيم . كلنا طوع مشيئة المعتصم بالله . على أن اللص ليس ممن يستهان

بجولهم ، يا أمير المؤمنين. فان له منجلاً حاصداً ، وشوكة طاحنة . فاذا لم نضربه بجميع جيوشنا كان لنا أن نعاني من كيده الهول . فلن يكتفي بجبال البذّ يسودها ، وقد دان له النصر ، بل سيزحف إلى بغداد يخندق فيها . وما أدراك ما سوف يكون وكتائب الشر ترسو في مدينة السلام !

فارتعد المعتصم. إن الافشين ليطلعه على الواقع الراعب . وأعلن ، كمن يتقي الضرّ القاصم ،بالدرع الماثلة بين يديه : سأعهد في الامر اليك يا خيذر . ما للداهية سواك . إضربه بباترك ، واحتزّ عنقه ، ولك مني كل ما في بيت المال من ذخر . جئني برأسه مقطوعاً بصقيل حسامك ، واطلب مني نصف ملكي ، فأشاطرك الحكم . فما توانى فيه أخي المأمون ، ليس لي أن أكبو فيه ، وحق السماء !

فأجاب الافشين بالمنطق الوقور : ليثق أمير المؤمنين بأني في قبضته سيفٌ قاطع ، حريز . فلينقضّ بي على الرؤوس شادخاً خاطفاً . لا كان الافشين إن لم يمنع غائلة بابك عن دولة المعتصم !

فصاح أبو إسحق والجذل ينفخه فيكاد يطير :أتدرأ عنا غدره يا خيذر؟... أتسقي الارض دمه ؟

– ما كنت إلا شرارة تحرق كل من يستطيل على راكب الذروة يا ابا إسحق ، وسأظل تلك الشرارة الاكول . فما لعين أن ترتقي الى حاجبها إلا فقئت وأظلم نورها . وأنت فينا الحاجب ياامير المؤمنين ، وليس لعين محتشمة أن ترتفع اليك ، وإلا حُملت على حتفها !

فسرت في عروق المعتصم رعشة التأثر الطروب . ووثب على الافشين يعانقه باكبار صائحاً به : لله أنت يا أبا الحسن ، كم يتألق فيك من وقد

البطولة . فانك لوهجٌ من استبسال جموح . لك إمارة الجيوش على بكرة ابيها ، فنظّمها ، وانطلق إلى تقويض الغيّ في جحره . دبّر امر الحملة الهاصرة بما يطمئن اليه ضميرك، وترضى عنه درايتك، وليس للعدوان ان يتأبد فينا . وليكن أشناس وإيتاخ جناحيك . فقد لاح لي اليمن في هذين التركيين . ولا تطلْ القعود عن المجرم . فالمعتصم لا يهنأ له بال إلا وقد صحا الافق في دولته ، وأمن قومه العسف. فتبيت النعامة تقول لاختها : « اطوي جناحيك واستريحي ، فلا عليك ضير وانت تستظلين في المعتصم بالله ! » !

فقبل الافشين يد الخليفة . وقال وكل ما فيه من وتر يناهض معسول بيانه : سيقرّ عيناً أمير المؤمنين بما سيلقى من تنكيلنا بالفاسق . وهو مع كونه فارسياً ، فانا لننبذه ، ونسفّه حلمه ، ولسنا نركن الى الفجور !

فأبان أبو إسحق : إني لمؤمن بولائك يا أبا الحسن . ألا امضِ الى إخوانك وانفخ فيهم روح الحماسة ، كي تندفع قواتنا الى زلزلة جبال البذّ . فلن نصون تلك المعاقل ، من سخطنا الطامس ، ما دام الزنديق يرعى في مجاليها !

وأطلقه إلى بثّ الجيوش الميل الى تدويخ الخرّمي . وما كان ليشتهي إلا ان يرى أولئك الفرس في نصرته على ابن ابيهم المنبع الدعامة. غير أنه لم يكن تجاههم صافي الطوية. فما أن يؤيدوه في بضع الدمّل، ويستوسق له الامر، حتى يعمد إلى اجتثاث جذعهم، وقد بات لا يطيق فارسياً ذا مكانة في دولة العباسيين، وكلهم اضحى أبا مسلم في جبروته وصلفه . فالمنشود القضاء على بابك ، ثم تنتظم الشؤون ، ويلي الأمر أربابه الأمناء

والتفت، على رغمه، فيما الافشين ينصرف عنه، إلى عنق هذا الفارسي الضليع، وقال في نفسه : لا يلوح لي أن رأسه طويل العهد بالثواء بين كتفيه، وما كنت لانسى اثاره بي وعجيف بن عنبسة، وأضرابهما . على أني بحاجة الى تخدير الهواجس في الجيش لنيل مأربي، ثم نرى يا ابن كاوس، ويا عجيف. ولكن هناك نوران . آه من نوران ما امضى سلطانها على مهجتي . ريحانة عطرة في إناء من الياقوت . لا ، ما في دولة المعتصم اخت لنوران !

وتمثلها في خاطره وتنهد . وما جهل أن للعباس ابن أخيه فيها مطلباً . ولكن أي شأن بقي للعباس والمأمون ولّى ، والخلافة انتهت الى المعتصم بالله ؟... فالأمر أمره في الدولة البعيدة الآماد، المتلألئة الاشعة . وما لرغبة تنتفض بها جوانحه إلا وتلقى المواءمة، سواء كانت حقاً أو بطلاً . ونوران له بحكم هذه القدرة المنبسطة فيه على مداها . وما للعباس إلا أن ينحني، أو أن يرحل . وإذا مانع فلا نجوة له من النطع والسيف . ثكلته امه !

وحنّ إلى نوران ، إلى الوجه الانيس، المليح، المتأجج حياة وسمواً، وما فيه من سلالة الحَوَل مطرح. كأن نوران ابنة قوم نبلاء، يمتون باسباب الى الرابعين بالعروش. وشغلته صباحتها عن تدبير ملكه . فنادى اليه ابنته عليّة يستوضح عن شعلة الحسن . قال وهو يبدي حيال الفتاة تأثره بشؤون الدولة أكثر منه بمنازع الغرام : أقررنا الأمر على وجهه التمّ يا عليّة . فالافشين سيغيثنا على بابك الخرّمي، وعجيف مبذول المقادة، وما ينفك يبدي الخضوع . والاثنان في قادة الفرس من الاقطاب . فما أن يوافقا على بغية حتى تنقاد لهم جموع إخوانهم صاغرة . أما الاتراك، فلا سبيل فيهم الى ريبة ، وهم لا يرتجون سوى رضانا وعطفنا . وإذا ما مشى الفريقان إلى

مخارم البدّ ، ينحتون في قواعدها ، ويفسحون في مضايقها ، ويعينهم عليها العرب ، فأنى يبقى لبابك الخرميّ مهيع الى فوز ، أو هرب ؟ ... ألا نادي اليك نوران كي نبلغها أن رجاوتها لقيت مجالها الى الانبثاق !

وما كان يستطيب سوى مجالسة إبنة عجيف . هذه هي الدنيا بملء رحابها ، وفي النظر اليها فتون ، وفي الاصغاء الى حديثها اللذّ وافي النعيم . ولقد قال فيها إنها ذات نشوتين ، وغاب عنه القول إنها ذات نورين ، والاسم فيها وافق المسمّى . وعليّة ، ابنته ، لم تشتبه بدعوته إياها الى مناداة نوران . وجلّ ما لمست فيه الجنوح إلى مداعبة رفيقتها ، دون أن تشعر بهيامه اللهبان بالدمية الباهرة . فقالت وهي تبسم له : سأدفع اليها خادمتنا العجوز « نهوند » كي تستقدمها . هنيهة وتبدو بين يدي امير المؤمنين !

فهتف بشوق : ألا افعلي يا مالئة نفس ابيك بهجة وأنساً !

فأسرعت الى « نهوند » ، العجوز ، تلحّ عليها في استقدام ابنة عجيف ، قائلة لها : إبلغيها أني بحاجة اليها الساعة . ففي مجيئها ما يرضي شهوتها ، ويغبط نفس الخليفة !

والخادمة « نهوند » احدى الجواري القدائم في صرح الرشيد . على أن السن هبطت بها الى درك الخدم ، في قصر المعتصم ، وما ادخرت مالاً تقي به نفسها عبء العجز ، ولا انسباء لها يلتفتون اليها وقد بيعت في سوق النخّاسين . وهي تذكر انها اقبلت من همذان ، ولكن اهلها انقطعوا عنها . وربما اضمحلوا . والى من تلجأ منهم اذا بقي بعضهم على انتعاش وسيتجاهلونها ، وهي عاطل من الاموال والحلى ؟ ... فمن حسن الرأي ان تستقر بصرح الخليفة ، وتكفي نفسها مضض السنين العجاف . و « نهوند »

على ذكاء دهاق، وعلى سلاطة لسان . فخشيتها اترابها في قصر الرشيد، وتحامينها في مغنى المأمون . ولولا خفة روحها في ساعات الصفاء لكانت جبة رقطاء، لا تسكن اليها الصروح . بيد ان رقة ظلها ذللت من عنف مقولها ، فرضيت عنها أروقة المغاني، ونعمت بعز القصور

وإذا اغارت عليها الايام تسلبها النضارة، فما طمست فيها الفطانة . وما تزال حديدة اللسان ، أنيسة المفاكهة . ولم تكد تسمع سيدتها عليّة تحدثها عن رغبة الخليفة ، في دعوة نوران ، حتى ومضت عيناها ببارقة خبثها المألوف . فالمعتصم لا ينادي اليه ابنة عجيف بن عنبسة كي يستشيرها في امور الدولة ، بل كي يستمتع بزاهر صباحتها ، ومائع مقالها . وساءلت « نهوند » نفسها : هل يصبو الى نزعها من العباس ابن اخيه ، وليس يخفى عليه حنين العباس اليها ؟

وطوت السبل الى مثوى نوران، وهي لا تنفك تجد، في دعوة إبنة عجيف إلى المعتصم ، تنافساً في الميول بين أبي إسحق وابن أخيه . فقالت بامتعاض كأنها لابن المأمون على عمه : أيسلبه كل مشتهى، حتى « نوران » ، وله عنها بالخلافة غناء ؟

وآلمها التنافس البغيض . وودت لو مانعت نوران في الاجابة . غير ان ابنة عجيف بن عنبسة ، لم تكد تسمع نداء أمير المؤمنين ، حتى طارت الى الخليفة على لظى من غبطة . أيدعوها اليه سيد الدولة وتتماسك عنه ؟

وأبصرتها « نهوند » في غليانها ، وفرحتها ، فلعنت النساء ، وما تثبت لهن مودة ، ولا ينطوين على حفاظ ، كأنهن شراعٌ مستباح لهبوب الريح

٧

ما نعمت به نوران،من رحيب إيناس المعتصم،نزع بها الى اليقين أنها وقعت منه . فجنحت الى التوكؤ على ما لقيت لديه من حظوة لتقويضه، وما انفكت تجد فيه ذلك المغتصب . وجاءت وداهنت كي تجيد سحقه ، وقد حرمها لقب « أم المؤمنين »

ومضت عين الخليفة ببريق الصبابة، كأن في باصرتيه مشعلين متوهجين، ونوران تبدو ازاءه بطلالتها المنيفة ، وبحلتها المطرزة بخيوط الذهب ، المستكملة جميع ضروب البذخ . وتمنى لو ضمها اليه فيستمتع بقسامتها النضرة ، وللدمية الفارهة في نفسه راجح الاثر . إلا أن ابنته علية رافقتها اليه، وهي تقول بابتسامة طروب : ها هي ذي نوران يا أمير المؤمنين ، فاطلع علينا ببهيج البشرى !

فتظاهرت « نوران » بالفضول الملحاح ، واستوضحت بطاغي المسرّة : ألا ماذا يا أمير المؤمنين ، هل من نبأ ينعش الارواح تبتغي نفحي به ؟

فأبان وهو على مستطير الجذل : أدركنا الامنية يا نوران ، وسنقضي على الخرّميّ اللص . فالعرب والفرس والاتراك سيجبهونه معاً . وما هي غير أيام معدودات حتى تندلع اليه جموعنا . فالافشين أيدني في ما هممت به من استئصال . وما دام أبوك والافشين بجانبي ، فليس للئيم أن ينجو من مصرعه المتاح . الموت للخائنين يا ابنة عجيف ،وما للمعتصم أن ينام على جمرة تحرقه ، وأن يغضي عن شوكة تغرز في مبلعه !

فهتفت تستزيده حماسة وتزيده طمأنينة : كلنا فدى أمير المؤمنين !

فأذاع باغتباط عريض، ومرجاته اقتناصها كأنها «بابك» آخر، إلا أنها أطيب مذاقاً : عوفيتِ يا نوران. إن من يضمن ولاءك لقرير العين، سعيد. سنوفق في وثبتنا وسنهدم الكافر. فسيلوح لك غائراً في الارض كنهر ضلّ عن مجراه، بل كصاعقة نبذتها السماء فضاعت في الرمل اللهيم !

وما زال يرجو أن يعانقها. ولكن عليّة ابنته تضايقه، وما كان يهتدي الى حيلة يصرفها بها عنه ليخلو بابنة عجيف. فيلتفت الى نوران وهو يتلاشى جوى، ويبلع ريقه ويرنو الى إبنته وكل ما فيه على برم. إنه لفي لبكة تحرج فيه رحابة المهزة، وصراحة النطق

وخيل إليه أنه وقع على المنشود. فخاطب إبنته بقوله : هلاّ دعوت «نهوند» الى إعداد بزّتي ؟... سأخرج الليلة الى دجلة أنفّس على سطحها عني، وقد طال عليّ الثواء بهذا الصرح الموصد الابواب، كأني السجين !

فدرجت إبنته الى جاريتها. واتسع له المجال الى ما يطمع فيه من خلوة مستطابة. وأذاعت شفتاه ما يخفق به صميمه. فقال يستوضح الفاتنة اللعوب بلهجة تسيل ليناً وهياماً : هل دريت ما بي منك يا نوران ؟... يلوح لي أن عينيّ تحدثتا ملياً عني، يا مضرمة الاشواق. والله، ما عرفت قلبي يتوهّج بنار كهذه النار، وقد أشعلتها فيه بيديك، حتى يكاد يحترق. فرفقاً يا مذيبة الاكباد !

فراقها ان تغزو فؤاده، وان تسيطر على نهيته. غير أنها تجاهلت ما أحست فيه من ولوع مجتاح. وأبدت الدهش معلنة باستغراب نتأت به مقلتاها الوسيعتان : ألا بماذا يحدثني امير المؤمنين ؟

فامضّه انكارها. أتجهل ما يحتدم فيه من كلف بها ؟... ولكن ناظريه

ما أبقيا فيه على بيان يجلى. قال وفي نبرة صوته رعشة من ارتباك وحرد: أما شعرت بما بي منك يا نوران ؟... أعتقد أنك على وفر من فطانة يا أخت الثريا . فما للالسن أن تتكلم، وقد كشفت العيون عن حاجاتها . محمد المعتصم بالله يجد فيك فتنته ، ويتوق الى رفعك إليه . فماذا عليك وقد اصبحت ، في حرمه ، سيدة ذات دلال وصولة ؟

فمضت تتعجب بما يسقط اليها قائلة : أيهواني أمير المؤمنين ؟... هذه منحة ما كنت أرقبها . فمن رضى السماء عني أن يلتفت اليّ مولاي الخليفة بعين عطوف ، رحوم . ولكن يا أبا إسحق ...

وجمدت في مبسمها الألفاظ. وشاعت في محياها الحسرة، كأنها حانقة على القدر وقد وقف بها عن المبتغى الأثير. وأدرك المعتصم أنها حيال عقبة تمسك بها عن مجاراته في المطلب، فاستوضح وفي شفتيه ابتسامة المستهين بكل حائل عنيد : ولكن ماذا يا نوران ؟

فتناهت في إبداء الكمدة، وأعلنت بصوت حزين : أيخفى على أمير المؤمنين أني مطمح عين العباس، إبن أخيه ؟

فزفر زفرة الغيظ. أيكون أبداً العبّاس ذلك السدّ دون الأرب ؟... وأعلن بامتعاض : ليس العباس أمير المؤمنين يا نوران . فأنت مدعوة الى الثواء بقصري ، بين نسائي. ولن تكوني من الجواري ومقامك يرفعك عن هذا الدرك ، بل ستكونين من زوجاتي المرموقات. وأنّى للعباس ، إبن أخي، ان يشيد لك هذا النعيم ؟... أأطلب منك ان تكوني إمرأتي، فيُعقد لي عليك ، فتجبهيني بالرفض الغليظ ؟

واعتكرت عيناه . فما خرجت نوران عن موقفها اللهيف . وأجابت

والكآبة تفشو في بسمتها الملتاعة ، المستجدية العفو والرحمة : لا يشوقني أن يجد العباس في عمّه ذلك العدوّ الشرس . حسبه ما انتزع منه من تراث وزين . ومع شوقي الطروح الى المعتصم بالله ، ومع اكباري الهبة الغالية المخلوعة عليّ ، لا أراني مدفوعة الى مسايرته في الرغبة ، وأنا أضنّ به ان يكبو في غزوة المجد النصيع. ليغالب مولاي هواه في ابنة خادمه عُجَيف، لئلا يقال فيه إنه انقاد، في مناوأة ابن أخيه، الى ما تترفع عنه النفس المختمرة بالنبل الأثيل . أنا لمولاي . وله أن يسفك الساعة دمي ولن يلقى مني اعتراضاً . أما ان يسلخني من ابن أخيه، فهو مما لا أرتضي . لا شغفاً مني بالعباس ، بل صوناً لحرمة مولاي المفدّى من شائن الفلول !

فأفحمته . ودخلت ابنته تقول : « نهوند » تعدّ بزة أمير المؤمنين !

فانتفض سخطاً. صرفته عودة عليّة عن الانطلاق الى مناه . وما درى كيف يتماسك وقد هزّته نوران في صميم لبه . فغصّ بريقه وانتشرت في أساريره سحابة دكناء . فقال يخفي عن ابنته قلقه : هلاّ أرشدتها الى الاعتناء بقبائي ؟... عليّ ان ازدان بأبهى كسوة ، وستندفع بغداد بأسرها لرؤيتي أتهادى على الماء !

فقالت عليّة وقد أحسّت بأن في جوّ الايوان ما يحمل على ابتعادها عنه : إن يكن يشتهي أبو إسحق، ان أعدّ له بنفسي بزّته، فليس ما يقعد بي عن تحقيق الوطر . حباً وكرامة يا أبتاه !

وتراجعت إلى «نهوند» تقول بهمس ودهش : صدقتِ يا ابنة الابالسة . فهو يحدثنا بما لا يأذن لي في سماعه. أراه منها على افتتان، وقد أعادني اليك كي يتسع له المجالُ الى بثّها هواه !

وسرّها أن تجلو السر. وأوجعها ان يجذب أبوها نوران اليه. وعليّة تعلم من أمر ابنة عجيف ما يأبى عليها الاذعان لمشيئة المعتصم . فهي على مكين الهيام بالعباس، وطالما حدثتها عن نزوعها اليه. فلماذا يجاهد أمير المؤمنين في الباطل، ولن يفلح في الشهوة، والقلوب يضيمها أن ترسو حيث تنبو عنها الألفة، ويتجهم لها الأمان؟... قالت « نهوند » بلسانها الخبيث، المسنون، ذو الحدّين: ليدع العبّاس وشأنه يا عليّة . أما كفاه ان حرمه الخلافة كي يهاجمه في نوران ؟... أرى الغادرة ستسكن اليه وتكفر بهوى ابن عمك. فامنعيها من المنكر، رفقاً بأبيك، ولن يسكت العباس عن الانتقام ممن سلبه أغلى متعتين . فهل أجدبت دولة العباسيين من أخوات نوران ؟

فقالت عليّة، وقد ساورتها الغيرة، كأنها لا تطيق ان تشاطرها صديقتها « نوران » رحابة السؤدد الغضير : سأحول دون هذا الحب الجاني يا نهوند، وليس للعباس ابن عمي أن يقاسي ضياع أمنيتين، كما قلتِ . لن تكون نوران للخليفة النهيم!

غير أن عليّة لم تكن باضطرار الى الوقوف دون جنوح أبيها الى الدمية الفريدة الحسن، ونوران نفسها قاومت هذا المطمع في أبي اسحق . قالت وقد عاد اليها يستهويها: كن حريصاً على وشيجة القربى يا أمير المؤمنين. هذا ابن أخيك. وليس لك ان تجهز عليه بعد كل ما أنزلت به من ضير . فالمعتصم لا يألف الغدر والعسف!

فحزّ في فؤاده ان تدفعه عنها. وقال بارغاض : أبمثل هـذه الخشونة تبعدين عنك رب الدولة يا نوران ؟... ولكني لست مجبراً عـلى الملاينـة والسؤال. فما أن اشاء حتى أجذبك إليّ بكلمة آمرة. أتجهلين مبلغ سلطاني؟

فأبانت وهي تنحني بين يديه : ومن يجهل مرتبة أمير المؤمنين كي يتجانف عنه في الملتمس ؟... إلا أن للحكمة من قواهر الأحكام ما يدعو الى الاحتراس من الزلق . وليس لمولاي ان يصادم فتنتين . فتنة في جبال البذّ، وفتنةٌ في بغداد . ولن يقف العباس من هذا الاغتصاب موقف المسالمة، كما ظهر منه في الاغتصاب الاول وقد استأثر دونه بالامامة أمير المؤمنين . فالجيش لا يبرح ينصره . وفي الاحراج ما ينزع به الى الفورة . ولست أرى الفورة في مصلحة المعتصم بالله . فلنكن على احتراس من غضبة ابن أخيك في هوانا، وقد تكتب لنا الأيام بلوغ المرام... بامان!

فهاجت فيه عنجهيته . على أن الوعد بإجابة الرغبة خفّف من الحدة المتحفزة للاندلاع . قال : لا يخيّل اليك أني ذلك الخشيان، يا ابنة عجيف، وليس في الدولة على مديد رحبتها من يجرؤ على رفع الرأس في منافرتي . فان يكن « بابك » ذلك المتجبر علينا، فلسوف أهدم من طغيانه بما يذروه غباراً في جامح الأعاصير . أما وأنتِ تبدين المواءمة، وتعدين بالاجابة، فسوف أنتظر . ولكن الى متى الانتظار يا نوران؟... عليك أن تعلمي أني أصبحت منك كالفراشة الحائمة على سراج . فارفقي بمن يكتوي بلاعج الحنين !

وفشت فيه اللهفة . واستطابت نوران إيلامه وقد ارتضت له الذل . إلا أنها ما فتئت تصانع، فقالت : لا يكاد امير المؤمنين يخضد شوكة الخرّمي، وينجو من الزندنق، حتى يجدني كما يحلو له . فالمنشود أن لا يتعرض أبو إسحق لخطرين معاً . وهو إذا ما اشتبك والعباس في القتال، فلن يملك عنان بابك . فاظهر له المودة يا أمير المؤمنين، وامعن في المؤانسة . فلن تبلغ مأربك إلا وأنت مَاكره . فيجري في طاعتك إلى حيث يروقك أن تقذف به، ويصفو

لنا الافق ، ولا يذيع في الدولة أن المعتصم غدر مرتين بابن أخيه !

فوافقها على الرأي النصيح . لا عليه إذا لجأ إلى الحيلة . فيرمي بالعباس بابك الخرميّ،مع من سيندفعون الى مقاتلة الكافر المنادي بالعصيان،ويسخو به على فوهات المخاطر ، حتى اذا لم يذهب به غليان المعامع، حرّض عليه من يسفك دمه وهو في صفوف الكماة . قال وقد زال عنه تزقه : أراك على وفر من حنكة يا نوران . فالأمر ما تعلنين . سيكون العباس في حملة التأديب يصارع المنايا، وستصرعه . رسخ في وعيي كل ما أوحى به اليك المنطق الرشيد . ولكن أتهوين المعتصم، يا ابنة عجيف ؟

فأبانت بخشوع المتعبدين ، وبهوس العشاق المتيّمين : أهـواه كما أهوى الحياة وأطمع في المجد . فليس لي أن أبتغي من زمني ما هو اسمى . هذا الشأو غاية ما يسعني بلوغه من امد . فشكراً للقدرة وقد أنالتني أقصى ما تلتفت اليه نفسي . ما كان لي ان انعم بهذه العطية السمحة وقد فاضت بما يعدو الرجاء !

فأشعلت المعتصم ببيانها اللدّ ، وباستمانتها في الركون اليه . وحفزته الى معانقتها بمستطير الولوع . بيد أن وصيفاً ، الحاجب ، دخل يقبل الارض بين يدي الخليفة ، ويقول : بالباب « أشناس » التركي يا أمير المؤمنين . وهو يعلن انه مقبلٌ اليك في ما يقدر العجلة ، فهل أبيح له المثول في حضرة مولاي ؟

فالتفت المعتصم الى نوران بحرقة . فأومأت بشدة أن أجز له الدخول ، وبودّها الخلاص من موقفها الحرج . وعزّ على أبي إسحق أن يخرق مجيء « أشناس » اليه روعة السحر ، وقد انتشى بها ، فهمهم ما بينه وبين نفسه :

«لا حول ولا ...» . وخاطب وصيفاً بقولة تتملّل : ليدخل أشناس !

وما توارى وصيف حتى دنا من نوران يقول : بوسعك ان تنصرفي . ولكن لا تنسي أن تعودي اليّ. واذا أبطأت فسأوفد اليك من يجيء بك. ليس للمعتصم أن يطيق بعادك ومثواك منه مفرش الحس !

فانسلّت من باب خفيّ في الايوان مسرعة إلى عليّة . وحدجتها إبنة المعتصم بنظرة تطفح بالريبة. وقالت «نهوند» بخبثها المطبوع : ماذا يا نوران؟... هل رضي عنك امير المؤمنين ؟

فتورّدت وجنتاها خجلاً. وقالت : وهل لي أن أهنأ بزمني، وامير المؤمنين لا يجود عليّ برضاه، يا نهوند ؟

فابدت الجارية ذات اللسان العضوض : وما رأي العباس بن المأمون في هذا الرضى ، هل يؤيدك فيه ؟

فقالت وقد تجاهلت ما تنطوي عليه لهجة الجارية الخبيثة من سخر : كانا في طاعة أمير المؤمنين ، يا نهوند . لا تنسي أن رضى الخليفة الموموق من رضى الله !

وأبت أن تصغي إلى وخزات « نهوند » الموجعة . فالمهمة اسمى من من أن تلقي فيها نوران بالاً الى ثرثرة جارية عجوز . وخاطبت عليّة بلهجة شاهت بها التمويه ، كأن المعتصم ما خلا بها إلا ليعالنها بما يعتزم . فقالت : ستكون الضربة قاضية يا عليّة . امير المؤمنين أوضح لي من أمر حملة التأديب ما ينسف جبال البذّ، حتى يمسي الوعر سهلاً. وسيمحو الرواسي ، وتبيت معاصم «بابك» بطاحاً لا أنجاد فيها ولا أغوار . فابشري يا ابنة أمير المؤمنين !

وودعتها لا ترقب جواباً ، وقد تجلى لها من مرأى عليّة أن ابنة المعتصم ترتاب بها ، وتتهمها بالميل الى الخليفة. وشعرت بالجفاء يرين على هـذه الصديقة المختارة ، كأن علية تمانع في ان تحتل « نوران » مرتبـة زوجات الامام .
وعجلت في الانصراف وجاريتها . عليها أن تبصر العباس وتقصّ عليه مـا يحتمل طبعه الغيور من حكايات عمه. أمسى في قبضتها السيد المنشور البنود

وأبصرت العباس في دار أبيها على تأفف وحرد . لماذا يلحّ أبو إسحق في دعوتها اليه ؟ ... ونظر اليها ابن المأمون نظرة ناقمة ، وقد انطبع وجهه بالعبوس . وصاح بها ، وفي سحنته وفي كبده يحتدم الغيظ : ألا أين كنت ؟... هل وقعت في الشرك المنصوب ، وآثرت عليّ الغاصب ؟... لم يبقَ له ، كي يلحو عودي ، إلا أن يفصلك عني . وأراه قد فعل . ولكن العباس لن يسفّ إلى هذه البؤرة من الضنى . فلا أنت ، ولا عمي ، وفي هذا البتّار ما يداوي أسقامكما جميعاً يا ابنة عجيف !

وانقضت يده على سيفه يستلّ نصلته . فدنت منـه نوران ، ووراءها جاريتها ، وهي تقول ببيان مستهين : ألا اتئد في غلوائك . مـا هذا أوان اختراطك الحسام . لقد تأخرت فيه ، وكان عليك ان تنتضيه في طرسوس . وعجّلت الساعة ، وعليك أن تصبر ريثما تحتدم معركة جبال البذّ . عنق عمك أولى بأن تضربه من عنق نوران !

فزعق : سأضرب عنقك وعنقه وقـد تواطأتما عليّ . فما يهيب بك إلى إيوان ابي إسحق وأنت تعلمين مبلغ حقدنا عليـه ؟ ... فهل فتنك وهو يركب مقعد الخلافة ؟... لاقوّضنكما معاً وما فيكما ذو وفاء !
فضحكت من هذا الحنق الطاغي ، واستنبأت : ألا أين كانت هذه الحدة

وأنت في طرسوس ؟... وددت لو أبديتها في حينها . على ان الريح ما تزال مؤاتية. فتعال نتحدث، واغمد شفرتك لليوم المتاح. ان موعدها لقريب!

وتكلمت بثقة الامين المطمئن، وأكرهته على التماسك. فليس له أن يغضب إلا وقد سمع، وعلم، وما للسيف أن يسبق البيان . وقبضت على ذراعه وجرّته الى حجرة في أعماق المنزل، وهي تقول : إفتح أذنيك. ليس للغيرة أن تستحكم منك، وكل ما نحاول في عمك ان نحمله على مصرعه . لقد آمن بي وهو يسمعني أنفث في مسمعه التغرير به . وهل له أن ينازل «بابك» لو لم يكن غبياً أرعن ؟... وكلما أقرّ خطة، وسلك نهجاً، دعاني اليه ليبلغني البشرى، وهو يراني في طليعة أنصاره. وإني لماضية في هدمه حجراً حجراً، وفي تمزيقه إرباً إرباً، كرمى عينيك. فهل تجد في سعيي ما يبعث على الريبة، ويحفز الى الغيرة ؟

وخاطبته ببيان العقل النضيج . فصدّق ولم يصدق . إن في عمه لشراهة ما تغيب عنه، خشي منها على نوران الروعاء . وهتف بادي السخط : أتكونين من قادة الجيش كي يستطلعك رأيك في ما أقرّ ؟... إن له فيك مأرباً آخر . فلماذا التضليل ؟... إذا استطبت مقعد الخلافة، وقد ارتقى إليه عمي دوني، فما لي غير الانتقام لقلبي ولحقي !

وسدد إليها عينين مفترستين. فأوضحت بشدة وقد شعرت بضؤولة سلطانها عليه والغيرة تلهبه: أتخيل إليك، أن من تهواك حتى الموت، وتسعى لرفعك الى أسمى ذروة ، تشيح عنك لاجل خليفة، وأنت عندها أكرم الخلق؟... باعدت في اساءة الظن بي . إذا ما خطر لأبي إسحق أن يسلخني منك، أو أن يصم عفتي بالشين، فلن تجدني غير جثة هامدة دبّ إليها الفناء. فإني لاحرص

منك على نقاوتي ، وحبي !

فجلجل بمستطير الحدة: إذن ما يحفزك اليه بهذه اللجاجة، فلا تنقطع لك عنه حبوة ؟

فأبانت وهي تجاهد في تسكين حنقه المتفجر شظايا : أيخفى عليك الواقع الى المالأة ؟... ولكني أطبخ له السم في الدسم !

فهتف ساخراً بما تدعي : بل هو المتحايل على التغرير بك . فإنه ليفرش لك الطريق الى الفخ نسريناً وقرنفلاً. وسيصطادك . فما يزال شاباً ، وله من ضلاعته، ومن مكانته، ما يغريك به. فليس لامرأة أن تصدّ عن خليفة يسجد في حضرته الارض ومن عليها !

فنبرت بغيظ : ولكني أصدّ لاجلك عن كل خليفة ، وأنت من اهوى، وليس لعيني أن تطمح الى سواك. وما أنكر حنيني الى بهجة الملك ، ولألاء السيادة ، غير أن هيامي بك يذهب بكل شوق يتقد في نفسي الى بهارج الدنيا . ولا اكتم عنك أني أكافح لبلوغ سدة النعمى . على أن بوسعي، لو شئت ، أن أدرك المرجاة بلا كدح وعناء . إلا أن كلفي بك يسوقني الى مجابهة المنايا لاجل سعادتنا معاً . والا فليضمّنا التراب . وربما كان في الفناء الهناء !

وانتشر في لهجتها الصدق المبين . فما تبتغي أن تراوب ، وأن تدين بالغدر . مع أنها لم تكن في مودتها للعباس بن المأمون في هذه المنعة، وما رأت فيه إلا مساعداً لها على الظفر بأملها المجنّح . وكل ما يشوقها أن تمسي زوجة خليفة. غير أن ما اندفعت فيه من سعي، وما حسبته داني القطوف، أهابا بها الى مظاهرة العباس على عمه ، والخلافة تتهادى اليه تجرّر أذيالها .

أما وقد خطت خطوتها ، فلن تنكص عنها ، مع يقينها ان الرغبة بعدت . فوعر طريقها، وصلبت عقدتها.على ان الصعاب لم تروّعها وستناضل لادراك البغية بكل ما يتقد فيها من همة . وإذا لم يكتب لها في جهادها الفوز ، والتوى ساعدها ، فلتمت ، ولها أسوة بمن يطويهم الاخفاق، وينثرهم السيف الطاغي ضحايا رخاصاً . ليقل فيها الناس إنها قضت فدى هواها ، وليصونوا سمعتها عن اللوك والمضغ ، فلا تتطاول عليها الالسن وتعيّرها رثاثة الوفاء

وقضت ببيانها على كل ريبة في صدر ابن المأمون . انها لتناوئه فيا تزدلف . فتبدي المؤانسة لتحسن الابادة . وليس للمعتصم ، وهو المغتصب ، أن يسود . قال العباس، وقد أيقن بوضاءة الدخلة : ولكنك لا تنفكين تزحفين اليه ، كأنه بات لك مزاراً !

فأعلنت بأنفة المتعالي عن الدنايا : إنه ليدعوني اليه فأجيب . وإبنته علية صديقتي ، كما لا ينـدّ عنك . وما أندفع الى قصره إلا وجاريتي تصحبني . وأمثل بين يديه ورفيقتي علية نفسها . وإذا فتنه حسني ، فلن يملك القدرة على استهوائي. وإن هو استعان عليّ بالشدة ، ففي الى الخلاص المهيع الفسيح !

– وماذا يكون منك وقد تجرأ عليك ؟

فجهرت بحزم : سأغالبه . فإذا رجحت كفته سقطت في براثنه جثة هامدة !

– أتختلسين أيامك ؟

فاجابت بقسوة، شعّ منها العزم على الاستبسال في المناهضة : نحن في معركة طحون، لا بد فيها من إراقة الدم كي تنجلي عن الظفر بالامنية.ولن

تسقط في النزال ضحية ، ولا ضحيتـان ، بل عشرات الضحايا . وأنا، وقد حبكت عرى المكيدة، لا عليّ إذا هويت في المعمعة، على أن تنتصر وتسمو. روحي فداك من سيد أثير . وجلّ مرادي ان تجيد انتهـاز السانحة . فلا تفوتك ، كالأمس ، ويذهب دمي بخساً !

وأبدت من المضاء والأريحية ما جنح بالعباس الى الوقوف ازاءها ساهياً، مشدوهاً . أتسخو عليه بنداوة عمرها ؟... إنها لعطية مـا كان يرقبها ابن المأمون، وهو من نزع الى افناء نفسه كي يعلو بنوران الى القمة. فاذا بابنة عجيف تبزّه في المكرمة، ولا يضيمها أن تكون الضحية

وسكت سكوت المعجب، المكبر النبل الوزين. وشعر بأنه ظلم نوران في سوء ظنه بها . بل أيقن أنه حيالها نفاثة يغلّفهـا التراب . فخجل بما يرشقها به من فرية وغمغم: إنك لتسبقينني في شوط السماح يا نوران. وليس لي أن أجاريك في الطفرة. بل أراني مكرهاً على الاستنامة اليك في ما تدبرين وتوطدين . فكوني في مساعيك حرّة . تسلمت قيادنا فانطلقي بنا الى حيث تدفعك بصيرتك النيّرة. وما نحن، بين يديك، غير عبدان مطاويع . ملكت فاحكمي !

فتنهدت وأذاعت قولتها : لاجلك كل ما أبذل من نفسي . فإما العلى، وإما الموت !

فهتف بحماسة المؤمن بالفوز : بل العلى يا نوران . فالحق لا يموت !

وتعانقا . وأحس ، وهو يضمّ شعلة الحسن الى صدره، بأن الكون في نوران . إلا أن هذا الكون بحاجة الى قاعـدة يتألق عنها سناه . والقاعدة أريكة الخلافة. وللارتقاء اليها سيفني ابن المأمون وكده. فمن حق هذه الصادقة

المغامرة ، الفاتنة الرواء ، أن تتسلق رواسي المجد حتى منتهاها . وليس لها ، وهي ترتع في جلال الفداء ، أن تكبو في النهج على وعورته ، وأن تغلق دونها أبواب الأمل الاريض . ولمثلهـا يفسح العز سويداءه ، ويمشي اليها النعيم معتذراً عن الابطاء

٨

كره المعتصم بغداد، ومن فيها، وما زالت تناوئه، وتتألب على جنوده الأتراك فتوسعهم ضرباً كلما استهانوا بها. وتسفك دمهم وقد اصابوها باحد ابنائها . وصمم على هجرها امتهاناً لها، وسعياً للحط من مكانتها، وهي لا تساندهِ في مطمع ، ولا ترنو اليه باكبار . فمضى يبحث في الارض عن بقعة تصلح قاعدة لدولته الطالعة ، وتغنيه عن الزوراء

وانتهى الى نهر القاطول . وقد شقّـه ابوه الرشيد من دجلة الى « سامرّا » . فشيد على ضفافه قصراً نزله وحاشيته وجنده . فلحق به الناس. وخلت بغداد من معظم سكانها . وخيّم عليها الجمود فشعرت بنقمة المعتصم تدكّ عاليها ، وتصوّح زاهرها

على أن البرد نال من أبي إسحق: فتوغل في الرحاب ينشد مكاناً يثوي به على دفء. وقاده سعيه الى « سامرّا » نفسها. فراقه منظرها. واستطاب هواءها . فبات فيها ثلاثاً يصطاد في أكنافها. وشعر بنقاوة جوها. فاشترى ديراً شيده فيها الرهبان. وأنشأ في المكان صرحاً منيفاً. ولفرط سروره بالقرار فيها ، حرّف اسمها ، فاضحى « سُرّ من رأى »

وكل ما فيها يسرّ . من صفاء الافق ، الى خصب التربة ، فعذوبة الماء ، فطيب الثمر. وانتشر القوم في المدينة الحديثة البناء، وقد التفت اليها الرشيد قبل المعتصم . وازدادت بغداد وحشة، وكآبة، كأنها القفر على كل عمران فيها ، وكأن دورها المزخرفة ، الانيقة ، رسوم واطلال

وما كان المعتصم، يهنأ بزمنه، إلا وقد نادمه علي بن الجنيد الاسكافي .وهو

من خفة الروح على وفرة ، ومن حدة الذهن على قدر . فيضاحك ابا إسحق حتى لا يكاد الخليفة يطيق . وما كانت ممازحته لتلتزم حرمة المقام ولم تتهيب الوقار، ولا الجلالة . فيطلقها ابن الجنيد تنوء باوبارها، لا تحتشم. فيقهقه لها المعتصم حتى يوشك ان يسوخ في مقعده ويصيح: ويك يا غلام، الارض، الساعة اموت!

وعلي بن الجنيد تأثر المعتصم الى سرّ من رأى، يملأ نفسه أنساً، وصدره انشراحاً . غير أن أنباء جبال البدّ ما كانت تحمل إلى الخليفة ما تنبسط به دعته، وطمأنينته، وبابك الخرّميّ ينزل بجيوش امير المؤمنين أقسى ضروب القهر ، والضيم

ولم يحتمل أبو إسحق هذا البلاء كله. فهتف بمن حوله، وفي كبده الوهلة، وفي عينه الذل والحقد : أأعجز عن إبن الفاعلة، ويملك اللقيط الامر في دولتي؟

وعزّ عليه أن يهون. وأكل قلبه الحنق. وما كان ليقوى، لشدة قلقه، على الاستقرار بمجلسه، وما أن يقعد حتى ينهض . وما ان ينهض حتى يهيم على وجهه . فلا يدري أنى يسير . ويدفع الكتيبة تلو الكتيبة من الجند . ويرقب أن يحمل اليه الحمام الزاجل ما يشفيه من خيبته ، وخشيته . ويصرخ من مهجة مرضوضة ، وقد ماد يأساً : ألا اين أولئك الأشداء من رجالي ، أيغلبهم على أمرهم دعيّ زنديق؟

ونادى اليه الافشين من كبد الجبهة يستخبره الخبر، زاعقاً : ألا ما بكم ، لامهاتكم الويلات ، أتعجزون عن نغل نذل ؟

فاجاب الافشين، وقد بدا فيه الجزع : إنه لنغل نذل يا أمير المؤمنين. بيد أن في حوزته عشرين الف فارس، عدا الرجالة . وهو الدليل على منعة جانبه ، وعلى كون منازلته ليست بالهينة اليسيرة . فلقد رميته بعشر كتائب

فردّها . فانجدتها بمثلها فكسرها جميعاً . فقذفته باربعين كتيبة صمدت اليه برماحها، وفرسانها، فنثرها في الاغوار كحفنة من رغام . وما استطعت حيال استنساره إلا أن أخفف من غلوائي، حرصاً على الارواح. علينا ان نستبقي بعضنا ليوم أنور وجهاً ، يا امير المؤمنين !

فزمجر المعتصم وقد دارت به الارض : أيكون اللئيم بهذه المكنة ؟... ولكني وسّقته بك ، وبعجيف ، وباشناس ، وببغا ، وبايتاخ. وانتم اكرم قادتي عليّ !

فزفر الافشين وأعلن: وهل نسي أمير المؤمنين، أن أخاه المأمون، أقام على مناوأة الناشز ثماني عشرة سنة ، دون أن يلوي جماحه ؟... هذه وثبتنا الاولى عليه، وإذا لم نفلح فيها، فلن ننام عن أخوات لها حتى ينجلي الزمن عن الارب. لن ينتكس لنا سلاح، ولن نكفّ عن قتال، إلا وقد جعلنا من صدر الطاغية العنيد غمداً لشفارنا !

غير أن المعتصم لم يملك الايمان بما يسقط اليه، وكل ما في الجو يرّوعه. أيتم له أن يسحق من وقف دونه المأمون كليلا ، عياً ؟... ونبر وهو يلهث : إذا لم تنجع فيه أسنتكم، يا أبا الحسن، فدعني انطلق اليه برمحي وفيصلي. فما رفعني عنكم مقعد الخلافة وما أزال لسهمي وحسامي . أبو إسحق جنديّ يهوى السنان، قبل أن يربع بالعرش . ثكلته امه، سأقتحم مأواه بنفسي . وأشكّ نصلتي في قلبه . ولا بأس أن ألقى مصرعي إذا خانني جدّي . فالموت في منازلة المنايا خيرٌ من التنعم بالمقعد الوثير !

فأبدى الافشين بشدة الواثق بالنصر ، المعتزّ بالقدرة : لن نكلف امير المؤمنين هذه المشقة ونحن نكفيه عنفها . فسنحمل اليه « بابك » عبداً

مهيناً ليصفعه بنعليه ويعتليه مطية ذلولاً !

فنفخ نفخة كاد يذهب لها ضرم لفرط ما تتوهج به من حرقة . وصاح : ألا كم أسمعتموني من هذه الاقوال المتأرجة بعرف الطمأنينة ، يا ابا الحسن ، وما لقيت لها ظلاً من جد . فكأنكم تهزلون وتداهنون . إذا لم يتفق لكم أن تنزعوا من صدري تلك الحربة المسنونة ، وقد أوشكت ان تستنزف دمي ، فدعوني أنتزعها بنفسي . ومـا أنا بالعاجز الحسير !

فهتف الافشين ، خيذر بن كاوس ، يوضح عزمه على المناجزة المستأصلة : لا أرى دافعاً الى المتعبة يا أمير المؤمنين . جندك يدرأ عنك مؤونة السعي . فلن نطيل لبابك مدى الاستئساد . ان يكن ينازلنا بمئة الف مقاتل ، فلن يعيينا أن نقتحم أسواره بمئتي ألف . وإن يكن يجد نفسه ، وهو يتحصن في جبال البذ ، في منيع الحمى ، فان لنا من جوانحنا ومن استرشادنا بهديك ، ما يبيت به الطود منبطحاً . ستزلزل الارض بالوقح اللص !

فما زال يسيء الظن بما ينشر عليه الافشين من دميث المقال ، وقد هاله ان تطول المنافرة . فتنقضي عليها السنون الفساح ولا تطفىء أوارها . وربما تفاقم سعيرها . فيزحف بابك الى بغـداد ويثل عرش العرب . وشكّ في الافشين الواقف بين يديه . ألا يكون ، هذا العريض الألواح ، المتظاهر بالنصرة ، ممن يكيدون للدولة العربية ، ويرومون محوها ، ليبنوا على أنقاضها دولة الاكاسرة ؟

وارتاب بكل فارسي . وما استثنى نوران بنت عجيف . وقد تكون عوناً لبني قومها عليه . والا فما يهيب بها الى الممانعة في المواصلة ؟... ألا تحتال عليه بالوعود الكواذب ، كي تقف على أسراره ، وتهبه لقمة سائغة للعباس

ابن أخيه ، بل للفرس المتكارهين على طاعته، وكلهم يشحذ أنيابه لقضمه وابتلاعه ؟

ومن هو العباس، ابن أخيه، غير ألعوبة بين أيدي هؤلاء الفرس المناكيد، الطامعين في نشر العز المدفون ؟... انه ليحتقر هذا الفتى الضعيف الرأي، الكابي الزند ، وليس للدولة العربية ان تتوطد وهو يسوسها . فاذا ما جنح الفرس الى تأييده ، فما يؤيدونه لسوى الخلاص من عمه ، ثم ينقلبون عليه . فان غفلته لتشفع فيه لديهم. ومن الغبن، ان تقبض اليد الرخوة ، على أعنّة دولة تحتاج الى ساعد من حديد يضطلع بها . وعالن أبو اسحق نفسه بقوله: اذا طاب لابن أخي أن ينصب لي الفخاخ، وأن يتواطأ وأعدائي عليّ، فليلمس عنقه . اني لأبصر نصلي تبتّ كل فاصل بين كتفيه !

وجبه الافشين بما يكوي ضميره. فقال بما تعوّد من فظاظة في البيان : ألا صارحني بموقفكم مني يا أبا الحسن. أتخلصون لأبي أسحق العربي في منازلة فارسي ينتمي اليكم في العرق، وربما في المنزع؟... لا أراكم تقسون عليه في المناوأة، كأنكم تتعمدون تخويفي به . أريد أن أستجلي ميلكم اليّ . أخصومٌ أم أتباع ؟

فذكر القائد الفارسي ما انتاب أبا مسلم الخراساني من أذى المنصور . ناداه اليه أبو جعفر بطافح المودّة ليحتزّ رأسه . وخشي الافشين أن يصيبه ما أصاب سلفه الفارسي المرفوع الهامة من ملمة. فيذهب طعماً زريّاً للسيف الأعمى. وما كان منه، ليخفي ما يتقد فيه من اضطغان على المعتصم، الا أن خرّ في الأرض يقبلها في حضرة أمير المؤمنين . وأبان بصوت مرتعد ينفي عنه ظنة الغدر، صائحاً : معاذ الله ان أكون من فئة الكفرة، الفجرة، يا أمير

المؤمنين . فان من تغمدته بعطفك ليؤثر أن يأكله التراب على أن يجنح عن طاعتك . ألا دحرج هامتي عن منكبيّ اذا بدا لك مني أني ذلك اللاعب بالنار ، الخؤون !

ورام ان يتغلغل في أعماق نفس الخليفة . هل وقف المعتصم على ما يحاك في ليل ؟... فزعق أبو اسحق : لا تحبّب اليّ تخضيب سيفي بدمك يا أبا الحسن . فاني لأضنّ بك أن تسقط تحت شفرة النقمة . وأودّ أن تعلم أن ليس لهفوة ان تستمتع بعفوي . فاذا تبينت فيك الرجرجة ، فلن تسلم من ماحق العقاب . هذا السيف لم يتقلده عفواً المعتصم بالله !

فخلع قلب الأفشين بما صال فيه من جبروت . واضطر القائد الفارسي الى تكرار نفي التهمة . فلن يكون خافراً للذمم ، وقد نشأ في خير العباسيين ، وأدرك الجاه تحت بنودهم . ان هو الا ريشة في خوافيهم تلتمس الدفء كي تعيش ، والا ماتت وقد تعرضت للعراء . وما له أن ينكر من أطعمه وسقاه ، ورفع من شأنه ، وزوده العز ، وفي صدره للجميل حميّ المثوى . فقال المعتصم : اذن لا ترجع الى «سر من رأى» الا وقد حملت اليّ رأسه . ابقَ هناك حتى تجتثّ أرومته ، أو تموت !

فعاهد على الامتثال معلناً : وهو ما يذيع أمير المؤمنين . لن أعود الا ورأس الغادر في يميني ، والا فليبتلعني الفناء !

فقال المعتصم وما زال أجشّ الصوت ، مضطرم الجذوة : أريد الايمان بصدق ما تجاهرني به ، يا أبا الحسن . ويروقني أن تعلم أني بالمرصاد . انطلق الى اخوانك وادفعهم الى النصر ، وأنت في هذه الدولة ركن ركين ، وقد بلغت من سؤددها ما أدناك مني ، فأضحيت لصيقي . جاهد في اغاثتها من

الكروب وستظل فيها ذلك الوجه الكريم ، المهيب . فالمعتصم برجاله أكثر منه بنفسه . ويبهجه أن ينهج هؤلاء الرجال حياله نهج الصدق والأمانة . أنا في خدمتكم ، ولا أراني طاغياً عليكم . فكونوا في خدمة الدولة وشاطروني أبهة المجد !

فأجاب خيذر بن كاوس ، وقد أطربه أن تخفى المكيدة المدبرة على المعتصم : ليوقن أمير المؤمنين أني في طاعته حتى الأمد الأرحب . فان لم أحمل اليه رأس الزنديق ، فما أنا الافشين . وهبنا لهذه الدولة أعمارنا ، ولن ننكل عن الهبة حتى وقد أمسينا هباء !

فانتشرت في أسارير أبي اسحق هناءة الرضى . ليس من الدهاء ان يحرج الافشين ، فيخرجه ، وهو بحاجة الى عضده في مجالدة المارق المستعصي . قال يلاينه بعد خشونة التعنيف : وهو ما أتوق الى لمسه فيكم يا أبا الحسن . وليس من المروءة أن تنهار دولة تعبتم في رفع مداميكها . فإن ما شيدتموه لا يزال يدعوكم إلى البذل في صون أركانه من التداعي . وإذا بدا لكم ، إن على المعتصم ، ان يثب في مقدمتكم على أعشاش البطل ، فيكتسحها ، فلن تمسك به قدم عن الانقضاض على الغدر يطيحه ، ويزيله عن مستقره . فالعروق ما تزال ، والحمد لله ، سليمة من التراخي . وأنا قويّ بكم ، صلبٌ على النوائب وانتم حولي ، صؤول على الاحداث !

فما انفك الأفشين يدعوه إلى التنائي عن القحمة ، وله من جيشه قوة تقيه مؤونة الشدة . قال القائد الفارسي : إن روحك لترفرف علينا وتدرأ عنا الجبن والكبوة . وليس لبغية ينشرها أبو إسحق أن تنبو عن الغاية ، وتتقهقر عن التمام !

فانتفخ المعتصم زهواً وقال : يطيب لي أن ترسخ ثقتي في مطارحها يا أبا الحسن. ألا اسرع إلى جيوشي وابلغها سلام أمير المؤمنين ، وانطلق بها في محجة الغلبة . فاهدموا ، وأبيدوا ، وسودوا !

فانحنى الافشين حتى كاد جبينه يلتصق بالارض . وخرج وهو لا يبرح على انحنائه كأن السلاسل مشدودة في عنقه . وما غادر « سرّ من رأى » ، بل اقام فيها ليلته كي يمتطي الصبح الى جبال البذّ . وفي « سرّ من رأى » نوران بنت عجيف . ولا مذهب عن ذات النورين تضيء ايام أمير المؤمنين وترفّه عنه. فليس يقوى أبو إسحق على احتمال تكاليف الخذلان، وما تنفحه رياح فارس بنبأ يوقن به أن الداء سيُحسم ، وأن بقاء الدمّل لن يطول في الجسم الحيّ

وهو نفسه دعا نوران الى الثواء بجانبه، وليس له عن الاستصباح بروعتها وبرأيها محيد . فكان يصغي اليها في ما تبدي من مشورة.وأباح لها بابه لتؤنسه في كمدته . فهي وعلي بن الجنيد بلسم الجرح الكاوي ، وطيب القلب الحزين

أما العباس ففي كبد المعمعة، يفتح صدره لنصال بابك الخرّميّ المسنونة. وقد دفعه أبو إسحق الى جبهة القتال يناوىء فيها المجوسي الثائر . وما يروم المعتصم إلا الخلاص من الخصمين معاً. فيذهب بابن أخيه وبعدوّه ، ويخلو له الجو من الناقمين ذوي الخطر . وإذا بقي هناك ، بعض الصعاليك المنادين بالعصيان، فإن حسامه لكفيل بفلق هاماتهم ، وهم أهون عليه من شعرة في ساعده ، وقلامة من ظفره

ولقد دبر الامر كما شاءت منازعه . وسيستوسق له الغد وهناً بالعيش

النصيع ، وبالهوى السمين . فلا يصدمه من يقلق السكينة،ويجتذب نوران ، وقد اضحت لديه إبنة عجيف بن عنبسة أغلى الاماني ، كأنها إحدى دعائم الخلافة . ولو ظفر ببابك دونها ، لازدرى النصر المقبل اليه عاطلا من متعة العين والجنان

ونوران وعدت بان تبيح له زمامها إن هو أنقذها من العباس ، وما تزال موثقة بعهدها . غير أنهـا دعت أباها الى اليقظة ، فيحمي ابن المأمون من فتكات عمه الحواسم . قالت : مـا قدّمه الا ليعرّضه للضربات المستأصلة . وقد يدفع اليه من يغتاله . فابسط عليه ظلك . هو بين نارين ، فادرأ عنـه الكارثة المتوعدة !

وما كادت تبصر الافشين يتوسط منزلها حتى هفت اليه هاتفة بمسرة طاغية : يا لوجه الخير ، ماذا عندك ؟

فهي تبتغي الالمام بأنباء القتال ، وقد شاقها فوز الخرّمي وتقهقر قوات المعتصم . على أن منظر ابي الحسن أمسك بهـا عن المضي في الفرحة ، وقد حدق اليها الافشين بعين خشيا ، وخاطبها بشديد الحذر . قال وهو يلتفت الى ما حوله بارتعاش : هل لي أن أفضي اليك بسرّي يا نوران؟...في صدري من الأشجان ما تكاد تهي بـه ضلوعي . ومن الضرورة أن تعلمي يا ابنة عجيف !

فارتبكت وقد هالها ما يذيع فيها . والتفتت اليه بعينـين مستديرتين ، جاحظتين لفرط الوجل . وقالت وهي تمشي أمامـه الى المخبإ الحريز : ألا تعال ايها السيد الاصيد !

وقادته الى حجرة متغلغلة في اطراف الدار . ووقفت في كبد المكان

وقد أقفلت وراء الافشين الباب، ولاحت في وجهها الوهلة. وقالت بصوت تكويه الرعدة: هل من كارثة يا خيذر ؟

فأبان بما لا يعدو الهمس: أرى المعتصم يحترس منـا. فدعاني اليه من صميم الميدان ليشكو اليّ قعودنا عن الغلبة، كأنه درى بما نحاول فيه من مخاتلة. ولقد مثلت بين يديه أحاذر في كل ثانية أن يجتث السيف عنقي. فهل من كلمة عاثرة أسقطتِ بها يا نوران ؟

فهتفت تنكر الفرية: أتواني تلك الغرّة يا أبا الحسن ؟... والله، ليس من السهل أن أغفل عن أمري. وما للمعتصم، ولا لمن يرجحه دهاء، ان يقف على سري. فما كانت نوران بالغادرة، ولا الحمقاء، كي تفضح نفسها، وهي من تحرّض على الغاصب، وتماكره لتجيد تقويضه. فماذا بدا لك من مظهره، فدعاك الى الريب ؟

فأعلن وما زال على رهبة: دعاني اليه دون سواي من القادة وتهددني. ولمست الموت بيدي، فهويت على الارض أقبلها، وأذيع خضوعي. وتمثلت فيه أبا جعفر المنصور، جد ابيـه، فيما يناقش أبا مسلم الحساب ويطيحه. ولكأني طُويت ونُشرت، وقد برحت القصر طليق الانفاس. فلماذا اختارني وحدي ممن يتولون أمر الجيوش، وخاطبني بتلك الخشونة، وما تزال تنتفض لها عظامي ؟

وأبصرته نوران يرتجف على ضلاعتـه وبأسه. وأدركت من أساريره ونظراته مبلغ ما يستطير له لبه فزعاً. فقالت تطيّب روعه: على رسلك. كل ما نظمنا من المواحي لا يزال خافياً عليه. وإذا مـا نفذ الى صلب المكيدة، فسأوهمه أنه طاش عن الواقع. فلست هنا لسوى تضليله. وما

دعاك اليه، وتوعدك، إلا ليشحذ من همتك، ويزيد في مضائك . فما أُصيبت به جيوشه من هزيمة أقلق كبده . وهو يعرفك مالك عنان الجيش، والكميّ المقدام المعوّل عليه في النوائب . فناداك كي تنقذه من الدهمة . ولو تجلى له أمرك، لاخترط حسامه، ولنهج فيك نهج ابي جعفر في صاحبنا الهمام أبي مسلم، لا يحيد عن مذهب جد ابيه في من تتقلقل فيه ثقته. فاتئد في هواجسك!

ودعته إلى الجلوس . وجاءته بما يرطب به لهبته، ويزيل عنه الكمدة . قال وقد اطمأن: لم أكن دون الخرّميّ شدة وصلابة . ولو شئت لزحزحته عن معاقله . إلا أني أبيت الخروج على ما جمعنا عليه امرنا . فابحث للناشز أن يرجحنا . ولكني أخشى، اذا ما أطلت التراخي، ان يشعر المعتصم بفساد النية، فنجني على أنفسنا . فلا بد من فورة نهزّ بها الثائر في معاصمه . غير أني لن أسفك دمه، وحقك يا ابنة عجيف، إلا أني أضن بدمي أن يراق عقاباً على خيبة . فما أبرح ممسكاً بنفسي عن الهوان، ولي في المكارم قدم وطيدة . ولست أطيق أن يقال في الافشين إنه قُبض عليه في شائنة . فإذا ما سعينا لتدمير الغاصب، فما نقوم بعصيان، والعصيان في من شذّ عن الصراط واعتسف، بل ننتصر للحق الابلج، ولا حرج . ومن الفطنة اللباب أن نحرص على الكتمان حتى الموعد المؤاتي . سأقهر بابك كي يؤمن المعتصم بأني لا أخادع . إلا أني سأمهد له إلى الفرار بما يبقي عليه، ويدنيه من بغداد . ولن أواثبه وقد احتلّ الزوراء، وحاصر أبا إسحق في ملجإه الحصين . فلن أعيد عليه الكرة، إلا وقد حذف المعتصم، وساد . وحينذاك يحلّ لي دمه . فالحياة خدعة يا نوران!

قالت وكل ما يحدثها به مما تواضعوا عليه : لسنا نجترىء عليك في رأي

يا ابا الحسن . على أن تسرع في التمهيد إلى الطلبة . وستراني أدعو جميع الأقوام إلى الشغب . فدفعتُ إلى محمد بن قاسم العلوي من يهيّجه على المعتصم، منادياً لنفسه بالامامة . وأطلقت إلى الزطّ من يعيدهم إلى اضرام الفتنة . وعليك بصديقك « المازيار »، صاحب جبال طبرستان. فأوغر صدره على من استحلّ الحرام . فما ندرك المرتجى، إلا وقد اشتعلت جميع هذه الربوع ، نفرة من أبي إسحق !

فاستطال إعجابه بها، وقال : أحسنت سعياً وهدى يا ابنة عجيف . سأوفد إلى المازيار بن مازن من يجنح به إلى التغاضي عن بابك ، إذا ما فزع الى جنباته . بل سانزع به الى مساندته إن هو لمس فيه القدرة ، وقد كفانا ما عانينا من عنجهية العرب . فالوجه الفارسي العريق باتت تحنّ اليه الأرواح !

فخافت على العباس من هذه الصيحة الهاتكة، ونبرت : ألا رفقاً بالعباس !

فابتسم وقال : لا عليكِ . فمن هو العباس غير فسيلة منا ، إذا ما علا علونا ؟ ... إنه عربي الوجه ، ولكنه فارسي القلب . وسيفضي الامر الينا وقد ولي وساد . إلا أني أودّ أن أراه آخر من يقبض على ناصية الخلافة من هؤلاء الاجلاف ، وإن يكن في هذا البيان الجهير ما لا تطمئنين اليه يا ابنة عجيف !

فغصّت بريقها وفي خطاب الافشين ما يؤلم فيها المطمع ، وقد تشوّفت الى الخلافة في بعلها ، وفي من سوف تنجب له من البنين . على أن المنشود بلوغ السدة ، وبعد ذاك تقال الكلمة الفصل في لون الامامة وأقطابها . وأبى على نوران دهاؤها أن تخوض البحث في ما لا يزال جنيناً في رحم الغيب ، والأمور مرهونة بأوقاتها . واستطاعت أن توافق الأفشين على مأربه بقولها :

هذه النار المشتعلة في جبال البذّ علينا ان نضرمها في كل ناحية، والغلبة لنا . فإذا ما اندلعت الفتنة ، في الدولة بأسرها، رحم الله المعتصم. ولقد تعبّست له بغداد ونفضته منها . وهو نفسه بات يحس بأنه غريب عن جميع من حوله، فيستمسك بالاتراك !

فهز الافشين برأسه وقال : إنه ليستمسك بعود نخِر يا نوران . فما الاتراك غير رهط ضئيل لا ترتفع له هامة . واننا لنبصرهم في الصفوف ينهدون الى الغلبة، ولا يسعفهم وكدهم في التفوّق، وليسوا على وفرة . قد يصبح لهم شأن اذا ما تكاثروا .غير أننا لن نبيح لهم ان يفوروا في أرضنا، وهذه الديار تتبرم بالغريب. فإذا ما رحبت بالضيف، فإنها لتتناكر الدخيل !

قالت بجزع : إني لأخاف منهم على العباس، يا أبا الحسن . فما ساقه عنه إلى الميدان إلا لينجو منه . وأراه يربص به . وما يدريك أنه لم يهدر دمه، وقد اباحه لشيعته الاتراك، وهو يحقد عليه في شهوتين . فأرمد عينه ان يحجزني ابن اخيه عنه ، وان يلمس في العباس الخصم المخوف في السدة . فأنى اتجه لقي القوم على جفوة منه ، وعلى نصرة للعباس ، وقد غاظ الجميع أن ينكسف العدل ، وان يسود الزور !

فتعجب مما تلقي اليه، واستفهم بامتعاض المدهوش : وهل حدثك المعتصم عن شغفه بك يا نوران ؟

فتولتها الكآبة، ولم تكن ترغب في إعلان سرها، وقد كتمته عن الجميع، حتى عن امها وابيها . وأطرقت بخجل . وغمغمت دون ان تجرؤ على رفع باصرتيها إلى الافشين : أنت أول من يلمّ بالخافية يا أبا الحسن. فما أطلعت أبي، ولا أمي، ولا العباس، على ما دهاني من كلف المعتصم بي . وإني من هذا

الهيام لعلى ألم وأمل . فأجد فيه غضاضة على ولوعي بابن المأمون ، ويتجلى لي فيه المهيع الامين الى تسيير ابي إسحق في خدمة مقاصدنا . فأزيّن له الانقضاض على شانئيه كي أهدم فيه العزمات،وأبيحه لشفار أعدائه مكتوف اليدين . وسأحرض عليه محمداً بن قاسم العلوي . وارميه بجماعة الزطّ فيما يقاتل الخرّمي . فينبو صارمه عن المتألبين عليه. ويهوي في الواقعة مسحوق العضد ، مشدوخ الرأس . فهل أكون عند حسن ظنك بي يا ابن كاوس ، أو تراني أسأت انتهاج الطريق ؟

فهتف يبدي إعجابه بما يعلم من أمرها : ولكني امتدح فيك الهمة يا نوران. فأنت اوفرنا سعياً ، وأدهانا . كما أجلّ فيك ذكاؤك الدفاق. غير اني اخشى ان يجني عليك أبو إسحق، بما لا سبيل فيه إلى دره خطره عنك . فاحذري يا ذات النورين، وليس المعتصم بمن يعفّ عن شعلة الحسن فيك . كوني اقوى منه ساعداً ، وانفذ عيناً !

فأجابت باعتداد: لاعليك.لن يصيب مني لمسة.فاني لاعلّله بالمنى يوم أتحرّر من وثاق العباس ، وهو مما لن يحين له حين . وإذا ما استطابت نفسه القضاء على ابن أخيه، فامنعا، أنت وابي، بادرة السوء.كل ما أطلب اليك أن تقي العباس شر الغيلة، وأنا وإياكم على الغاصب ندوّخه ، ونطرحه للبواتر تهشمه ، ولا تستبقي منه غير نثير من لحم وعظم!

فرهب هذه الجسارة فيها . انها لتتكلم كاغلظ الرجال أكباداً . فتدعو الى الفتك بالخليفة كأنها تتحدث عن ذبح نعجة . فإلى أي فئة من الفئات تنتمي نوران ؟... أمن ذوات الحسن والسحر ، ومستظلات الخدور هي ، أم من ربات المطامع، ومضرمات الفتن؟... إن عينها لتطمح الى أسمى مرتبة ،

ولا تبالي لبلوغها أن تمتطي أوعر مركب، وأن تتوكأ على خصمين متنابذين. وأطال الافشين اليها النظر وهو على حيرة. وساءل نفسه لمن تكون نوران، أللعباس أم للمعتصم ؟... ولمن تخلص منهما، أتصفو للعباس، أم تتلاعب بالاثنين معاً ؟

وذهل الافشين في نظرته الى ابنة عجيف، وارتبك ملياً. ان نوران لتخرجه عن هداه. ففي أي مضطرب من دهاء وغموض يختلج، وقد بات يشكّ حتى في نفسه. أيوالي أبا اسحق، أم ينتصر للعباس، أم يجاري نوران في تقلبها، فيدرج في صعيد متمادي التعاريج، ويترجح فيه على الجانبين؟

٩

هذه الملتفة بطاوي الليل، زاحفة الى بغداد، وقد انسلخت من «سر من رأى»، ليست وحدها في وثبتها الى الزورق الثاوي بالضفاف، ووراءها تجري وليدتها الدالفة الى الصبا الرقراق، والمتظاهرة بالحرص على مولاتها الانيقة، المدللة. واستقرتا معاً بالزورق المبطّن باللبد. وضرب المجذافان منبسط الماء، فزلق القارب على صدر المورّار كأنه لقمة سائغة في مبلع لهيم، او شبح هارب في كبد الدكنة. وسكتت السيدة وخادمتها، وقد احتجبتا في عباءتين قاتمتين، واخفتا ملامحهما عن عين النوتيّ الهزيل، الربعة

ولم يلتفت اليهما الملاّح، وهو المنصرف الى المجذافين يدفع بهما زورقه الى العاصمة المهجورة. وأسعفه التيار، فساقه حثيثاً الى هدفه، حتى كاد يشكو العجلة. وجمعت المرأتان بعضهما الى بعض، كأنهما تمعنان في التخفي، وفي الذوبان في أنفسهما لتؤلفا كتلة واحدة. وبعد وثبة مديدة تكلمت السيدة تخاطب النوتيّ، فقالت بلهجة الهديل الجميل: ألا نزال بعيدين عن بغداد يا صاحبي؟

فرفع اليها رأسه، دون أن يتبين في الظلام أساريرها، وقال: لا نزال بحاجة الى زمن يعادل ما فات كي نبلغ ضواحيها!

قالت: ألا زدتنا سرعة. فأين يرقبنا من دفعك الينا؟

فأوضح: عند بستان النخيل، وبجانبه سنطأ اليابسة!

وعاد السكوت فانتشر. ولم يرتفع للماء خرير، ولا علا في الضفاف نقيق ضفدع، ولا غناء صرصور، كأن الموت ينشر بساطه على هاتيك

الاكتاف الساجية . وبدا الماء أسود اللون تحت وقع الدهمة ، كأن القارب مغلّف من جميع أطرافه بجناح غراب . ووقف بعد مسير شاحط ، خيل به الى المرأتين أن الصبح سيدركهما قبل أن تنتهيا الى المزار المأمول

وانتصبت قامة الملاّح ، ونضنض لسانه بقوله : ها قد وصلنا !

وجنح بالزورق الى الضفة اليمنى ، وما زال يتكلم معلناً : لنقفزْ الى اليابسة . ها هو ذا بستان النخيل !

وليس في بستان النخيل ما يزيد على نخلات ثلاث ، بيد أنها ضخام الجذوع ، متعاليات السيقان ، منبوشات الهام كأنها تمت الى الجنّ بأسباب . وتبينتها المرأتان وقد دنتا منها ، إلا أنهما لم تكترثا لها ، وما جاءتا لمرأى النخيل في الحلكة . وسألت السيدة : وأين القوم ؟

فاجاب الملاّح : هنا ، في مضرب الوبر !

وقادها الى المضرب . وعلى نور سراج ، لا تنجلي به العتمة ، شخص لهذه المقبلة من « سرّ من رأى » على أنفاس تيار دجلة ، أنها تبصر وجوهاً من نحاس ، ولحى وشوارب من فحمة ، وعيوناً من جمر يكسف وميضها ضوء السراج العليل . وتكلمت فقالت : من هو الشيخ ثعبان فيكم ، الشيخ ثعبان سيد الزطّ ؟

فانبرى لها هيكل عتُلّ ، زادته الغبشة غلظة ، وقال وهو يبتسم ابتسامة تقدح بالشرر : أنا هو في طاعة مولاتي !

قالت ولم ترهب : هل صممتم على إضرامها جمراً نهيماً ؟

فاجاب بدمامة تتنكر لهيكله الخشن : الرأي رأي مولاتي . نحن ممن قاوموا المأمون وصدموه زمناً غير يسير . وإذا طوانا فما أبادنا . وإننا

لعلي أهبة لمناكرة المعتصم ، وما تزال تنبض فينا عروق حافدة !

فتناولت صرة من يمين وليدتها قائلة: اليك بما وعدت به رسولك، وقد انساب اليّ في سرّ من رأى. هذه مئة الف درهم،ولكم ثلاثة اضعافها. على أن ترشقوا، في أقرب موعد، أبا إسحق بنصالكم، وتدموا كبده. وما أن يلتوي عن سريره، حتى نفكّ عن أيديكم عقُلها، وتمسوا في البصرة أحراراً. فلا خليفة سوى ابن المأمون !

فأوضح الشيخ ثعبان، وهو يتسلم المال بنفس تتشامخ ابتهاجاً: إن نكن نقمنا على أبيه، ولقينا من عدائه ما لا نزال نكابد فيه المحنة، فاننا لنقرّه دون عمه سيداً، على أن لا يحرج فينا طلاقه المهزة. فلن نشاغب، ولن نخاتل، بل نصبو الى الدعة، قانعين بموارد رزقنا !

ولم تكن تجهل موارد رزقهم، وما يعيشون على سوى النهب والقتل. فهم الزطّ. وما الزطّ غير النوَر المغيرين على القوافل يسلبون نفائسها، ويستأثرون بنوقها ودوابها، ويقتلون رجالها. قالت واهبة المال: ستنطلق أيديكم في شؤونكم، على أن لا تؤذوا الدولة في أمنها وسلطانها. فاتكلوا على مولانا العباس، ولكم المرتجى !

فقال الشيخ ثعبان، وما اخطأ من سمّاه ثعباناً وفي عينيه مكر الافاعي، وفي صوته فحيحها: عاش العباس مولانا، يا ابنة سيدي. وجلّ منانا، وقد ركب مسند الخلافة، أن لا ينسانا. ارتقاؤه الى الامامة، أهون علينا من أن يهدأ في مقعدها عمه الفظّ، الصلف. والله، لن تكوني إلا راضية عنا، وسنعود الى الاقلاق ما دام الجلف في اريكة الصولة. ولن نهادن الا يوم يخرّ على وجهه مخلوعاً، مهشم الالواح، مخضود الفوْدين، كليلاً !

قالت بفضفاض الجذل : حياكم الله أبطالاً أعزّة . ما أن تشعلوا الفتنة حتى اؤدي اليكم مئة الف درهم اخرى ، وبعدها مئة الف . وملتمسي أن تعاهدوني على المناوأة الغلابة، الهاصرة، كأنها شكّ المدى في الترائب والنحور!

فهتف الشيخ ثعبان : خذيها طعنات الأسنة في الضلوع . فلا ننزع، الا لنغمد. ولا نغمد، الا لنستلّ الروح . على أن نستلّها عشرين مرة ، إمعاناً في القهر ، والكيد ، قبل أن تنطفىء جذوة الانفاس !

وصرف باسنانه تشفياً. وأعجبت به المحرّضة على الفتنة، وقالت بصوت ينبض بالمسرة، ويشفّ عن كلف بالتنكيد : عوفيت يا شيخ ثعبان . فما ناديتكم إليّ إلا وأنا على يقين بقدرتكم على المغالبة . كونوا موقنين أنكم لستم وحدكم في القحمة، وبابك أوقدها في جبال البذّ، ومحمد بن قاسم العلوي، ومعظم أنصاره من شيعة علي بن أبي طالب ، سيثيرونها في الكوفة ، وفي خراسان . ولن يطول الزمن حتى تستعر في كل ولاية ، وفي كل منحنى ومنبطح ، حتى لا تنجو من أوارها أوجار الثعالب ، وأكوار الزنابير !

فاستطاب شيخ الزطّ ما تجاهره به من اضطغان على المعتصم، ومن رغبة في تفجير النقمة . أنها للبؤة على لدونة عودها لا ترهب اندلاع النيران ، ولا استكلاب الاسنّة . وما عرض له في بال، وهو يقبل اليها من البصرة، أنها ترتع في هذه الفتوّة المانعة ، وقد حسبها من اولئك العوانس الحاقدات على دهرهن، وقد حرمهن طيبات العمر الطريء، فنفثتها حرباً اكولاً على كل شامخ ، وكل هنيء . بيد ان مظهرها النديّ مال به عن ظنه الغاشم ، وأيقن أن لهذه النافرة من المعتصم ، وقد ركب مقعد الخلافة ، كلفاً بابن المأمون، وإلا فما يدعوها كي تسهل له إلى اعتلاء أريكة الامامة، وتجبه متالف لا

يسلم من شرها غير من صلّت له أمه في ليالي القدر ؟

قال الشيخ ثعبان مجاريها في إعلان كرهه لسيد الدولة : نحن أول من يخوضها. وعلى مولانا العباس أن يحسن اقتطاف ثمرها ، وإلا ذهبت بنا وبه. ليحذر التواني ، ولن تسنح في كل حين النهزة الانوس !

فأبانت نوران باعتزاز فضفاض، شاءت ان تبدي به عزمها الغلاّب، وجرأتها الفائرة: كونوا يداً صادقة في العون،وساخلع عليكم من العوارف ما تنوء به عواتقكم. فليس للغاصب ان يبقى في مسند قلِق لم يوطده الحق،ولا أقرّه العرف. ناديتكم إليّ، ليقيني أنكم تشاطروني غضبتي على من لا يرعى لكم جانباً،وسينزل بكم من ضروب القهر ما يلوي رقابكم، ويذوي أكبادكم . فناصروني عليه، ولننسف فيه خفقة الروح !

فهتف الشيخ ثعبان متحمساً، وقد جحظت عيناه ، واربدّ وجهه ، وكشر عن نواجذه ، وتحرّكت يداه ترسمان وجوه كلماته ، وتزيدان في قوة بيانه: والله ، لتغرزّن أظفاري في قلبه، ولتنزعن مهجته . إتكلي عليّ في خضد شوكته، وقصّ جناحه . إن يكن ذلك الوثيق الركن ، الضليع الساعد،فإننا لنعلوه مكنة واقتداراً .وإذا اتفق له أن يرفع من الوحل بغلاً بحمله، فالفطيم منا يحمل بعيراً هائجاً بقوائمه الاربع.غير انه إبن السادة، ونحن من الاخلاط . ولكن هذا الفاصل القائم بيننا لا يقعد بنا عن محو المسخ !

فابهجها التاع الحفائظ في بصره وبيانه . إنه ليتأجج غلاً . قالت، وقد أبت أن تطيل المقام في المكان الموحش، الغارق في الظلام:حسبي ما سمعت يا شيخ ثعبان . هذه النيات الطيبة تدلني على ما سوف تنتهي اليه عزيمتكم . إضربوا الغاصب في قلبه فتضيء لكم الحياة . فما يسد منافذ النور عليكم

سواه ، فابعدوا عنكم ظله الدميم . إني لعائدة الى « سرّ من رأى » وفي يقيني أن فتنة الزطّ على الابواب . فارحلوا على الفور إلى موئلكم، وانشروا فيه لواء العصيان . ولا تترددوا في الزحف إلى بغداد، واحتلالها ، وقد باتت قفراً لا جند فيها، بعد نزوح المعتصم عنها . فالسبل ممهدة اليها، وكل من فيها عون لكم على مستحل الحرام . بل اشعلوها في البصرة، فتضطرم عفواً في بغداد !

فاعلن الشيخ ثعبان وهو يتأجج حنقاً على المعتصم بالله : نحن من القوم الموتورين . وليس لمولاتي ان تزيد في ايغار صدورنا ، وكلنا يبتغي طعن من رضرض ضلوعنا في مكمن روحه . وسوف تبدين رضاك عنا حين ترينا في كبد اللهيب . فما هي غير أيام قلائل، حتى تستعر البصرة بفتنة جموح، ليست بغداد منها سوى مرحلتها الاولى !

فاستطال فيها مدى الانفاس . إنها لسعيدة وقد وفقت لنبش الحزازات، وستذروها في طريق المعتصم حفراً لا ينتهي البصر إلى اعماقها . وودعت وهي تقول : ما إن تبدأوا حتى تتوالى حلقات الثورة . فتندلع الاحقاد من كل صوب ، ويمسي المعتسف في طوق من لهيم النار !

وابتعدت وهي تبالغ في إحياء الهمم ، وتعد بجزيل العطاء . وعاد بها الزورق إلى سرّ من رأى وقد أدهشها إقدامها على ركوب الليل، ولقاء الزطّ، دون أن تلتفت الى ما يكتنفها من هول في مجازفتها . وانطلق الزورق يطوي دجلة إلى القاطول ونوران في نشوة، وقد نسيت جميع أشجانها، كأنها وثقت بالنصر

واستنشقت بلذة نسمات الليل الطهارى ، الحائمة على مسيل دجلة .

وابتسمت ملياً لفوزها بخطب ود الزطّ، المتنكرين لكل نظام، العائثين بالشعب، الطامعين في اللقمة السهلة يقتنصونها من أفواه الآمنين. وما جهلت أن الزطّ لا يؤمن جانبهم، وأنهم لا يدوّخون وحدهم المعتصم، غير انها لن تكتفي بهم. واذا ما ملك العباس الامر فلن يطلق لهم أمرهم على مدّة أذرعهم، بل سوف يكبلهم بما يأبى عليهم الاستطالة والاقلاق

وارتفعت عيناها الى ما يعدو الضفاف وسطح الماء. فهي ترنو الى السماء المزرّرة بالنجوم، كأنها قينة ناعمة بغلائل البذخ والترف وهائمة بالاسراف. وراقها سكون الليل المبطن بالكتان. فلا عين ترى، ولا لسان ينمّ. وتكشف الافق، عن بسمة الفجر الاملى، لدى بلوغ نوران نهر القاطول. فوثبت ووليدتها الى الضفة اليمنى، ونقدت النوتيّ قبضة من الدراهم، والبشر يتلألأ في محياها. باتت لا تخشى المفاجأة وقد اضحت على أبواب سرّ من رأى. فاذا ما أبصرتها عينٌ واشية افضت بعذرها. شاقها ان تخرج الى الضفاف للقاء الصبح، في الليلة الطيبة الاعراف، ونعمت بماتع بغيتها

وانسابت الى مأواها على رؤوس أصابع رجليها، دون أن تبيح لأي كان في المنزل أن يدري بما كان منها. فما يلمّ بالسر سوى وليدتها، وهي ممن يدينون بالحفاظ. وغرقت في فراشها، ونامت بهناء. ولم تستفق من رقدتها إلا والظهر يحين. فدعت بالطعام وتزيّنت. وإذا بالجارية «نهوند» تقبل في دعوتها الى القصر. عليّة ابنة أمير المؤمنين تصبو الى مرآها بجانبها، الى المائدة. فلبّت نوران ضاحكة من ازورار «نهوند» عنها. وما برحت الجارية الفارسية العجوز تؤمن بكون نوران تغدر بذمة العباس بن المأمون في مسيرها الى المعتصم بالله

قالت تخاطب «نهوند» في طريقهما الى القصر : لا يلوح لي منك يا «نهوند» انك على اغتباط باندفاعي الى سيدتك علية ، فما يقلقك مني ؟... ألا اكون ذات جدارة بدخول صرح أمير المؤمنين ؟

فارتبكت الجارية الفارسية في ما تبدي . أتجاهر إبنة عجيف بن عنبسة بما في نفسها منها ؟... قالت ، وما تعوّدت المصانعة ، غير حافلة بما تقودها اليه صراحتها من متعبة : يقلقني يا نوران أن تتناسي من تعاهدت وإياه على الولاء . فليس في دخولك قصر الخليفة ما يوطد كلفك بالعباس بن المأمون ، وقد لمست في أمير المؤمنين ميلاً اليك . وهو ميلٌ يشتد على الأمد . وقد يؤدي عنه العباس فاحش البدل . فارفقي بالأرواح ، وصوني المودات . فالتلاعب بالقلبين وخيم العاقبة ، أيتها الدمية القسيمة . وكم من فتنة جرّت اليها مليحة ، تنافس في حبها عاشقان !

فضحكت نوران ضحكتها الصافية المرنان ، واستوضحت : أيظهر لك مني يا «نهوند» اني أتلاعب بالقلبين ؟... ولكنك تظلمينني في هذا المعتقد الضالّ . أنا للعباس وعنه لا أحيد . وما مجيئي الى البلاط لسوى مؤانسة عليّة بنت المعتصم ، وهي من صديقاتي المفضّلات . وإذا ما جالست أبا إسحق ، فما جلوسي اليه بالحجة على كوني أسعى لاستمالته اليّ ، ولي من ولوعي بالعباس ما يقعد بي عن اجتذاب حبيب آخر . ولا حبيب لي سواه !

فأبدت «نهوند» بلهجة حافلة بالتحذير : ولكنك تلعبين بالنار دون أن تدري . أرى المعتصم منك على لاعج هوى . فامسكي عن إضرام الصبابات الطائشة ، وما تجني منها غير الويل ، أيتها الريحانة النضرة !

فاكتفت نوران بأن تضحك . بل نزعت الى استكشاف ميول الجارية

الفارسية، فاستطلعتها رأيها في العباس بن المأمون، قائلة لها : أتكونين على إعجاب بالعباس يا نهوند؟... أرى فيك حرصاً عليه، فما يحفزك الى موالاته، هل لقيت من أبيه جنوحاً الى إكرامك ؟

فتنهدت الجارية الفارسية، واعلنت بقصيّ التأثر : والله، ليس للفضل أن يكافأ بالجحود يا نوران . فما كان المأمون غير عين رحوم تحدجني بمستفيض الرضى. ومنذ نشأ العباس، وأنا أحبو اليه . فأضمه بين ذراعيّ، وأقضي أيامي في التوفر على الاعتناء به . وإذا ما صرت الى عمه، فما نسيته. ويمضّني أن يصفي من كل رفاهة وسعد . فتنأى عنه الخلافة، وتتعبّس له نوران !

فأكبرت ابنة عُجيف في الجارية الفارسية هذا الاخلاص الصدوق. وقالت بابتسامة يشيع فيها الاطمئنان : لا تسترسلي الى الشجن يا نهوند . فلن ينطفىء في صدري الى العباس حنين، وانا المقيمة على عهده حتى منصرم الآجال. وليس للمعتصم، ولا لسواه، أمل بنزوعي اليه . فإما العباس بن المأمون، وإما الاحتجاب في حفرة الموت . فالدمع ليست وشياً على الرمل يطمسه اعصار !

فهتفت لها «نهوند» اعجاباً . ولكن هل تصدق في قولتها؟... إن تكن صادقة فيها، فأي قدم تجري بها الى قصر المعتصم بالله ؟... وما زالت نهوند من أمر نوران على حيرة، أشبه بالافشين، وما كان يبدو لها لون. وابصرتها الجارية تدخل صرح الخليفة بمستطير الفرحة ، فازدادت ريبتها . فليس لمن تدخل القصر بهذا المرح الممراع أن تدعي خلوّها من أمير المؤمنين . وعادت نهوند الى لعن النساء ، ولسن يقمن على امانة . وتوارت وهي تبربر وترمي نوران بكل قبيح

وما درت عليّة أن نوران أقبلت ، حتى أسرعت اليها تعانقها. وإنها لمكرهة

على هذا اللقاء البشوش وأبوها دعاها اليه . فالصداقة، المعقودة بين الفتاتين ، فترت لهبتها في صدر إبنة المعتصم، بعدما أيقنت عليّة أن أباها أمسى على افتتان بابنة عجيف . ولكنها مجبرة على إخفاء جفوتها ، لارضاء هذا الاب الولهان، وليس يخفى عليها مبلغ غبطه وقد احتدم واستشاط

وتحدثتا مجتهدتين في إخفاء نياتهما ببراقع صفيقة . وبدا المعتصم يرحب بنوران ويصافحها . فانحنت بين يديه وهي تقول ببسمة يموج فيها الولاء الكميل : أرجو أن يكون أمير المؤمنين على مسرة، وقد وردت عليه من ساحة القتال أنباء يصفو لها الضمير !

فأوجعه أن يفكر في ساحة القتال وما فيها ما ينعش الامل المرضوض . وبدا في وجهه الامتعاض، وما درى بما يجيب نوران . فهو ما دعاها اليه إلا لينفي همه، ويسرّي عن قلبه المعنّى . قال بتأثر : أحرجني بابك يا نوران . غير اني لن انثني عنه الا وقد نفدت قواي، وكتبت له الغلبة الصادعة . عندذاك يمسك المعتصم بالله عن مناهضة الجلف . بيد أنها ساعة لست أراها دانية، وفي الميدان أبوك، والافشين، وأشناس . وإذا تراجعنا اليوم فسوف ننتصر غداً ، والايام علمتنا فضيلة الصبر !

فاعلنت بمنطق جيّاش بالدعاء: نصرك الله على أعدائك يا امير المؤمنين . فما بابك الخرّمي غير نذل يحاول أن يكون كريماً، وليس فيه مطرح لنبل السريرة. إنه للشيطان في هيكل انسان، خزاه الله . على أن سيفك الصقيل كفيل ببتر عنقه ، عبرة لكل متمرد على الوفاء ، والسماح !

فأجاب وفي حنجرته هبوب من فحيح : والله يا نوران ، لانطلقنّ بنفسي الى قضقضة أضالع الفاسق، الزنيم، إذا كلّ عنه رجالي . فإني لمنتظر

الآن.على أن هذا الانتظار سأملّه، وأخرج عنه إذا طال، ولم ينصفني قادتي من المخرق الغاوي. فالمعتصم لا يتقهقر عن جبال البذّ يجذفها من المطمئن!

قالت تدعوه إلى الامساك عن الفورة: ليخفّف عنه أمير المؤمنين. فلن نكلفه اقتحام تلك الرواسي، وستسبق اليها النساء الرجال لتفتيت صخورها، وهدّ شوامخها. كلنا فدى الخليفة الموموق!

فهز برأسه جزعاً وقال: يميناً، لم يبق لي ما ابتهج به. فان نفسي لحزينة كأن الموت يحوم عليها، ويوشك أن يقبضها. وما دعوناك الينا لسوى طمعنا في أنسك، فبددي عنا الكروب بما فطرت عليه من بهجة قلب، وخفة روح!

قالت تتظاهر بالولاء المكين: إني لأقف ايامي على إنعاش الغبطة بين حوانيك يا أمير المؤمنين. فما كانت خادمتك، وابنة خادمك، نوران بنت عجيف، لتتنكب عن بذل دمها في رضاك. وإذا صدق حدسي فإني لأرى تشاؤمك ينبو عن موضعه. أبي والأفشين لا يُفلّ لهما صارم وانت تروّدهما عطفك.وإن هما تريّثا، حتى اليوم، في انقاذك من عدوك الرجيم، فلن يطول التريث، وستنبذ وشيكاً جبال البذّ من آكامها، وغياضها، الفاجر الوبيء!

فاطال النظر اليها، وأوضحت لها باصرتاه مدى شغفه بها. فإنه ليشتاق الاستمتاع بنضارتها وسناها، وفيها ما يجتذبه اليها، ويقيمها سيدة قلبه ونهيته. بيد ان كل ما حوله يقطع عليه السبيل الى منهل الحسن. فالعباس إبن أخيه يهواها، وبينهما الميثاق الغليظ. وليست تروم خرق حرمة هذا الميثاق إلا وقد حلّها منه الموت. فعليها، كي تسترسل إلى مودة المعتصم، أن تشاهد بعينيها الاثنتين العباس بن المأمون متلاشي النفس. ولاجلها سيقضي أبو إسحق على

إبن أخيه. فان لم تذهب به فتنة جبال البذّ ، وقد أباحه فيها لمرمى النصال، فسيعهد في الفتك به إلى « أشناس » التركي. فيقذفه بن محمد فيه شعلة الحس، وتتحرر نوران من وثاق يبعدها عن سرب الخليفة

وزفر المعتصم زفرة تتلظى نفرة من الحياة . ليس من سعد إلا ويقبل منقوصاً، كأن الكمال ظلّ رجراج، لا يتماسك . صبا أبو إسحق إلى الخلافة وربع بصدرها ، على أن البغية تهادت اليه زاخرة بالعقد . وما أن يعالج منها عقدة حتى تفجأه عقدة أعسر ، مما اضحى به يجهل في أي أرض يلقي قدميه لينجو من الكبوة

لقد اتقى شر العباس ، إبن أخيه، في مطمح سؤدده، فإذا به يعاني وطأة ظله، في مبتغى قلبه، كأنه لا يزال منه على مناكرة . والتمس الخليفة سريراً نقياً من الشوك يهدأ عليه ، فاذا الوخز يعروه كيفما تقلّب جانباه

وودّ ان يخرج بنوران عن اعتصامها بالميل إلى العباس، دون أن تسوقه إلى اقتراف جريمة . فما عليها وقد عالنت إبن أخيه أنها خلت منه ، فيسمو أبوها الى أعلى مرتبة في الجيش ، وتقبض بيديها على الأعنّة ؟ ... واذا ما عيّرها الكاشحون اعراضها ، عمن تربطها به عروة الألفة ، فإن لها عذرها في الافلات من ربقته ، وقد اختارها الخليفة ليزيّن بها حرمه ، فتنمو زهرة فوّاحة في أكرم روض

وحنّ الى مصارحتها بما ينتوي، والى الحدّ من مجانفتها عنه . الا ان ابنته علية عقبة دون الجهر بالامنية . أف من العقبات، كم تقوم في نهجه ، كأنها موكّلة بإحراجه وبقهر منازعه . حتى ابنته تأبى عليه طلاقة الحراك

وجلس إلى المائدة، بين نسائه المرموقات، وابنته علية، ونوران. وتكلم

وخصّ ابنة عجيف بمعظم حديثه ، كأن ليس بجانبه سواها . وما خفي على نسائه ، وابنته، ما يتضرّم فيه من شوق الى نوران، فاخلين له المكان، وقد تغدّين ، دون أن يبدو منهن انهن تعمدن هذا الجلاء الخفيّ

وأمسك المجلس على أبي إسحق وعلى ابنة عجيف بن عنبسة . فرنا اليها الخليفة بوله المستهام، وجهر من كبد تسيل ولوعاً : حان لك أن تعتدلي في دلالك يا نوران ، وليس لهذا الزهو ان يستفحل فيك . جعلت من أمير المؤمنين دنفاً مزمناً، فلا تمضي في المكابرة ، وليست مهجتي حلالاً لتهيك كي توضّيها !

فارتعشت خوفاً . انه ليخاطبها بشغف الصبّ المشوق ، النافد الصبر ، وقد كواه الانتظار . واستعانت بكل ما تملك من دهاء . فالموقف يقضي عليها بأن تلملم نفسها، والا باتت مضغة سهلة في فم هذا المفتن ببدائعها . قالت تبرّد لهبته: ليس لأمير المؤمنين أن يحدثني عن هواه، وأنا منه في أوثق هيام.بيد انها المظاهر، وعليّ أن أصونها يا أبا إسحق.فما للعيون أن تشزرني، ولا للالسن أن تنهشني . فما إن يطبق العباس اجفانه ، للردى ، حتى تجدني بين ذراعيك !

– ولكنك تهدرين دمه يا نوران. ولماذا تخضيب غرامنا بالنجيع القاني؟... حسبنا الغدر بالذمم ، وليس من حافز الى القتل . لا بأس أن يقول فيك الناس إنك اقترفت الخيانة ، وأن يتهمك العباس بالصدوف عنه . فإنها لتهمة أهون وقعاً من ظنة اختلاس الروح.ولن يقال، وقد فتكتُ به، إنك مللته فعبثتِ بذمامه، وهي عادة العشاق، بل سيشيع اني تواطأت وإياك على محقه . ومن الشين أن تنزل بأمير المؤمنين المذمة الهاتكة . فانقذيني من اجتراح

الاثم . يكفيني ما أعاني من مضض الأقاويل، بعد انتزاعي الخلافة من ذلك الغرّ، وما سوف أعاني وأنا استلّك منه . فلماذا الغوص في الموبقات حتى سفك الدم، يا ذات الرواء ؟

فابانت مجتهدة في الاقناع : عفو أمير المؤمنين عني . ليس لي أن ألطخ سريرته بوصمة انتهاك الحرمات . فليذكر أن العقد له عليّ يزيد في نقمة الشانئين، وفي شغب الموتورين. وليس للازمة أن تشتدّ، وللنفرة أن تتفاقم، في زمن يحتاج فيه المعتصم بالله الى نصرة الامة جمعاء لدفع المحن ، وخضد الفتن . وإني لأربأ بنفسي أن أرتقي الى المقام المنيف ، وحولي من يندد بخروجي عن الوفاء !

فهتف أبو إسحق: ولكني اذا قتلته تعاظمت الاحن ، واتسعت البلايا !

– ليس للناس أن يدروا بأنك قاتله، وعليك أن تستعدي عليه جميع ضروب الدهاء . فلن تعدم من يغتاله في احدى الهجمات على ثائر جبال البذّ . فيقال إن بابك صرعه، لا المعتصم بالله. وهكذا ننجو من ظله، ومن القول إن زواجك بي قام على الكيد والختل !

فأطرق، وما استطاع إلا ان يسيل زفيراً لاعجاً . ألا كم يقتضيه إدراك الأماني من بذل ، بل كم يقدر عليه من إسفاف. فهل له أن يبرأ من سفك دم ابن أخيه ، لأجل غانية ، اذا ما مثل بين يدي ربه في يوم الحساب ؟

ولكن مشيئة نوران قاهرة . فالشغف المتوقد فيه بابنة عجيف يسهّل له الى كل حرام. فقال وهو يهزّ رأسه، بانكسار المغلوب على أمره : رحم الله العباس يا نوران . لقد طرحته بيمينك للسيف والنطع !

فابدت لا تحتفل بالغائلة : ان لم تحصده فلن تجني نوران . وهل لمن

يطلب الحسناء أن يقلقه غلاء المهر يا أبا إسحق ؟

فأعلن وقد ساقته الى أربها : ليس لي أن أكابر في ما تنزعين اليه يا ابنة عجيف، وانا خاتم في بنصرك. أذيعي، منذ الساعة، منعى العباس ابن أخي. بات الأنكد زاداً للديدان. إنا لله وإنا اليه راجعون . جميع الارواح فدى نظرة من عينيك الآسرتين ، يا نوران !

وحبا الى تقبيلها . غير ان وصيفاً الحاجب أطلّ يقول : بالباب القائد أشناس ، يا أمير المؤمنين !

فكاد يثب على وصيف يركله ويطيحه . ما لابن الفاعلة يفسد عليه ابداً ندى النهزة؟... غير أنه لم يسمع، بأن أشناس، ينكفىء من ساحة القتال، حتى اغتبط وجزع . اغتبط لمجيء القائد التركي في حينه ، وسيحرضه على العباس كي يحسمه بلا ونية . وجزع للمفاجأة وما حسبها تحمل اليه برداً وسلاماً . والتفت الى حاجبه بارتباك المبغوت. وهتف بعد لعثمة: ألا أين أشناس؟... ان المكان ليتسع له يا وصيف !

وهمس في أذن نوران، وقد توارى الحاجب : بلغتِ الوطر يا ابنة عجيف. أشناس سيكفينا شر المقيت . ساكلفه هدمه، ولن تسمعي به . كان في الناس فتى يقال له العباس بن المأمون !

واضطر الى صرفها عنه لئلا يفضي أشناس، على مسمعها، بما ليس من الحكمة بيانه . ووعد بها نفسه في أقرب سانحة . فإذا حيل الساعة، بينه وبينها، فالايام فساح للاستمتاع بالرغبة . قال وهي تسرع في الفرار، وقد شاقتها المباغتة المنقذة: ستعودين اليّ غداً، فاطلعك على ما وطّأت للفوز بالعلالة . ليس لاشناس ان يراك عندي كلما دخل عليّ ، فتساوره الشكوك !

فأجابت وهي تنسلّ من الايوان بخفة طائرة : سأعود يا أمير المؤمنين !
وشاقها ان تنجو مرة اخرى من مخلبه ونابه . فالعناية في خدمتها .
واعتزمت النجاة في كل مرة . فلن يكون نصيب المعتصم منها غير الخيبة
والهلاك

١٠

– إيه يا أشناس ، ما وراءك ؟

وبدا « أشناس » على انحناء هامة، وتعفير جبين، في حضرة الخليفة الحائر اللب . فما أقبل من صدر الوغى على دعة مهجة، وانبساط حس، وكل ما يلقى الجيش العباسي يخضخض الروح. فلا ينفك بابك الخرّميّ ذلك المستأسد، المنيع الجانب . فيضرب القوات العباسية في قلبها ، ويقدر عليها القهقرى .

ووثب عليه الاتراك يرومون تشتيت سربه ، فما لانت له شوكة ، بل طعنهم طعنات حواسم، في الترائب والنحور، ملأت بجثثهم المخارم والهضاب. وخشي أشناس فدح الخطب، فالتوى الى أبي اسحق يفيض بالتظلم، ويتهم بفائر الاسى: بدارِ ، بدارِ يا أمير المؤمنين، وإلا التهمونا. بنو فارس يتواطأون علينا ويكادون يطووننا. فما في جبال البذّ أوكار لسوى ذراري كسرى. وأخاف أن تدور الدائرة علينا !

فارتاع المعتصم . واتسعت عيناه تنمّان على وهلته. أيتفق عليه الفرس، وتنقلب عن وجهتها الحرب المتقدة، فتبيده؟... ليس ما يحول دون التئام شمل بني فارس، وكلهم على دين كسرى. فاذا فصل بينهم الدين، فلن تتبدل فيهم شهوات اللحم والدم، وفي الصدور منازع واحدة الطابع، لا ينصل لها لون . فيفنى ما تصطبغ به من طلاء، ليرين عليها وجهها الاصيل. فما الاسلام غير رداء تكتسي به عابدة النار. وليس ما يأبى عليها خلعه، لدى اعتصامها بالغلبة، وما تبرح الزمزمة المجوسية تجتذب اليها نفوس من نشأ آباؤهم على إجلال الاوثان

وهال أبا اسحق أن تكون بوادر الشر قد كشفت عن طلعتها. والدولة العباسية في مصطرع الأنواء. فينضم الفرس الى ابن أمهم، بابك الخرّميّ، وتستفحل الداهية. وزمجر المعتصم بالله، وكل ما فيه على نقمة جراف: أيبدو لك منهم انهم على دجرجة يا أشناس، لامهاتهم الويل؟

– لا أراهم جادّين في المناوأة. يا أمير المؤمنين. فكأنهم يلهون. ويخيل اليّ انهم سيعيدون في جبال البذّ تمثيل روايتهم في البديدون!

فصرخ ابو اسحق والارض تميد به: ماذا؟... لا أم لك!

– ربما نهدوا الى المناداة بالعباس بن المأمون خليفة!

فكاد يستلّ سيفه، ويقطع به رأس القائد التركي، وهو يطلع عليه بالنبأ المشؤوم. أيظل شبح العباس فزّاعة له؟... سيمحوه غير متئد. وصرخ بأشناس: أتشعر فيهم بهذه المخازي وتنام عنهم؟... ألا أين حسامك يبتّ الرقاب؟... أجبانٌ أنت يا أشناس وقد أوليتك إحدى قيادات جيشي؟

فأجاب القائد التركي، وهو يجاهد في التماسك لئلا تفضحه الرهبة: ليس لمن يحبوه أمير المؤمنين عطفه أن ينخذل، يا أبا إسحق. على أننا قلة، وهم كثرة. ولا ينسَ مولاي أن فيهم طائفة من إخوانه العرب!

فزفر المعتصم وهتف: أبداً تجبهني بهذه اللهجة يا أشناس. أبداً القلة والكثرة، واخواني العرب. ولكن الحالة تستدعي الانقضاض والتنكيل، بلا تسويف. ما إن تدرك ما يجول في الخواطر، من عداء، حتى تنتضي صارمك، وتقطع الرؤوس غير مشفق. وليس ما يمنعك أن تثب على العباس فتقدّه شطرين بنصلتك الرهيفة، ولن يبقي عليك وقد ساد. ألا انقذني من سمّه، وادفع عن مهجتك لوافح فحيحه. أتكون دون هذا السقط الرثّ؟

– أأغتاله يا أمير المؤمنين ولا حرج عليّ ؟

– أقتله ودمه في عنقي . أتسألني عما أرى فيه، وأنت من الملمّين بما يفرض علينا الخلاص من المقلقين ؟ ... حطّمه ولا تحفل بنزف دمه. ليس لأمثال هؤلاء المهازيل أن ينعموا بالسلام !

فجرض أشناس بريقه ، وبرقت عيناه وجمجم: فهمت يا أمير المؤمنين !

فزعق المعتصم : لا ترجع اليّ، سواء كنت غالباً او مغلوباً ، إلا وفي عينك أثر منه، وقد اقتلعتَ جذعه . كأن تأتيني بأذنيه ، أو بأنفه ، أو بعينيه، كي أتبين مبلغ أثرك في اجتثاثه . ما نزل القصاص لسوى تأديب المنافقين . أما الفرس، واضرابهم، فقد هددت فيهم الأفشين بتمزيق اوصالهم إن لم يستقم عودهم . وسأتوعد حتى تنخلع القلوب في الاحناء وجلاً . فلست المعتصم بالله إن لم اروّض اولئك الفجرة على طاعتي، فيمسوا كالانعام الاذلة. فإما أن يحيوا أرقاء ، وإما أن يموتوا كفرة . وستراني وشيكاً أنفخ في صدورهم الهمة . فإن لم يلبوا، فإنهم لمسوقون إلى الردى . لا بد من هزة يدركون بها مدى صولة أبي إسحق. أما أنت يا أشناس، فاكفني شر العباس إبن اخي، تلك الناقة المستفحلة، الجموح، بل تلك الدجاجة الرعناء، المصابة بزهو الديكة . نزلت به لعنة الله !

فأبدى أشناس، ولم يكن أحب اليه من استئصال جذور العباس، وهو درع الفرس المتحفزين للوقيعة : لا تحرّض مؤمناً يا امير المؤمنين . ما كان أشناس سوى خادمك المطيع !

قال أبو إسحق وما برح على غليان : إذا شئت ألا تلطّخ يدك بدمه، فادفع اليه أحد جنودك يستصفي ماء حياته . ما رأيت أنكد منه على دولتي

وقد بات موئل أعدائي. قد يدفعه الفرس إلى موالاة بابك، فلا يتحرّج من موالاة الزنديق !

فصاح أشناس بمالأة الخانع، المدّلس: وسيبتلعه الموت، كما يبتلع الزنديق، وقد شمّر للايقاع بهما أمير المؤمنين !

فعاد المعتصم الى القول: عليك به يا أشناس، وعليّ أمر الخرّميّ. فنستريح من الوغدين معاً. بعد أيام سأفجأ الأفشين وعجيف بن عنبسة، فتلقاني برأس النذل . وإذا ما أيقنتُ أن الأفشين يداجي، وابن عنبسة يرائي، فسأتبع الحبل الدلاء ، وأقود بنفسي جيوشي الى قهر بابك الدعيّ. إن هو الا راعي بقر، فارتقى بكيده الى مجثم الآلهة. وجلّ ملتمسي، أن تطوّقوني بصدوركم الأيدة في الامانة، فلا يباح لنصلة غادرة أن تشكّ في ظهري. انقذوني ممن يدهمونني من ورائي، وعليّ أن أقصي عنكم ذلك الضلّيل، المستنسر في أذربيجان يفسدها في دينها، وفي ركونها الينا !

فأعلن أشناس بقوة الطامع في ابداء الخضوع المرخيّ العنان: ليس ليد عاتية أن تغدر بأبي اسحق ونحن أحياء . سنذيب أرواحنا في وقاية أمير المؤمنين العوادي، وكلنا فدى السيد المنشور الجلال !

فقال الخليفة وهو يشدد في القضاء على العباس : لكن ابن أخي عبرة للرؤوس المستطيلة. فما ان تتدحرج هامته، عن منكبيه، حتى تنزع سائر الهامات الى الغؤور في أكتافها، لئلا يفصلها السيف الحاصد. لنا بمحو العباس خير رادع، لكل نأمة معارضة، عن المضي في الاقلاق!

فانحنى أشناس يقول : نعمَ الرأي يا أمير المؤمنين . اني لعائدٌ الى جبال البذّ لذبح الشاة الجرباء !

ـ أنحرها ولا يأخذك عليها نزرٌ من عطف . فما للخسبس أن يبقى . أبوه دعا الى بيعتي ، فعقّ أباه ، وسلك جادّة البطل . موعدنا قريب يا أشناس !

فتمادت الانحناءة ، في القائد التركي ، حتى كاد يقبل رجلي أبي اسحق . وابتعد وهو يعلّل النفس بأن يبضع الدمامل في الصفوف ، وقد آلمت فيه البال . سيبطش بالعباس ، ما دام المعتصم يريده على ابادة ابن المأمون . وللمعتصم أن يهزّ في الافشين وعجيف الروح ، والاّ رسخا في التواني . وقد يسهّلان لبابك الى تدويخ العرب ، فيخزيهم

وهال أشناس أن يخزى ، فلا تقوم للأتراك قائمة في الجو المثقل بالاحقاد . فإذا ما انتصر الفرس ، وطووا المعتصم لينشروا راية العباس ، فما على الاتراك إلا الرحيل عن البقعة العربية ، والرجوع إلى بلاد المغول ، ثاوين بوطنهم تركستان . بيد ان الأتراك ما جاؤوا ليرجعوا على أعقابهم ، مدحورين . قال أشناس يخاطب نفسه : سنموت في مخارم البدّ أعزاء ، ولا نتقهقر الى وكر درجنا منه . لا علينا ، وقد لقينا حتفنا على سمو ونبل . بيد أننا لن نمحى ، وسنسود العرب والفرس معاً . فإن القطيعة المستحكمة منهم لتنصرنا عليهم . وجلّ ما ننهد اليه ان نلقى منهم عوناً على الخرّميّ . وبعد الخرّميّ لا عرب ، ولا فرس ، بل أتراك أقحاح !

وابتسم ابتسامة الثعلب . إنه ليملك سر المواربة والختل . وما لابتسامته اللينة ، الماكرة ، أن تنجلي عنه . فهو صديق الجميع . بل صديق القويّ . بل صديق نفسه وليس يهيم بسوى رفع شأنه ، والفوز بحصة الاسد ، والسيطرة على مقادير من حوله من السادة والعبدان . وإن تكن الطفرة ضرباً من المحال ، فإن أشناس لسائر الى هدفه بتؤدة . فلن يستعجل المراحل ، فيتفسّخ

دون المحجّ. وما يمنع أن يكون الخليفة تركياً والاتراك يدينون بالاسلام؟

وكره أشناس الخليفة العباسي، محمداً المعتصم، كما كرهه العباس والأفشين وعجيف ونوران. فما دام الموقف يفسح الى الجدوى، فلماذا لا يشحذ الاتراك أسنانهم للاغارة على المنّ والسلوى، تشبهاً بالفرس وبالمناوئين لأبي اسحق؟... فالدولة العربية، وهذه حالها من الضعضعة، على وشك أن تنتثر، فليستمسك منها الاتراك بكسرة، قد تكون لهم، في الغد، مرقاة الى عرش وثير

وركب أشناس مطيته، الى مخارم البذّ، وهو لا يفتأ يردد هذه الخواطر. طغت على لبه الرغبة في امتلاك الأعنة. فما يقعد بالاتراك عن القبض على النواصي، وقد اكتهل العرب، وشاخ الفرس، ولا يزال الاتراك فتياناً؟

ولكن هذا السائر الى جبال البذّ يملأها رناه، ودهاه، ليس وحده بالساعي لتوطيد سيادة، وتشييد عرش. فإن نوران لتعرف سواه يهيم بالرجاوة السمحة، ويجدّ في اختطاف بردة الخلافة عن منكبي المعتصم بالله. وما هذا الناهد الى ركوب السدة بالعباس بن المأمون، وما يبرح العباس سليل الاسرة الرائعة في بحبوحة السلطان، بل هو محمد بن القاسم، من ذراري علي بن ابي طالب ابن عم الرسول

ومحمد بن القاسم في الكوفة بين آله وصحبه. وما زالت الكوفة معقل العلويّين ومثواهم. ففيها يقرّون ويحتشدون. ومنها ينشرون دعوتهم، ويبثون مطمعهم. واليها دفعت نوران جعفراً، وهو من تثق به من إخوة العباس ابن المأمون. قالت: إنطلق اليهم وحرّضهم على الغاصب. قل لهم ماذا تنتظرون؟... فان لم يطرحوا في هذا الاعتكار شباكهم، فمتى يحين الحين؟...

صارحهم بأننا في جانبهم . فما أن يتحركوا ، حتى ننتضي السيوف ، ونؤلف الصفوف . فالفتنة ، الفتنة في كل فجّ وصقع !

وأبناء المأمون على وفرة . ولم يكن يتنكر لهم العلويون، وقد أقرّ أبوهم المأمون حق الخلافة، من بعده، في علي بن موسى الرضى،أحد أئمتهم.وزفّ اليه ابنته ام الفضل . ومنع شتم علي على المنابر . ولو لم يمت علي بن موسى الرضى، قبل ابي العباس،لاعتلى اريكة الامامة . الا أن الموت عاجله،فقضى على أمل خميل ، ينتعش في الصدور

والعلويون رحبوا بابن المأمون المتهادي اليهم تسوقه حفائظه ، ومكايد نوران . فهم يستأنسون بهذا الوجه الصبيح يبدو فيهم يزينه نبله، وولاؤه . وما ينسون أنه ابن عمهم ، مهما أبعدتهم عنه المقادير ، وأن أباه أزال عنهم الحيف ، فما أسعفت الليالي . وغمروه بايناسهم : مرحباً بابن العم الحبيب !

وأنزلوه جوانحهم متسائلين : ما قادك ، في هذه الدهمة ، الينا ؟

وتراءى لهم انه أقبل يستعديهم على المعتصم، ويرتجي انتصارهم للعباس أخيه. فلم يبق أبو اسحق على صلة من قرابة توثقه بابن المأمون، منافسه في الأريكة العليا . وأرهفوا أسماعهم . ماذا في مقول أخي العباس من شجيّ ؟

وتكلم الفتى بوقار الشيوخ . فالجلال طبعٌ في هذه البيوتات المنحدرة من أكرم عرق . قال يوضح الحافز الى نزوله الكوفة : والله ، هو الشوق اليكم ، يا ابناء أعمامي، وما نزال على وشيجة رحم . فالعباس،جدنا الاول ، أخو أبو طالب جدكم، عليهما رحمة الله . واني لأرى هذين الفرعين الزكيّين في الدوحة السامقة، على غبن في النماء . فكلما ترنّحا، في مهب الريح اللينة، لفحتهما السموم . وإن مصيبتكم لاعظم،وما يورق غصنكم . وإذا اورق، فلا

يزهر . وإن أزهر، فلا يثمر . وهي حالة غاشمة لم يصبر عليها أبي المأمون . فحنّ الى انصافكم . غير أن النوائب ما أنفكت تصدّكم عن المبتغى الأثيل . ولكن الانصاف اذا خفق في صدر المأمـون ، فأنى يختلج في عروق المعتصم الغاصب ، ولستم تجهلون فيـه العنجهية ، وغلاظة الحس ؟... فعليكم بالسوانح تستظهرون بها على أمركم ، وتدرأون بها عنكم الجور المزمن . ولست أرى من نهزة تؤاتيكم خيراً مما يتلألأ اليوم . فما بكم تنامون على العسف ، كأنكم به راضون ؟... هلاّ هدمتم الأشر العارم ، وأقصيتم عنكم الشدة الخانقة ؟... سنقاتل في حشدكم راكب السدة عنوة وطغياناً . فلتتحرر ركابكم من عقالها ، ولكم سواعدنا ، وأسيافنا . ان يوم الانصاف لمجلوّ الافق ، نقيّ الجبين !

فنظر بعضهم الى بعض يستصوبون الرأي . ابن عمهم يذيع حقاً . وتكلم محمد بن القاسم ، إمامهم المرموق ، فقال يبدي الموافقة على ما يفضي به ابن المأمون : والله ، لسنا بالنائمين عن حق ما ننفك نراه وثيق الركن ، يا ابن الخليفة العادل ، رحمات الله على أبيـك . ولقد نظرنا الى عمك يعتلي الاريكة نظرة الحذر ، والخشية ، وما تغيب عنا جلافة المعتصم . وسعينا لاشعالها ناراً لهوماً . ولكننا أبينا أن نساعد بابك الزنديق ، على الظفر بعمك ، فأمسكنا عن الفورة . أما وأنتم تستحثوننا عليها ، فهذه يدنا ممدوده اليكم ، فبادروا الى نصرتنا على الوقح السليط !

فأعلن جعفر بن المأمون ، راضياً عن هذا التأييد السهل المنال : مـا إن تهفوا الى المناكرة ، حتى ندفع اليكم اخواننا الغاضبين . ستجدوننا في عونكم خمسين سيداً عباسياً ، وخمسة آلاف مقاتل من رجالنا ، بين فرس وزنوج . عدا من ينضم الينا من العرب الكارهين لعمي المعتصم . وأرى بغداد بأسرها

مقبلة اليكم، وهي النافرة من النافر منها، وقد هجرها الى سر من رأى، وأذوى كبدها النضرة . فاضرموا النار يهرع اليكم عشرون الفاً، بالزيت والحطب، ليزيدوا في لهيبها !

فقال محمد بن القاسم : اننا لنعرف من امر عمك يا جعفر ما يستثني لنا زعزعة دعائمه . ولقد تريثنا في مناوأته، لئلا يقول فينا، اننا غدرنا به . فأغمدنا نصلتنا في ظهره فيما يصادم الخرّمي . والخرّمي ليس منا، ولا هو منكم، يا جعفر . فاذا ما نفر اليه المعتصم، فإننا لمن حلفائه على الكافر، النجس . أما وانتم تريدوننا على الخروج عن عزلتنا، كي تصرعوا الغاصب، فسنجري في نهجكم . على أن يكون لنا، من أخيك العباس، نصيب علي بن موسى الرضى من ابيك، وقد أقرّه في ولاية العهد !

وجعفر ما زحف الى الكوفة خالي البال مما سيطلب محمد بن القاسم، لنفسه، من ربيع الجدوى، وهو يثور على المعتصم . فإن ولاية العهد أيسر ما يرتجي . ونوران لا تجهل ما يرنو اليه رجل الزهد والتقوى، محمد بن القاسم، الطامع في استعادة حق العلويين بالامامة . فقالت تخاطب جعفراً وهي توفده الى الكوفة : اقطع له على نفسك ما شاء من عهود . فاذا ما صبا الى ولاية العهد، فلا تبخل بها عليه، وهو ذو شيعة جمّة العديد . حسبنا ما يموج منها في خراسان . وإذا أنت عاهدت، فما اوثقت أخاك بقيد . ولا كبلت نفسك بميثاق، ولست تملك حق الابرام . فأكثِرْ مما لا تبعة فيه عليك بمقدار ما يتسع له دهاؤك . فتقود الينا الجحافل بوعود خوالب، لا يربطنا في اجابة شهواتها خيط عنكبوت !

ولم يصدف جعفر بن المأمون عن وصية نوران . فما عليه وقد سخا

بالمواثيق جزافاً ، وهو الطليق من الدرك ؟... فليس بمقام من تعقله وعوده . قال بموفور الجذل : وهل دفعتني حواني سرّ من رأى ، الى مقتعد صدر الكوفة بتقى الابرار ، أزحزحه مجانة عن سكونه ، وعندي بما أقرّ لكم ابي صحيح الخبر؟... ولكن أختي ، أم الفضل ، الشاهد الناطق بحقكم المنيع ، وقد عقد أبي عليها لعلي بن موسى الرضى ، اعترافاً بالجهير المسنون . لك ولاية العهد يا ابن عمي ، وهي حلال لمثلك . فما نجود بها عليك منة ، ولا كرماً ، وأنت مالك ناصيتها . والله ، ما حفزتني اليك قاعدة المعتصم ، الا وفي نفسي من المقدور لك علم العليم . أخي العباس الخليفة ، وانت ولي عهده ، ودعنا من المعتصم وولديه . فلن يقوم العهد المرتجى على سوى هذا الركن السليم !

فابتسم محمد بن القاسم ابتسامة الاستبشار الماتع . وهتف من حوله ، لابن المأمون ، هتفة الاعجاب بالانصاف المنزّه عن الجشع . قال السيد العلوي المغبوط : والله ، ليس لنا أن ننسى جميل مآثركم ، يا ابن عمي . أبوك أول من أزال عنها فدح العبء . فأدنانا منه ، وارتدى الخضرة ، ونادى بحقنا التليد . وهي مكرمة لا تلقى فينا غير الأماديح . وما دمتم تسلكون شعاب أبيكم ، فلن تقعوا منا على سوى ما ينيلكم المبتغى الابلج . نحن في مناوأة المعتصم حتى تتداعى فيه الأريكة . فلا خليفة سوى العباس بن المأمون !

فطرب جعفر ، وقد وفق للشهوة السمينة ، وصاح : وبعد العباس البيعة لمحمد بن القاسم العلوي !

فغلت الحماسة في كل عرق . هذا ما تجنح اليه نوران بنت عجيف في نصرة من تهوى . قال محمد بن القاسم : موعدنا بالفتنة وشيك يا جعفر . ستسمع عنا ، بعد أيام قلائل ، ما تبتهج له روحك ، ويرمد عين عمك المختلس .

باتت الحال تدعو الى نفض الصبر من الكواهل، وقد تململت به . غنا طويلا عن الافن والغبن !

قال جعفر يلهب الهمم: ولن أخفي عنكم ما تواطأنا عليه وجماعة الزطّ . فهم أعواننا على الوقح النهيم . ما إن تشمّروا حتى يرولوا . وربما سبقوا الجميع الى خلع العبودية ، وتحطيم النير . والله ، لنشعلنّها من فارس ، الى العراق ، فالشام ، فمصر ، وقد دسسنا لمن يفتئت بحقنا المكايد في كل صعيد . فستتأجج النيران، في كل قطر، لالتهام الطاغية المستبد . اجل ، أضحى الصبر ذلاً يا ابن عمي . لنكشفنّ عن جباهنا، وفي الكشف عنها انذار بدنو الساعة، وإفضاء صريح بالكره المكنون !

فقال ابن القاسم، مطمح أنظار العلويين، وصفوة أخيارهم: ربك لا يعين الضالين . أبلغ من أوفدوك الينا، أننا أعددنا للخليفة العاتي ، ناراً أحرّ من لظى الجحيم !

فاغتبط ابن المأمون حتى تداعى فيه كل حذر . وفكر في نوران . لن تعيّره الاخفاق في الطلبة . ورقد ليلته في الكوفة، على أن يغدو الى سر من رأى، لاذاعة نجحه في اداء الرسالة. فالعلويون على أهبة، والكوفة على ضرم . فلن يهنأ المعتصم بما اختلس . وتمثّل أخو العباس ما سوف يميد فيه عمه من فوادح . بابك الخرّميّ في اذربيجان . والعلويون والزطّ في العراق . ولن تقيم خراسان على دعة حيال استشراء النزوات . بل ستفور، وهي أحد أكوار الفتنة . وأنى للمعتصم ، أن يتقي، هذه الاهوال الطالعة عليه من كل فجّ ؟... وانتشى جعفر . لم يذهب وكده سدى

وفي البكور كان يودع، ويعود الى سر من رأى ، وفي روحه زاد من

اطمئنان، وفلاح . وشاقته رحابة أفق نوران. فان ابنة عجيف لذات خاطر مراع، زاخر بالادراك والبداهة النيّرة. ولم يكن صدره يتسع لجذله المبسوط الامد. ستشهد أمصار العباسيين زلزلة خاطفة ، إلا انها حاسمة . رواية الامين والمأمون سيعاد تمثيل فصولها، وما تزال بليلة الجناح

وصاح جعفر صيحة المسرة، وهو يدق باب عجيف بن عنبسة : أين نوران؟ وسمعت الدمية المعوب، واستبشرت خيراً، وفي الصيحة تموج أنغام الظفر. وهفت الى جعفر بقامتها المديدة ، وبصباحتها الوارفة ، وفتنتها المشبوبة ، هاتفة به : ألا مرحباً ، مرحباً بالصقر القهّار !

واستفاضت الشفاه بالبسمات الحلوة . وطغى البشر على القسمات . وتدانى الشباب يتصافح ، ويكاد يتعانق، لولا الامساك على مصون الحرمة . وتكلم جعفر بصوت يكاد يكون همساً ، الا انه حافل بالطرب : إبشري يا نوران . محمد بن القاسم أضحى لنا . وسيثور على عمي في أدنى موعد . فإن لم يسبق الزطّ، الى خلع أمانة المعتصم، فسينطلق الى مناوأة الغاصب، عندما تبدر منهم بوادر الانتقاض . فالفريقان سيشعلانها معاً، ولا رحم الله أبا اسحق . سيحترق بلهيبها ، ويمسي رماداً تائهاً في رعونة الانواء !

فاستوضحت بمستطير الفرحة : وهل وافقك محمد بن القاسم على التقويض يا جعفر ؟

فهتف بنشوة الموفق الجدّ : ولكنه يرقب الساعة المعلّلة بتفجير الاحقاد . ولقد تنفس ملياً لما آمن بان له اعواناً ، من معدننا ، يحالفونه على المستبيح . وجلّ ما يلتمس منا أن نعدله بعلي بن موسى الرضى، زوج أختي أم الفضل. فوعدت لا أتحرج، وليس في الوعد حذر . وأنت نفسك أجزتِ لي الاستفاضة

بالوعود !

فأعلنت لا تبالي : لا عليك . أكثر ما استطعت من هذه الخوالب،ولا تبعة علينا فيها . فالمنشود أن تتلظى البلاد العربية حقداً على هـذا الرابع ، على رغمنا ، بالاريكة العليا !

فقال جعفر بيقين المؤمن : وهو ما سيقع . بيننا وبين الفتن أيام نُزُر . وأنى ، لمن ترهقه أثقال الحرب ، أن يقوى على قمع ثورات تزيد في العبء والارهاق ؟

فكادت تصفق وتشدو . ما اشتهت غير هذا الاحراج . وتماوجت في مقلتيها الأماني النضرات . مقعد الخلافة لمن تعقد عليـه أملها الضخم . فما أسعدها، وقد أرتقت الى قمة السؤدد، تقبض على زمام السلطان، وتدير بيمينها الدولة، وهي زوج العباس !

١١

استيقظ المعتصم بغتة من هجعته المخضبة بلذيذ المنى . فتراءت له نوران بجانبه، مستوية على سدة الجلالة، وبابك الخرّمي يرزح بقيود المسكنة والذل ، واكابر القوم يطأطئون له الرؤوس إقراراً بالقدرة ، والغلبة . على ان ما بادره به وصيف ، محا المتعة العارضة. ومال بالخليفة العباسي الثامن الى النظر الى حاجبه بوجل ، وجحوظ ناظرين ، صائحاً به : ويك يا وصيف ، من دعاك الى قذفي بهذه الصواعق ؟

فابدى الحاجب الاستخذاء. وأجاب وهو يرتعد : أقبل من البصرة رسول بذيع النبأ الاسحم. فالزطّ هاجموا المدينة . وطوّقوا صرح الوالي . وتولوا الاحكام . وخشي شرهم الاهلون، فاستكانوا لهم، مرعوبين . وحمل الينا أحد رجالنا، في الكوفة، ان الفتنة كشرت عن نواجذها. واقتحم محمد بن القاسم العلوي مغاني الدولة. وأقصى عنها عامل أمير المؤمنين، منادياً بحقه بالخلافة ، وبافول نجم المعتصم بالله. ولقي من شيعته من يؤيده. ويهتف للدولة العلوية المغبونة في ركوب العباسيين مسند الامامة . وراع من حولك اطلاعك على الكارثة المزدوجة ، وأنت في مضجعك هانىء البال ، فتوليت المهمة، وأنا على يقين ، بأني سأجد من حلمك ، ما يقيني غضبتك الصادعة !

وما زال وصيف يرتجف، مع اضطراره الى الافضاء بهذا البيان الطويل . ووضح ارتجافه في أقواله. فكان يتعتع في أدائها ، ويتلعثم . وظلّ المعتصم يحدق اليه بذهول، وجحوظ عينين، وكأنه لا يفهم . ماذا ؟ ... هل جاءت الفتنتان تزيدان في مصاعبه ، ويكفيه أن يقاتل الخرّمي الرهيب ؟

وهاله الموقف . أثقلت يده مقود الدولة، وينهار سلطانه، وما نقع غلته من نداوة المجد ، ولا تذوق باستمتاع شبيع رغـادة الحكم ؟ ... ولكن هذا الجمود الخاذل لم يدم زمنه . فما هي هنيهـات ، حتى رجع الى نفسه الطاغية، العابثة بالعقبات . ووقف ببدانته ، وهو يصرف باسنانه ، مما بات به جبينه كتلة من عروق، متشنجة . وجلجل ،والغيظ يرن على اقواله القاصفة : هل عاد الزطّ الى الشغب؟...وهل طاب للعلويين أن يشعلوها، بعد انطفاء ، وأن يزيدوا في المحنة ؟... اني لأعوذ بالله من هذا اللؤم العارم ، ومن هذا السفال المخزي . أما شعر محمد بن القاسم العلوي بحقه بالخلافة ، الا وبابك الخرّمي على الابواب،ينازلني بخيله،ورَجله،وزندقته ؟ ... ألا فليصبر السيد المطماع ريثما أنقذه من الكافر ، وبعد ذاك ، فليسدد الى صدري سهامـه . وكنت أحتمل دلاله وعسفه، وبيننا شبكة رحم . أما ان يفجأني بالعداء، وانا أكتوي بالنار،فهو مما لا يرضى عنه الطبع الابيّ . انها لنهزة لن يحسن سليل علي بن ابي طالب استغلالها . فإني لسائر اليه،والى الزطّ، بنفسي، اخمد فيهم شعلة الانفاس . أبلغ جنودي،يا وصيف، أني مندفع بهم الى الكوفة والبصرة . فليتأهبوا ، مهما كان من ضؤولة عددهم. فإن زحفي في الطليعة ، ليغنينا عن الكثرة،وثقة من يعدّ بالف . والله ، لاكشطنّ لحومهم عن جسومهم . تباً للمفترين !

وتواثب فيه دمه الفائر . وأضحى كتلة من حنق موّار ، صخّاب ، لا تتماسك . وخرج وصيف الى القادة يصيح بهم : ألا استعدوا . أمير المؤمنين على وشك أن يركب فيكم الى مناوأة المشاغبين . فاشحذوا سيوفكم . وأسرجوا خيولكم . وارهفوا أسنتكم وسهامكم . فليس للكماة أن يربعوا

على ظلعهم في يوم الغارات !

فنفروا إلى أسلحتهم ، وجيادهم ، يجهزونها للساعة الفاصلة . وجيء الى المعتصم بالرسولين يرويان له اخبار ثورة العلويين، وعصيان الزطّ . فتعاظم في أبي اسحق احتدام السخط، ودمدم على المقلقين : أراهم لا يطمئنون الى سوى اللحود يقتعدونها ساكنين . فما دامت الحياة تنتفض في عروقهم، فلن يهنأوا ، وكأنهم منها على زئبق رجراج . وهي حالة من يجني على نفسه من المفسدين. ألا من مبلغهم أني واثب الى أكبادهم ، أقلقها، وأسحقها بنعلي؟... تعساً للجاهل ما أقرب حَيْنه اليه !

وبدا في شرفة قصره ، المطلة على مضارب الجند ، يهتف بهم : ساعة الترويع هذه هي . فلنثب على المجرمين المتجرئين على الاقلاق . أما والله ، ان لم تنتهبوا رؤوسهم ، وتدوسوا جثثهم بسنابك خيولكم ، فلستم من رجال المعتصم . هبوا الى التمثيل في الانكاد !

فرجّع القصر صدى الهتاف المنشور الامد : عاش الخليفة المعتصم بالله . سيوفنا وأرواحنا في طاعة أبي اسحق !

فرضي عن هذا التظاهر الأيّد. لا يزال منبع المستقرّ في نفوس القوم . قال بمستطيل النخوة : سأسير بكم الى اقتناص المجد . أمير المؤمنين في نظيرة قواته لمحو الضالين !

فهتفوا : بل نحن نكفي أمير المؤمنين هذه المشقة . ليس له أن يكلف نفسه متاعب نحن نقيه شدتها !

ولكنه أبى إلا أن يكتوي بميسمها . فلن ينام قرير العين ان لم يخض قلب النار . ودعا بسيفه وبرمحه وبجواده . نشأ في المعامع، وسيشيب في

أتونها . وارتدى بزة الحرب . فصانت درعٌ من زرد ، لا تنفذ اليها النصال ، صدره الوسيع . واستطاب أن يرى نوران بنت عجيف قبل أن يقتحم الوغى . ونوران ، وقد سمعت الضجيج في صرح الخليفة ، هرعت تستنبيء . بمَ يتمخض مغنى أبي اسحق ؟... هل من واقعة تصول ، وتجبهه فتكاتها ، فانبرى يستعدي عليها جنوده ؟

وتراءى لها ان العلويين والزط حملوا راية العصيان . وشاقها الامر ، فهفت الى الخليفة تستجلي . وامتلأ صدرها ابتهاجاً وقد علمت . أنى يقوى العاني على إخماد لظى يتوهج في أنحاء ثلاث ؟

وانتشت إبنة عجيف ، كأن متعة تهدهدها . على أنها ملكت نفسها حيال مرأى أمير المؤمنين . فحبت اليه والاسى يشيع في معارفها ، معلنة بصوت لهيف : هل تجاسر عليك الانكاس ؟... انهم لذوو هوس جهلوا به أنفسهم . فمن للصخرة المنيعة ينطحها ؟... ولكنك تبدو لي مدججاً بسلاحك ، فهل تنوي الانقضاض بنفسك على الأغبياء ؟... إني لأضن بك أن تجري بسيفك وسهمك الى المصادمة . أليس لك جيش وقادة ؟... ألا دعْ المهمة لجندك . فما شأنك في البركان الهائج يا أمير المؤمنين ؟

فابتسم لها . ليست تريد ان يقحم اللهيب . وهو الدليل الساطع على هيامها به . وتكلم والبشر يتألق في فمه ، ولحيته ، وعينيه . قال : صبوت الى مرآك ، قبل أن أسعى الى قهر نافثي السم . ويسرّني أن تكوني ذكرتني ، وبدوت لي ، وأنا أتزود للرحيل . فاسكني الى مغامرتي ، ولستُ فيها من المجازفين . سأعود اليك انتضي راية الظفر . أنا حيال خوارج مأفونين ، لا حيال دولة منظمة الركن والمسعى . لقد صال عليّ الحبثاء ، وما دروا أنهم

نملة تحت موطئ قدمي !

وما انفك يرنو اليها بابتسام ، ويخاطبها بعذوبة ، حتى وهو يذكر المنادين بالعصيان . قالت بظاهر من الخشية ، تحت وفر من الخبث : ولكن النملة تعلو القدم ، وتعضّ يا أمير المؤمنين ، هلاّ اشفقت من نابيها على نفسك ؟

وما ارنجت ، في اعماق ضميرها ، الا أن يحثّ الخطو الى المناوئين ، وقد يصطادونه ، وينقذونها من شبحه ، ومن عبثه . فليس أحب اليها من أن تراه يحترق ، بنار أضرمتها له بيديها ، وهي من دبر له هاتين الثورتين كي تضعضعه بانقادهما . فلا يقوى على اجتثاث جذورهما ، وقد شغل عنهما ببابك الخرّميّ . قال يعتدّ بعزته : لن تتسلق النملة ساقيّ يا نوران ، وقدماي لن تغفلا عنها . وان هي فعلت مددت اليها يدي وسحقتها . انها لمائتة في الحالين !

قالت تبدي شديد الجزع : وهل يروق أمير المؤمنين ان يؤلم فينا الروح ، فلا يهدأ لنا بلبال ، ونحن نبصر ، في مصطرع الانواء ، من علقته خواطرنا ؟... لا والله يا أبا اسحق ، لسنا نطيق هذا النكد . فارفق بنا ، وابقَ لقلوب تسبل في مودتك . ليس من العدل أن تطرحنا في مجترف التيار !

فزادته استمساكاً بالشهوة . لن يطمس الفتنتين سواه . قال يتدلل على الغانية المجيدة اللوعة : لا بأس أن تتعذب نوران في مقابل بعض ما عذّبت . هذا الرحيل الموقوت ، عنها ، سيدلها على مبلغ ما يكابد العاشق ، من خيلاء المعشوق . ولكني سائر الى تقليم أظفار المخنثين وأنتِ معي . فما تنفكين ثاوية بين ضلوع أمير المؤمنين . آه منك ، كم عللتني بالاماني وما بررتِ . فلا عليكِ وأنت تقاسين بعض الوجل . وفي هذه الرجرجة الشائكة ، ما يميل بك الى الرأفة بذوي الصبابات ، المقيمين منك على ولوع !

فكادت تقهقه ضاحكة ، سخراً بما يسقط اليها من أقوال لا تظفر منها بومضة من حس . إلا أن الموقف يفرض عليها التمالك ، والا ذهبت طعاماً لرهيف الشفار . واجتهدت في عصر عينيها ، ماضية في المخادعة حتى منتهى الامد . وما خيبتّها مقلتاها الدعجاوان في الشهوة، فسّحتا بالبلل . فصاح أبو اسحق على فيض من تأثر : أتبكين ؟

فابدت وهي تمسح عينيها بمنديلها : وكيف لا أبكي يا أمير المؤمنين ، وستنطوي عنا الى زمن لا يعلم مداه غير الرحمن الرحيم ؟... أأكون من حجر ، فلا أحس بأني من مرآك على حرمان ؟ ... أبقيت في نفسي ، من شهوة الحنان ، ما بتّ فيه لا أصبر على لمحة من فراق !

فخلعت قلبه بما أذاعت في مسمعه من خالب المقال . وكادت تثنيه عن براح سر من رأى بما أضرمت فيه من شوق . فهل له أن ينأى عمن تجذبه اليها بمتين الأمراس ؟ ... ونوران نفسها خشيت بقاءه، فرأت ان تعتدل في اللهفة، لئلا تفوتها السانحة. ولكن المعتصم لم يكرهها على هذا الاعتدال، وقد أبت عليه السياسة الرشيدة أن يرتضي خور العزيمة . قال : هما أسبوعان وارجع اليكِ يا نوران . فلا تظهريني، حيال أمتي ، بمظهر الكسير الضلع ، الحسير . سأغالب الشذاذ وأفنيهم على بكرة أبيهم . وأضفر لك من نواصي سادتهم ، غدائر تعصبين بها جبينك ، في معرض الفخار !

فتماسكت عن اللجاجة. وقالت وهي تشرق بدمعها : أعاننا الله، وأعانك، على الخطب الجسيم يا أمير المؤمنين . أصبحت أحاذر أن يتعاظم البلاء ان لم تصدّه بنفسك عن الاستذئاب . فانطلق واخمد الضرم . ولتنصرك السماء على شانئيك . فنحن، هنا، في ابتهال وانتظار . فلا تغمض لنا عيون، ولا

تنتعش أكباد، الا وقد أبصرناك تعود الينـا ، والنصر بعض ما غنمت في البطش بالفجّار !

فصاح معجباً : ألا كم ينقاد لك حسن البيـان في أسر وذل يا نوران . فهلاّ فتنته يا ذات السحر الباذخ، فاضحى من عبدانك الأمناء؟ ... لا أراك الا تسيطرين على الشوامخ، كأنك من عطاء الأقيـال . فهنيئاً لك السمو وأنت خليقة بالجلالة . اني لزاحف الى الخوارج أسحقهم . ولن تبصريني الا وقد كال النصر هامتي . ولكن، قبل أن أنصرف عنك، أريد ان تعلمي ان المعتصم سيعود وشيكاً اليك، وعلى مفرقه أكلّة الغـار . اليوم العلويون والزطّ ، وغداً الكافر ابن الكفرة بابك الخرّمي . أستودعك الله !

وأشاح عنها بعزمه الغلاّب، وقد هاله أن يكبو. فتستبقيه نضارتها للهوه وغرامه . وليس الوقت بما يبيح اللهو والغرام، والدولة تقضقض جنباتهـا وإحناؤها تحت وطأة الفتن، والمحن، والاحداث. ونظرت اليـه نوران يجلو عن قصره، في طليعة جيوشه، وهو يمتطي جواده الأشهب، فما استطاعت الا ان تدعو له بالفلاح. كأنها نسيت أن الشر اللافح خديه من صنع يمينها، وهي من نصب الفخ ، ودفع اليه هذا الولهان. على أن الكره، المستشري فيها، لم يلبث أن تغلب على الدعاء بالخير . فاطلقت من أعماق جأشها صرخة الويل : أنقذنا اللهم من الغاصب الجائر، وانت عدو الظالمين. عاقبه على بغيه بما تعاقب به الأشرار على خرقهم الحرمات، واستهانتهم بالمصونات. إنك العادل المجيب !

وظلت ترنو اليه حتى امحى ظله . انه ليجبو الى مقاتلة أعدائه الطامعين في مظاهرة بابك الخرّمي عليه، ولن يقعوا على سانحة أوفى. وتمنت نوران لو فاجأه الروم من الشمال، فتطبق عليه دنياه من جنباتها الاربع، وتسحقه لا

تستبقي منه جارحة ناطقة بحس . ومالت ابنـة عجيف على عليّة ، كريمته البكر ، تهيب بها الى التأسي ، قائلة بمنطق أنيس ، عذب : أبو اسحق من أرباب الحزم والرأي ، يا عليّـة ، فلا تتلهفي على نأيه عنا . فإن لم يبادر بنفسه ، الى قمع الفتن ، إستضعفه رجاله ، وعقّوه . ولا تأخذك عليه الخشية ، وليس يجهل اتقاء المتالف . ففي جوانح أمير المؤمنين حنكة دفاق ، لم تخذله في المعضلات الهوج . سيعود الينا بعـد فترة من الزمن ، وقد عُقد له لواء النصر . فمن هم الزطّ ، غير خليط من الرعاع ، نبذتهم الكرامة ، ولن تقوم لهم قائمة بعدما بطش بخيارهم عمك المأمون؟... ومن هو محمد بن القاسم العلوي ، غير مشاغب كليل ، يسمو الى شامخ تعيـا به عن بلوغه قدماه ؟... حاول أجداده وآباؤه الوثوب الى القمة الشماء ، فتـداعوا . ولن يكون خيراً من الآباء والاجداد .طيبي قلباً . أمير المؤمنين لا يجري الى القتال ، بل الى جولة من جولات القنص ، وقد تعوّد فيها أن يكون ذلك الموفق القهّار !

بيد أن عليّة ما استطاعت أن تتمالك عن سكب عبرة . فما للدواهي لا تتقاعد عن مناجزة أبيها ، وما أن يهدر شر في ناحية ، حتى تدب أراقمه الى سائر النواحي ، كأن حلقات العداء متماسكة ، رُدافى ؟... قالت إبنة المعتصم البكر : ليس أبو إسحق من المحظوظين يا نوران ، كأنه يركب سنام الخلافة بغياً وعدواناً . مع أن عمي المأمون خلعها عليه شرعاً ، وبايعته بها أصقاع العرب . ويحزّ في كبدي أن أرى الناقمين علينا يشدّون في أعناقنا المخانق ، كأننا لسنا من أصلاب العباسيين الأقحاح !

فودت نوران لو صاحت بها : « ولكنكم مغتصبون أنكاد ! » . على ان الجرأة خانتها ، وليس من الدهاء ان تكشف ، قبل نضج المكيدة ، عن جبينها .

فاكتفت بأن تدعو إلى الصبر. ولا بد في ركوب السدة من عناء. قالت ابنة عجيف: ليس في بلوغ المعالي ما تحمد فيه الراحة يا علية. وما في مقعد السلطان غير مسامير رهاف. إلا ان البطل من احتمل الألم، وهو يبتسم، وأذلّ نواصي أعدائه. هذه الأرائك السامقة تشرإب اليه الأبصار بنهمة، وهي قبلة كل عين. ولكن مخاطر الجلوس عليها لا يدركها غير الرابع بها. فانه ليستمتع بكونه في أرفع دكة. بيد أن منعته لا تعدل ما يعتوره من ويل، وضنى. ابو اسحق سعيدٌ شقيّ. إلا ان شقاءه سيبدده إقدامه. فليس للقلق مجال الى أختي ذات الحلم الرشيد!

وشاقها ان تبصرها تتألم. ورقبت لها يوماً ستولول فيه، والرزايا تتزاحم جيّاشة الفحيح. فقالت علية وما زالت على نشيج: أخاف غداً ان يدهمنا عدو آخر، يا نوران. ألا يبدو لك من الروم انهم يتحينون السوانح للايقاع بنا؟... وأي سانحة تؤاتيهم أفضل مما نحن فيه من ملمة؟... وهل لأبي اسحق، وهو الفرد، ان يصدّ عنه الجميع؟

فهتفت نوران تبدي الدهش: أراكِ ضعتِ عن الواقع، يا ابنة الأماثل الصيد. أيكون ابو اسحق فرداً، وهو أمة؟... ألا تبصر عيناك من يلتفّ حوله من العرب والعجم؟... إنه لدولة تنصرها دول. وما ان يومىء حتى يجري في رحبة الفداء الف مقاتل، يبذلون في رضاه الارواح. دعي عنك الأسى، وما انت من اهله. فالسعد المرفرف على امير المؤمنين، لن يزعزعه نقيق ضفدع، ولن يكسفه وميضُ خطّاف!

وجنحت بها الى ابداء البهجة، والنوازل محكّ الرجال. فلو لم يكن المعتصم بالله، ذلك السيد المهيب، الناشر الرعب في قلوب اعدائه، لتحامى

الحاقدون ، في معتكر الغواشي ، إماطة القناع عن نياتهم الفاسدة ، وهم يرهبون جلاله. وسمعتها « نهوند » تخاطب علية بهذه الصفايا ، فصرفت الخادمة الفارسية باسنانها حنقاً . وقالت في نفسها : ما أذلّ ابنة عجيف . إن في بعض النفوس لغضاضة مطبوعة . فما تطرب نوران للحدثان المتألبة على المعتصم ، بل تجزع لها . وليست تجهل ، ان في هذه الكوارث ، يد الله تظاهر العباس بن المأمون ، على عمه الباغي . والله ، لست ادري كيف شغف العباس بهذه الخاذلة ، الغَدور ، وهي لا تقيم منه على ذمة . مات الحفاظ في نفوس ذوات الحسن ، وهن زاد كل سيد مرموق يسم له النعيم ، وحالفه السؤدد . آهاً على ايامنا . كنا لا نشيح عن عهد من يوثقنا به الهوى ، اذا ما انقشع عنه رونق الجاه . ولكن اين في غواني هذا الزمن من تؤتمن على ذرارة من وفاء ؟

وأسرفت « نهوند » في البربرة ، وفي القدح في نوران . وشزرتها بعينين منددتين ، وما تنفك تسائل نفسها : لمن تكون هذه اللاعبة على الحبلين ؟

وشعرت ابنة عجيف بما يساور منها الجارية الفارسية . « نهوند » تستطيل في ارتيابها بها . غير أنها لم تحفل بهذا الارتياب وهي أدرى الجميع بحالتها . إلا أنها خاطبت ، على رغمها ، الجارية بقولها ، كأنها تميل الى اتقاء جانبها : هلاّ ساعدتني على مولاتك ، يا نهوند ؟... هي بحاجة الى الترفيه عنها !

فقالت الجارية الفارسية بجفاء خادش : عليّة ذات وفاء ، يا نوران !

فما تمالكت نوران عن الارتعاش تحت وقع الوخزة الداغرة . نهوند تعيّرها انهيار الوفاء ، والختر . وسددت اليها نظرة عاتبة . والتقت الاعين فاذا هي جذوات من اضطغان . وودت نوران أن توضح ، لمن تسيء بها الظن ، أنها

واهمة . فليست ابنة عجيف بمن تخفر الذمام . غير أن الموقف لا يسعف في الابانة . فبلعت نوران ريقها ، وانطوت على الكتمان . واشاحت عن « نهوند » المتطايرة تأنيباً صامتاً ، إلا أنه على صمته أمضى من رهيف النصال . ولما برحت إبنة عجيف بن عنبسة قصر الخليفة ، أحسّت بأن عبئاً ثقيلاً جلا عن صدرها . فتنفست ملياً ، وزال عن جبينها لهيب الوجوم ، وملكت طلاقة الحركة وحثّت الخطو إلى منزلها وقد نعمت بالارتياح . محمد المعتصم يركب أجله . فإن ما ينتابه من الدواهي ليجرّه وشيكاً الى حَيْنه . ونادت نوران اليها جعفراً بن المأمون هاتفة به : أفلحت تدابيرنا يا جعفر . بشراك . عمك يثب الى مصرعه . فاذا نجا من محمد بن القاسم ، فلن ينجو من الزطّ . أوفدْ الى العباس من يدعوه إلى الانقلاب على عمه ، ولن يظفر بفرصة مؤاتية كالنهزة الطالعة !

قال وهو يميع اغتباطاً : سأطلق اليه خادمي بشيراً . وهو خير من امتطى جواداً ، واجتاز وعراً !

قالت : وأنا سأدفع الى أبي حمام الزاجل ، يحدثه عن فتنة العلويين ، وشغب الزّط ، فيدرك ما ينطوي عليه النبأ من تحريض !

وما توانت في كتابة الرسالة، وقد عهدت فيها إلى حمامة شقّت الاجواء إلى مخارم البدّ ، ومتجهها عجيف . وليس في الكلمات ما يبعث على الشك ، وهي في مصلحة الخليفة أكثر منها عليه . والخادم بشير جدّ في سيره إلى جبهة القتال ، يبتغي العباس بن المأمون. فطوى ليلة على ليلة في الوصول إلى سيده . ووراءه ، وقد أوشك ان يبلغ مقر العباس ، أن تسقط اليه الرواية الطحون . هجم ثلاثة من الجنود الأتراك على ابن المأمون لاغتياله . فدرى بهم العباس ، وصرعهم الواحد تلو الآخر . وهاج الجند من عرب وفرس .

وثاروا على الأتراك يرومون إبادتهم، لولا حكمة الأفشين. وما تورع فريق من النافمين، عن المناداة بسقوط المعتصم، وبمبايعة العباس. وقد لاح للجميع في المكيدة ظل المعتصم بالله، الراهب شبح إبن أخيه. فقال بشير بامتعاض وغلّ: أيظل مولاي العباس قذى في عين أبي إسحق؟ ... والله، ماكان سيدي المأمون يرقب لابنه هذا التعس، فما يبايع المعتصم. ليذكر أبو إسحق يد أخيه المأمون عليه، قبل أن يسعى لحذف ابن الواهب، المنّان!

وعجّل في الوثوب إلى سيده وابن سيده. وإذا بالعباس في نقمة المصدور. يستخفّ بالدسيسة، ويتوعد ناسجيها. وأذاع في خاصته أنه كان يتوقّعها، وما تخفى عليه خشية عمه منه. قال مجلجلا: سنعود إلى سرّ من رأى. وليحتمل عمي تبعة غدره!

وعقد والافشين، وعجيفاً، مجلساً تداولوا فيه الأمر على مختلف وجوهه. أيرجعون إلى المعتصم ليفتكوا به، ويرتقي العباس الى مقعد الامامة، أم أم يقتحمون مضارب الاتراك، ويذبحونهم، ولا يبقون على جندي منهم؟... وآثر الافشين أن يأمن، في البدء، جانب الخرّمي. حتى إذا ما عاقب الأتراك على مكرهم، لا يلقى في بابك منتهزاً ينقضّ على الجيوش العباسية المتناحرة، ويستصفي دمها. قال: لنهدم بابك، ثم نتحوّل عنه الى أشناس، فإيتاخ، فالمعتصم!

ولم يكن للعباس ولعجيف ان يرتابا بالافشين، وهو من طينتهما. على أن العباس قال: ولكن ليس من الجدوى ان نمحو بابك قبل أبي إسحق. لنذهب بعمي، ثم نطيح بابك بتؤدة، وخلوّ بال!

غير أن الأفشين، وما زال يرنّ في أذنيه تهديد المعتصم بالله، حاذر أن يصون الخرّمي من كلوم الهزيمة. سيعرض على أبي إسحق جراح الخذلان

في عدّوه ، حتى إذا ما اطمأن اليه الخليفة العباسي الثامن ، طواه الافشين فيما يطيّب انفاسه باعراف الريحان . ويصفو له الجو فينادي بنفسه سيداً . ويجاهد في استمالة العباس وبابك الى تأييده في طفرته . وإلا فالويل لهما . فالموت فاغرٌ فاه للالتهام . ولماذا لا يكون سيداً في عهد يصبو فيه الى السيادة من هم دونه ؟ ... ورأى ، كي يقهر بابك على الاقرار له بالسلطة – وهو في ضميره من جماعة الفرس اتباع المجوس – أن يذيقه معرة الانهزام دون أن يسفك دمه ، مستبقياً اياه لليوم الفصل . فلا بد أن يقرّ هذا المغلوب ، بسلطان الغالب ، ويؤثره على الخليفة العباسي العربي ، المناهض المجوس ، والمستخفّ بعبادة النار . والا فما فات الأوان على محق المخندق في مشارف اذربيجان

وانقاد العباس وعجيف لرأي الأفشين . في البدء بابك ، ثم المعتصم . وما فطنا الى طمع خيذر بن كاوس في السيادة العليا ، وقد أجاد الأفشين المخادعة ، ولم يفتأ يتظاهر بنصرة ابن المأمون ، ويغالي في الممالأة والنصيحة . وطرب الأخدان الثلاثة وهم يسمعون بفتنة الزطّ ، وبفورة محمد بن القاسم العلوي ، وقد بشّرهم حمام الزاجل النبأ السارّ . قال عجيف : إني لأتمثل اصابع ابنتي نوران في إضرام اللهب . ما أطلقت اليّ حمام الزاجل إلا لتطلعني على ما يكابد المعتصم من شدة ، ولتحثّني على الجد في مناكرته . فما رأي العباس ، والافشين ، في السانحة العارضة ؟

فأبدى العباس بطاغي الفرح : وهل لمثل هذه المعاطب غير نوران يا عُجيف ؟... انها لتملك دهاء الثعالب ، وحكمة الحيّات . فتلاين لتلدغ ، وفي لدغتها الموت . أرى ان نركب الزمن المواتي ، فنزيد في إحراج المعتصم بالشيطان ، لا بالله !

والتفتا معاً الى الأفشين يستطلعانه المشورة . فأعلن الأفشين ، وقد لاح له من عجيف بن عنبسة ، انه لم يطمئن الى تشبيه ابنته بالثعالب والحيّات : ولكن نوران تتهالك على ضمان رفعتك، وتوطيد مجدك يا ابن المأمون . ولولا اخلاصها لك، وشغفها بك، للقيتْ من برّ عمك ما يقيمها في مصافّ حرمه، وهي اليتيمة الحسن ، البارعة الملاطفة !

فهتف العباس مؤمناً بمقالة الأفشين : لست اجهل مبلغ الامانة في نوران يا خيذر. فوالله، لو خُيّرتُ بيني، وبين الجنة، لآثرتني على النعيم، وهي شعلة من ولاء وحفاظ. وإني لموقن بانها ترجحني حنكة، ودراية . فإذا ما توافر لي يوماً، ركوب مسند الخلافة، فلن يمتلك الأعنّة سواها، ولها من سعة هداها ما يهيب بها الى تسيير شؤون الدولة بحكمة ، ورشد . فما رتعت الخيزران ، ولا زبيدة، في حجا أخصب ، وأرحب . ولكن ما استخبرك خبره، موقفك من تأييد نوران ، في الانقلاب على الغاصب . إن نوران تدعونا الى اغتنام السانحة ، ومظاهرة العلويين والزط على الطاغية . فهلاّ عدلت عن سياسة الانتظار ، وأصليت الغاشم ناراً لهوماً ؟

فاستطاب الافشين المضي في المواربة . قال ببسمة المداجاة الخلوب : اني لألمس شغفك بنوران في ناظريك يا ابن المأمون . ألا كم في الحب من معنى يخفى على العين العاطلة من ومضة الهوى . على ان الجو ليس بسعف على الانسلال من طاعة المعتصم بالله ، وإلا نحيّناها بابك ، وأكلنا جميعاً . فلنوضح للكافر اننا اقوى منه ، ثم نرتد ظافرين الى عمك ، دون ان نخشى طعنة المجوسي في ظهورنا !

ووفق الأفشين في بيانه ، ولقي من رفيقيه مقنعاً . بل هم جمعوا امرهم

على انتظار ما تنتهي اليه الفتنتان في الكوفة ، وفي البصرة . فاذا ما خاب المعتصم ، فليس أهون من خلعه ، والمناداة بالعباس خليفة ، ومحق بابك ، والوثوب على العلويين والزط ، وكسر شكيمتهم . على ان الافشين ، مع إفاضته بهذه الخطة ، لم يكن راضياً عنها في أعماقه . فلن يفني نفسه لاجل العباس ، وعجيف ، وسينتهبان المجد والسيطرة دونه . فاذا ما ارتقى العباس الى منصة الخلافة ، وتزوج نوران ، فلن يرتضي بعجيف تحت امرة الأفشين ، بل يسمو به الى المرتبة الاولى في الجيش . فيتضاءل عنه خيذر ، وتتبدد مطامعه ، وقد طمحت عينه الى الذروة يقتعدها . ولكن المماكرة قضت عليه بالموافقة على المرامي المعلنة . فليس يضيره ان يجامل ، ويداجي ، حتى اذا ما نضجت الثمرة ، مال عليها عفواً يقتطفها . وهكذا راوغ ، وكايد ، نزوعاً الى الاستئثار بالجدوى كلها . فان اضطراب الدولة العربية في أمنها ، وسلامتها ، هاج الاهواء المراض ، فهبت من كل جانب للتلذذ بحلاوة السيطرة ، ومتعة الولاية . كلٌ يريدها لنفسه ، حتى من لم يكن يصبو الى اعتلاء القمة .

واللقمة المستباحة تجد متعدد الافواه لقضمها . وما زادت دولة المعتصم ، في مستهل قيامها ، على ان تكون هذه اللقمة الهينة ، الحائمة عليها غلاظ الاشداق ، وقد أطلقها المأمون من يمينه على بغتة ، دون ان يوطد لها في الاحلام والامصار .

١٢

كلمة"، جادت بها علية بنت المعتصم، شقت في لب نوران مجالاً الى بعيد التفكير . فخافت إبنة أبي إسحق أن يدهم الروم أباها ، وأن تغلبه الكثرة على أمره، فلا يتفق له أن يظفر بذلك العديد الضخم من الأعداء الاشراس. وخوف علية، من ذاك العباب الزاخر من المناوئين، حدا نوران على السعي لايغار صدر الروم على المعتصم. ما دامت الكثرة قاهرة ، فلماذا لا تغريهم به ، وتلوي عوده ، وليس له أن يقاوم الجحافل الزاحفة اليه من كل درب؟

ولكن أنى يتفق لابنة عجيف أن تتصل بالروم؟...بل أي فضيحة تنتهك مصون نوران، وتهتك ستر أبيها، وقد شاع في المطبخ العربي، أنها أقدمت على تحريض الروم على الخليفة العباسي ؟ . . . واسترسلت الجبارة الحقود الى الموازنة بين قوى أعداء المعتصم ، وضلاعة السيد العربي . فرسخ لديها ان أبا إسحق دون جميع هؤلاء الكارهين له، اذا انقضوا عليه معاً . غير أنها خشيت، إذا ما وثبوا باجمعهم على المعتصم بالله، ان تتفتت الدولة العربية. فلا يبقى منها قضمة للعباس بن المأمون . وهو ما لا ترتجي وقوعه. وستمسي به يد حبيبها صفراً من كل سؤدد ، وعز

ومع هذه الخشية الصادقة التخمين ، المشؤومة الطالع ، تمنت نوران لو يقبل هؤلاء الروم عفواً ، ولا كان للمعتصم خيال يميل، ولا وجه يطلع به على الناس. فالنفرة منه تأصلت فيها، بعدما نصبت له بنفسها الاشراك . حتى انها اعتزمت رميه بمن يقتله، وقد فار فائر اعدائه، داعية الى مبايعة العباس. ولن يصغر ابن المأمون حيث تضاءل عمه . فيكبح جماح المغيرين على دولته ،

ويخضد هائجهم . وتجاذبتها خواطر الاستئصال والمحو. واستطابت، في بلوغ الوطر، أن يطغى الاعداء من كل وكر على الدولة العربية، وان يهددوها في وحدتها، ما دام في التهديد والطغيان النجاة من طلعة الغاصب. وبعد ذاك يتكلم العباس بصلابة المولى الواجج الكفة ، الحاسم الشفرة . ألا ماذا يرقب الروم ليثأروا من الدولة المنتفخة عليهم ، الممعنة في قصّ أطرافهم ، والاغارة على سويدائهم ،تقضي فيهم نهباً وتقتيلاً ؟... أتروقهم حياة الذل تضرب عليهم نيرها ؟... إذن ما هم غير أرقاء ، جبناء !

وتململت ابنة عجيف . وشاقها ان تندلع النار من كل فجوة . فتلتهم هذا القاسي المهجة ، المفتئت بحق ذوي الحق . ألا مَن للروم يجرّهم الى المعترك ؟... وحدّثت جعفراً بن المأمون ، شريكها في حبك الاحابيل ، عما يختلج فيها من شهوة. فهال جعفراً مدى نقمتها على عمه، وقال يهيب بها الى الاحتراس من شر المصير : حذار يا نوران . فالروم إذا دقّوا أوتادهم في ديارنا ، فلن يجلوا عنا !

فهتفت متمسكة برأيها الجارف : سيجلون . لن نفسح لهم الينا إلا بقدر ما يدوّخون به عمك. وما ان يذلوه، حتى نبطش به تأديباً له على هوانه ، ونشمّر الى المناكيد نردهم ، وننبذهم . بقاء عمك في أريكة الخلافة لا يبيح لي ان أغمض الجفن !

وأقلق خلوتهما من يقول : بالباب من يلحّ في مرأى سيدتي نوران . فهل أبيح له الدخول ؟

وهي ترقب الرسل لتتبين مدى فلاح العلويين والزط في فتنتهم . وأجابت بشوق الى معرفة المقبل اليها : أسرع به إليّ . من يسأل عنا ؟

وبدا في حضرتها رجل لا يزال من الشباب على طراوة، وإن يكن مظهره يدل على الخشونة والغلاظة . وعرفته من وجهه النحاسي، ومن اسماله . فهو من الزط . قالت وما اطمأنت الى أساريره المتجهمة، القلقة : ألا ماذا لديك ؟... هات . كن عجولاً !

فأعلن بصوت أبح، وقد غصّ بريقه : لست أحمل اليك ما تسكنين اليه . زحف الينا المعتصم، فأقصانا عن البصرة . ونفدت منا المؤن والاعتدة، فدفعني اليك الشيخ ثعبان في التماس الرفد !

فصاحت بارتياع : هل خذلكم ابو إسحق ؟

– خذلنا ودلنا على ما يرتع فيه من باذخ الهمة . فانقضّ علينا أشبه بالصاعقة المحرقة. وأجبرنا على الجلاء عن البصرة بعد احتلالنا إياها، واستقرارنا بها زمناً . واذا لم تبادري الى نجدتنا، بما وعدتِنا به من وفر، قضي علينا بالاستسلام الشنيع !

فأذهلها مقاله المشؤوم . وأحست بنفسها تتصدع وتنهار . وخانتها الالفاظ، فاصيبت بالشده. وجحظت مقلتاها رعباً. أيذهب، كل ما تعبت في نسجه، غباراً في متناوح الريح ؟... وشاءت النطق كي تلمّ بمقدار النازلة . واكرهت نفسها على الكلام، فاستوضحت : وماذا كان من العلويين في الكوفة ؟

فأجاب، وليس يحمل غير المناعي : لا أراهم خيراً منا . فالمعتصم في حنق خالع، وقد غامر في مناوأتنا، لا يبالي خطراً . فقدّ حسامه الصفوف، كأنه يغوص في الرخو الموّار. وتراجعنا امامه، نرهب غضبته، وسطوته. وسمعناه يطلق فينا أزرى النعوت، فما تجرأنا على جبهه بكلمة نابية. إلا اننا قاتلناه

بعنف، وبِبسالة. فسقط منا المئات، وما ننفك نقاتل. ولكن إذا أمسكتِ عنا يدك، فلن نبلغ منه وطراً. اصبحنا على مسيس الحاجة الى المال!

فقامت الى خزانة النقود عمياء، متضعضعة. أتخفق في جميع مساعيها؟... وتناولت من صدر الخزانة عشرة أكياس، كل كيس منها يحفل بعشرة آلاف درهم. وطرحتها بين يدي الرسول، قائلة له: اليك بها. هذه مئة الف. فخذها الى الشيخ ثعبان. واطلب منه بلجاجة أن يستميت وإخوانه في المغالبة. فليس للمعتصم ان يتلذذ بحلاوة الفوز، وفي فوزه اضمحلالنا. موتوا في الصراع، ولا تبيحوا للطاغية أن يستمسك بنواصيكم. فلن يصون منكم شيخاً، ولا وليداً، إن هو لوى فيكم صلابة النصال. فالمعركة معركة موت، أو حياة. ولا احسبكم ترتضون دميم الذل، والاستخذاء!

وتكلمت بكل ما وهبت لها الهواجس من بيان لهبان. ألا ما لهؤلاء المنادين بالعصيان، لا يدمغون أبا إسحق بضربة ناجزة، وينقضي الأمر كما يشتهيه ذوو النفرة من السيد المقيت؟... وودت لو أوتيت القدرة على المسير بنفسها إلى المتقهقرين عن الطلبة، تمشي في نظيرتهم، وتقودهم بنفسها إلى هدم العاتي. ولكن هل لها أن تجازف بنفسها هذه المجازفة الهاتكة، وأمرها من المعتصم يشفّ عن كاف يرب الدولة العباسية، وموقف أبيها من الجيش لا يبيح هذا الشذوذ، بل الجنون الصوّاح؟

وأفاضت بالحض على المناوأة والغلبة، كأنها التيار الغضبان، الجارف كل ما يلقى من حي وجماد، ويودّ لو يقشّ الارض، برمتها، تحت كابس نقمته الماحقة. ولكن الرسول ليس الزطّ باجمعهم. إن هو إلا ريشة محوّة في الحوافي. ولقد وقف يصغي الى الصباحة المتملّلة، الحانقة، في نوران،

مكتفياً بالجواب، كلما سمعها تدعوه إلى شحذ الهمم، وبذل القوى : سأبلغ زعيمنا، يا مولاي، كل ما تكرمت به عليّ من نصح. ولن يغفل الشيخ ثعبان عن تحقيق مشتهاك . فليس فينا من يجلّ المعتصم بالله !

فعضت شفتها تحسراً. وهتفت: آه لو كان يتفق لي أن أنطلق اليكم ، فأقودكم بنفسي الى قهر المجناح ونبذه. ما كان لكم،وانتم المصاليت، أن تبيحوا له دخول البصرة . فمن ملك البصرة ، دان له زمام النصر !

فقال الرسول يجاهد في أن يبثها بعض الطمأنينة : ما كنا من المهازيل، وسوف يبدو لك أننا ممن لا يتداعى لهم جانب . هذا المال سيقينا الهزيمة، وسيتوافر لنا به الزاد، والعتاد !

وودعها عجلان، يلجّ في الابتعاد عنها . أثقلت عاتقه بما وقرت به سمعه من تحريض، وما كان بحاجة الى إيغار صدر. فالزطّ، ما غاب عنهم، أن في ظفر المعتصم بهم فناءهم، ولن يبقي منهم على ابن يوم. وظلت نوران واقفة بالباب، تنظر إلى الرسول يغيب عنها ونهيتها في أثره . وهمّت باللحاق به ملتمسة الوثوب إلى بني قومه، تنفخ فيهم القدرة على المناجزة . والتفتت الى جعفر هاتفة به بملء فمها ، كأنها تستنجد به في الانقاذ : هلمّ يا جعفر !

ولاح له منها أنها تجيش . فقال وقد درى مبتغاها ، بيد أنه تجاهل : إلى أين يا نوران ؟

ـ الى الزطّ نقيهم ويلات عمك البطّاش !

فقال ينصحها بالتؤدة: أيروقك أن تنكشف الدسيسة،يا ابنة عجيف؟... ولكنك ستقضين على شمل ضخم العديد ، إذا جلوت سرائرك !

فاعلنت لا تبالي : حياتنا في بقاء الزط دعامة أيّدة . فإذا تداعوا

طحنتنا الجائحة. وقد يبوحون لعمك، وهو يذلّ نواصيهم، بسرنا. فالبدار، البدار، إن نحن طمعنا في النصر، وفي إخفاء مكيدتنا . اين حسامك ؟... سأتنكر بثياب الرجال. ليسرج الخدم جوادين من جيادنا !

فقعد بها عن الشهوة المتلاف. بيد أنها لم تكن تنثني، وقد جلجلت كأن أنوثتها انتفت عنها: أأركب، أنا المرأة، الاهوال في نصرة مآربنا، وتعاند، انت الرجل، في الجلاء عن الخدور ؟ ... ألا في أي زمن مستنوق نحن، يا جعفر؟... كن رجلاً، واصحب هذه المرأة المسترجلة، الى منافرة الخصماء !

فاخجلته. وما رقب منها استزادة إلحاح، وقد هبّ الى جوادين في اسطبل أبيها يسرجهما بنفسه، لفرط نخوته، ويعود اليها مذيعاً باعتداد : هيا بنا !

فلن يكون دونها في نبل الأريحية، وهو سليل أكارم صيد، لا يرهبون المنايا، ولهم في استرخاص المهج شاحط الوثبات . وركب جواده، واعتلت نوران فرسها . واجتازا نهر القاطول إلى دجلة، تواكبهما الضفاف . فلن يقتعدا زورقاً يشقّ بهما الماء، وليس لهما عن المطية غنى في جولتهما البعيدة الطفرة . وعدا الجوادان الى بغداد، وقد ازمعت نوران على اضرام الفتنة في الزوراء. فتخففّ عن العلويين والزط وطأة أبي إسحق. ولا محيد للمعتصم، عن إطفاء اللهب المندلع من مدينة المنصور، جدّ ابيه، فيتراخى في الكوفة والبصرة، ويتغلب عليه المناوئون، ويخلعون عنهم كابوسه المصور

وسكت الفارسان، وهما يقدّان الفيافي والادغال، وما يطمعان في سوى بلوغ بغداد في الحين المؤاتي . قبل ان يمسي الانقاذ محالاً، والقهر ضرباً من الهوس. ولم يكن الناظر، الى نوران، ليشك في كونها رجلاً، وقد لفّت رأسها بالكوفيّة، وعصبت جبينها بالعقال، وحجبت فمها وأنفها بذيل

كوفيتها ، فما تبدو منها سوى عينين آمرتين ، ساخطتين

وتمنطقت بالسيف . وسئلت عن وجهتها وهي تغادر سر من رأى .
فاجابت بهتفة السليم اللب : إلى امير المؤمنين ، ننصره على الأوغاد !

ودخلت بغداد تروم إشعالها . فلتنقلب الدنيا على المعتصم بالله . غير أن ما سقط اليها في بغداد رماها بالبلبلة . ففترت همتها وارتعشت . وهبّ على قلبها زمهرير عضوض، قضى فيه على فورة الحماسة . فتخاذلت . وكادت تهوى عن جوادها ارتياعاً . لقد نعى اليها القوم ، في مدينة السلام ، العلويين والزطّ معاً، وحدثوها عن بطولة محمد المعتصم حديثاً خلع جنانها، وقد احست به باضمحلال مناها، وبانكسار قوادمها. فغصت بريقها ، واكفهرّ محياها ، وزلزلت حوانيها . أبو إسحق بدّد شمل الزطّ ، حتى لم يبقَ منهم همّ ولا رضيع . واقضّ مضجع العلويين ،فجلوا عن الكوفة مدحورين،يولون وجوههم شطر خراسان، ليستظهروا فيها بشيعتهم على الغاصب ، المكتسح

وهال نوران أن تحتمل عبء الانباء الصادعة ، وما حسبت نفسها تقوى على هذه الشدة . فشعرت،مع تماسكها ، بفؤادها يموت، وبحنجرتها تضيق حتى لا تأذن في نأمة . واستولى عليها وجلٌ أقعدها عن الالتفات الى جعفر بن المأمون، خجلاً منه،وقد أخفقت في الارب. وجعفر لم يلتفت اليها، لئلا يزيد في بحرانها

على أن هذه المتلاشية حتى الامحاء ، الذليلة حتى الغؤور في الدون ، المسحوقة الخاطر كأن الموت شاع في مرتجاها الاسمى ، عرفت كيف تنهض من كبوتها ، وتنفض منها وطأة اخفاقها الطحون . فدرأت عن خاطرها طيف الهلكة، وسادت نفسها، كأن أعصابها رهن مشيئتها. وصاحت

بجعفر : لنتابع طريقنا إلى عمك أمير المؤمنين، يا جعفر . أقبلنا في النصرة، فلننطلق اليه في التهنئة، وقد خضد شوكة أعدائه قبل أن تدركه، ونعينه على طمس الكارثة المعولة !

فحدجها جعفر بعين تكبر الدهاء الوثاب، المبرقش، البعيد الحيلة . فما نحون المبادهة إبنة عجيف، كأنها حاضرة الذهن أبداً . وما استطاع إلا أن يجاريها في الطلبة. فابدى، ولكن بصوت أبحّ، وقد عزّ عليه أن يزحزح فوداً عنه انقاض الخسوف : أجل ، لننهض الى لقاء عمي . فما جئنا إلا لنلقاه !

وحثّا المطيتين، ينفران من بغداد الى الكوفة، فالبصرة. فإذا لم يبصرا أبا إسحق هنا، وقعا عليه هناك. وطغى عليهما الصمت والوجوم . ولم تحلّ عقدة اللسانين إلا وبغداد مطويّة البساط ، محجوبة عن الاعين . فلا سميع ولا بصير. وتكلمت نوران. ولم يشأ جعفر أن ينبس بما يؤلم الغادة الساهمة، المطعونة النياط . فقالت وفي صدرها جعبة من زفرات ثواكل ، رهاف : قضي الأمر يا جعفر . لم يكن اصحابنا بمـــنزلة عمك، وهو الغلاّب، وهم الكسحان . عقدنا أملنا على خيال ركيك لا تثبت له في النوازل قائمة . فما ان هجم عليه أبو إسحق، حتى بدده .إن الحظ ليجانبنا . ولكن علينا أن نجدّ في اثره، لندركه ، وإلا فما اطيب الفناء !

ونضت عن نفسها كل جلباب . فستجاهد حتى تفوز، أو تنطفىء كجذوة في الرماد . ولم تجهل أن السعد يرقبها لو شاءت ان تميل عن وجهها. ولكنها، وقد اندفعت في المنهاج ،لن تروغ عنه. اختارت العباس، لا المعتصم، وستبقى لمن اختارت، على رغم المشقة والضنى . قال جعفر، وقد جنح الى توطيدها في منازعها : ليس لذي الجهد أن يكبو، يا نوران . فما دمت موقنة أن الزمن

لم يغلق دونك أبواب الفرج، فلن تغوري في المضيمة. ان للحق وجهاً أبلج، لا تكسفه الحلكة مهما اشتدت !

قالت، وهي تجيل ثاقب فكرها، في مخيلتها المخصاب: إذا غلبنا على أمرنا في الزط والعلويين، فما زال لدينا بابك الخرّمي، والروم، واحمد بن حنبل. أتجهل احمد بن حنبل، يا جعفر، وهو من ناظر اباك في خلق القرآن، وابى الاعلان ان الكتاب مخلوق، وما يراه سوى خدين الازل؟... إن احمد هذا، ليثوي بالسجن، منذ عهد أبيك، وما أفرج عنه المعتصم. وسأدعو أبا اسحق الى مناداته اليه، كي يكرهه على الجهر بخلق القرآن، وإلا هدر دمه. وما أن يراق هذا الدم، حتى تضج الامصار العربية بفتنة يضرمها رجال الدين، ويشترك فيها كل حاقد ومشاغب. ولن يبقى لعمك زاوية يأوي اليها، ولا حجر يتوسد. والله، لن أرتدّ عنه إلاّ وهو رفات يبيس. فإما أنا في رحبة الاحياء، وإما هو !

وحرّقت الارّم. إنها لشعلة من عزم وضغن. ونظر اليها جعفر بن المأمون بخوف. فمن هي هذه البارعة في الاحراج، الصلبة في المناكرة؟... وما يكون منها يوم تتبوأ الاريكة العليا، وتدير شؤون الدولة ؟ ... فهل يبقى من يتحدث بعدها عن الخيزران، وزبيدة، وليس لهما حيالها مقام؟... وما تمالك جعفر عن الارتعاش إزاء ما سمع منها عن احمد بن حنبل، وقال: لك الله يا نوران، ما اخصب خيالك، وأمضى سعيك !

فأعلنت، وما زالت على نفرتها من نبوة الدهر بها: ما كنت أحسبني في في هذا الاقدام يا جعفر. إلا أنه الخوف من الهزيمة يشدّ بي الى الكفاح. وليس للنفس، المخضبة بالحنين، ان ترتضي عثرة من تهوى. إخلاصي لأخيك

يحدوني على موائبة الحوائل، مع وعورتها، ومناعتها. سننتصر، وإلا فمرحباً بالرمس يطوينا !

ولكزت جوادها، هاتفة بنبرة من حنق: سأركب إلى بغيتي كل مركب. فاذا فاتتني صولة اللبؤة، فلا بأس بمكر الافعى. وما أندفع إلى عمل، أهنئه بعالي همته، لسوى مخاتلته عن نفسه، كي أجيد حمله على حتفه. فلنكن ثعالب وذئاباً يا جعفر . فالثعلبة في أوانها، اجدى من الاستئساد في غير موضعه . فإن للشراسة زمناً ، وللين زمناً . وهذا مقام السكينة والصبر !

فما خرج جعفر عن قاعدة شيدتها. لكن ما تقدر نوران، وهي ادرى، وامضى. وعرّجا على الكوفة يسألان عن المعتصم، فقيل لهما إنه ارتاد البصرة. وحفزا المطيتين الى البصرة، فصادفا فيها أبا اسحق في جيشه المنصور، يسيل محياه بشراً ، وينتفخ صدره كبراً ، وتنتفش لحيته ابتهاجاً . كبح جماح الشر في وثبة طاغية ، ولم يبق من ذيول الفتنة بقية تحبو الى حراك . ففرّ العلويون ينزلون خراسان، مستنجدين باخوانهم فيها. والتمس الزطّ الأمان، نادمين على المجازفة، وقد تراكمت جثث ضحاياهم بعضها على بعض ، تلالاً من اشلاء تنفث دماً . وشكت فلولهم الى المعتصم عنجهية الشيخ ثعبان ، وهو من دعا الى الشغب. والشيخ ثعبان جرع كأس الموت، عن يد المعتصم، في طعنة نجلاء، حاسمة . نهد الى اغتيال الخليفة، فسُقي منيته، وانطفأ في صدره سره . لن يقوم في الزطّ من يعلن أن نوران وقدت بيديها الضرم

ووقع في أذن المعتصم أن فارسين يهفوان اليه من سرّ من رأى ، على جوادين مجنحين ، ويلحّان في مرآه . فسائل نفسه ، وقد استدارت عيناه واتسعتا ، عن هذين الملحّين في ادراكه . من يكونان ؟ ... هل يزحفان

اليه من محارم البدّ، في نبأ جسيم ؟ ... واي نبأ هو ؟ ... أيطرب، ام يكمد ؟

وخشي أن لا يتعادل الموقفان. فهل يبيت الظفر، في البصرة والكوفة، إخفاقاً في اذربيجان ؟... ورقب أن يمثل الفارسان بين يديه، وقد أذن لهما في الوقوف في حضرته. فدلفا اليه ينحنيان، حتى كادا ينقصمان . وعرف احدهما . هذا جعفر إبن اخيه. أما الآخر، فمن هو ؟ ... واطال اليه النظر ، وارتبك . من يكون الادعج المقلتين، الفتّاك النظرة ؟... وتراءى له أن الفارس قريب الشبه بمن لا يخفى عليه امرها . ولكن ... ولكن... وبلع ريقه. وهتف بمن يقف تجاهه أحجية غامضة : الا زحزح عنك لثامك، ايها المقبل الينا . فمن أنت ؟

فأمسك الفارس عن التلبية، كأنه يعاند في الاذعان لرغبة الخليفة المطاع. فصرخ به المعتصم صرخة ماد لها المكان : أتكابر أيها الجلف ؟ ... لأضربن عنقك . تباً لرفيقك يا جعفر. أتحمل اليّ الالغاز الدهم كالليل، يا ابن اخي ؟

وانقضّت يمينه على مقبض سيفه. ووثب على الملثم يبتغي إطاحته، وقد أوشكت النصلة أن تثب من الغمد. على ان الفارس، كشف عن وجهه، في ضحكة عريضة مراع. فجمدت يد أبي إسحق وقد قلقلت الشفرة في جفنها. وانتشرت في أساريره بسمة المرح . وهتف بمخضلّ الايناس : أغريتني بدمكِ يا نوران . أأنت ايتها الريحانة الزكيّة ؟ ... والله ، عرضتِ في نفسي ، وقد دلت عليك مقلتاك . إلا ان زيّ الفرسان حجبك عن بصيرتي . فمرحباً ، مرحباً . ولكن في مَ جئت اليّ؟... أفي خير ، أم في شر ؟... أفرحة، أم ترحة، يا ابنة عجيف؟

ورقب منها ان تجلو بوانيها . فاوضحت ، وما زالت تقهقه : طلعتي تشفّ عن دخلتي ، يا امير المؤمنين . فماذا ترى ؟

فأبان بابتهاج: ما أرى إلا الخير، يا نوران . الخير على استفاضة . فكيف خطرتُ لك في بال ؟

فأجابت ماضية في التغرير به : ما قادني إلى أمير المؤمنين غير الشوق الى مظاهرته على أعدائه. فاعتليت جوادي يصحبني إبن أخيك، وقد أوجعنا أن يثور عليك من لا ينفكون ينعمون برفدك، وبرّك. واعتزمنا خوض الواقعة إلى جنبك، فنلقى بعض ما تكابد من متعبة . ويكون لنا نصيبنا من الظفر المبين . على أنك سبقت وثبتنا اليك في اطفاء النائرة . فارتضينا ، وقد فاتتنا حلاوة الجهاد، أن نكون مهنئين . ومن الغبطة لنا، ومن الفخر لكل من يستظل لواءك، أن يقوم فينا سيد مقدام، تكسف رؤيته كل متجرىء على الحق الجليل !

فبسط لها يده مصافحاً. فقبلت يده. واشتهى تقبيلها فتضاءلت فيه همته، كأن حائلاً يقف بينه وبينها. مع أنه الخليفة، سيد الارواح والاموال . فما لغانية ينزع اليها أن تتجانف عنه . وتعجب من هذه القوة القاعدة به عن ابنة عجيف، كأنها الحرم المصون . وارتعد. وأحس بأنه تقلص عن سحيق شأوه . ووقف من نوران وقفة الباسم المشدوه . إلا أنه أبى ، وهو المولى الباذخ العماد ، ان يهون في وقفة الغرام . ففرض على مقوله النطق بما يحضره من كلمات. وجهر ببيان تكاد تهشمه التعتعة: ظهورك فينا يا نوران يزيد في إشراق جذلنا، وفي جسامة نصرنا . ما كان العلويون والزطّ ليتماسكوا حيالنا، وما بدونا حتى انهاروا. إنهم إلا البغاث. يكفيهم أن يسمعوا بنا كي

يتفرقوا ابادید. فاقتحمنا صفوفهم كأننا في ملهاة، لا في واقعة. وتناثروا كأنهم قطيع من الخرفان دهمته الضواري. فأطلقنا في اقفيتهم السيوف تحصدهم هشيماً يابساً. ولم يبق في الزطّ غير رذالة، لا قومة لها. واسترسل محمد بن القاسم العلوي وجماعته الى اخوانهم في خراسان، يسألونهم العون. بيد أن عاملي عليها، عبد الله بن طاهر، كفيل بأن يقودهم إليّ مستخذين، مخذولين، يضرعون إليّ في أريحية الغفران!

فصاحت اعجاباً، كأن الخليفة، في ما يروي لها، يسكب على جنانها البلسم المستطاب: عاش أمير المؤمنين، البطل الهمام. ما عرفناك الا السيد الصؤول، يا أبا إسحق!

فازداد نشوة على نشوة. إنه لهنيء. فالنصر والهوى ملك يديه. وما إن يلوح حتى ترحف اليه الاماني على جمام. غير أنه ما زال يطمع في الظفر بنوران، وما انفكت ابنة عجيف تحرن في الملتمس. ووثب في خاطره الى جبال البذّ، وفيها دبر مكيدة الفتك بالعباس، ابن أخيه. فلا يكاد العباس يقضي، حتى تمسي نوران ملء اليد والفم

ودعاها، وهو يميع حنيناً، الى المسير بجانبه، الى بغداد. فيدخلها سعيداً، منصوراً، تزين هامته الغلبة، ويجرّر ذيل التيه. قال يزدلف الى الغانية الدعجاء العين: والله، ليس اغتباطي باندفاعك اليّ في النصرة، دون ارتياحي الى قهر الناشزين. فكأني غنمت الفوز فوزين. إنك لتحملين اليّ بسمة الانس، في اليوم الرخيّ!

ودخل وإياها بغداد في موكب الغزاة الصيد. ولم تقف منه الزوراء وقفة المتجاهل، المتعامي عن المجد الأفيح، الأريض، بل هفت الى لقائه في

طفرة المعجب بدفقة السنى، المتماوجة في نواصي الأبطال، المعقودة على هاماتهم هالات من جلال ومنعة . وليس للقاهر أن يهون في مواقف التبجيل

وأبصرت نوران مدينة السلام تمور في لقاء السيد الغلاّب . فساورتها الغصص. واشتدت بها الشجون . فما كان يضير العباس، حبيبها، لو دانت له هذه الرقاب، وماج في هذا العز ؟... وحنقت على بغداد الممالئة، المتملقة. حسبتها أرسخ قدماً في نفرتها من المعتصم الغاصب، وقد مال عنها، وقضى عليها بالجمود، ليشيد له في سر من رأى قاعدة يخلع عليها رفده، وجاهه، فتقهر بغداد في رحابة الشأو، والوفر

بيد أن نوران أدركت، حيال هذه المواكب المبتهجة مع كل ما يحزّ في أكبادها من أوتار، ان الناس سوائم في ركاب القوة، وأن الحق كلمة متلجلجة في فم مستضعف . فاذا اتفق لها حيناً، ان تنجلي، فهي في غياهب الأسر، إلى زمن مديد .

١٣

لا ، ما رضي الأفشين عن أنباء البصرة والكوفة . فساورته الرهبة لما وقع في سمعه أن الزطّ والعلويين باؤوا بالخذلان ، وقد تضرّجت بدمائهم شفرة المعتصم . وكان يرقب أن يلتوي أبو إسحق في مناوأة الفتنة ، فيهون ويبيت كل من حوله بابك الخرّمي . إلا أن وكده أنقذه مما بيّت له الكاشحون ، فطغى على أعدائه . وخشي الأفشين أن يقبل الخليفة بنفسه الى جبال البذّ ، فيقود جيوشه الى وكر الخرّمي ، ويستبيحه ، ويعيّر أبا الحسن التواني . وربما اتهمه بالغدر . فاعتزم الأفشين أن يضرب بابك ضربة تقوّض موئله ، دون ان تهدّ حيله ، وهو بحاجة اليه ليوم الصادعات القواصم

ونادى اليه قادته ، فاحتشدوا في خيمته . وجمعوا أمرهم على وثبة جموح تقلقل العاتي في حرزه . وكان لهم ما اشتهوا من رغبة ، وقد طوّقوا بابك من جميع أطرافه . وهزوا فيه صميمه . فتداعى المثوى الباذخ ، وقضقضت دعائمه . وانتثر الخرّميون في كل فجوة ومنبطح ، بين قتلى ، وجرحى ، وملتمسي نجاة . وبدا بابك للأفشين ، فتحامى أبو الحسن إيلامه ، وسنّى له الفرار . فلا غنية عنه في الملمّ العصيب ، الوشيك الطلوع . وطار حمام الزاجل الى ابي اسحق يحمل البشرى المتوف . قضي على المجوسي الزنديق . فصاح المعتصم صيحة الجذل المائع . وأمر بقرع الطبول ، ونفخ الابواق . والتهبت سر من رأى ناراً مستطيلة الألسن من الاستبشار الحميّ . ما عجز عنه المأمون دان للمعتصم . هوى الطود الشامخ ، بعد ثلاث وعشرين سنة ، من عناد وطماح

وتمادت في ابي اسحق الفرحة ، لا تنغصّها عليه غير شهوتين ، لم تأذنا في

إنجاز ، مقتل العباس ابن أخيه ، ومقتـل بابك الخرّمي . فما زال الوجهان البشعان على استرجاع أنفاس . وأبو إسحق حنّ الى الخلاص من الدميمين ، الكريهين . فالعباس يقلق فيه طرافة الهوى ، وهناءة المقر ، والخرّمي يهدده بالمضيّ في الاحراج .

وتألمت نوران وقد نزفت فيها نداوة الرجاء . فأبصرت آمالها تغيض ، كأنها عين ماء عدا عليها النضوب. ألا ما للأماني تجفوها ، كأنها الثكول ؟... وانغمس فؤادها في حداد هلوع . إن نصالها لتتحطم واحدة تلو واحدة ، كمن كتب عليه الامحاق ، نفساً بعد نفس

واستنكفت عن المسير الى ابي اسحق تقاسمه أفراحه . فهي فريسة الداء ، تتقلب على أنين وزحير . وتعجب الخليفة من بطئها عنه ، وتقصّتها عيناه في كل مأتى . ألا أين ريحانة الضمير ؟... وأوفد اليها من يذيع فيها البشرى: لنا الهناء يا نوران . أمير المؤمنين يزفّ اليك النبأ الطروب. بابك انكسر سهمه ، ونبا عنه حظه . فهو في فرار النعام ، لا تهدأ له ساق !

وحامل البشارة ليس الجارية «نهوند». فلقد رفضت الفارسية العجوز ان تنطلق الى ابنة عجيف بأنباء النصر ، وما يشوقها أن تدلف إلى غادرة. فشكت العياء والسقم . فدفع أبو إسحق إلى نوران ابنة عمه إبرهيم بن المهدي ، الثائر على المأمون ، والمنادي بنفسه خليفة ، لدن أقرّ أبو العباس ولاية العهد في شيعة عليّ بن ابي طالب . وريحانة بنت ابرهيم بن المهدي ، مع سكونها إلى قيام دولة المعتصم ، إبن عمها ، لم تكن تشتهي الخلافة لسوى أبيها ، وقد عرفت عزها ، وذاقت حلاوتها . إلا أن صولة أبي إسحق أكرهتها على الرضى بالواقع ، وما تفتأ تشتهي استعادة النعيم المفقود

وخاطبت،على رغمها، إبنة عجيف بالمقال المراع.وعليها أداء رسالة أمير المؤمنين . فالتفتت اليها نوران، وما انفكت تتظاهر بأنها على مستكلب الالم، وقالت بصوت وئيد، وجيع : دامت سيطرة أمير المؤمنين يا ريحانة. فما كان لنا المعتصم غير شمس مشرقة،ونعمة وارفة . وللعباسيين أن يتيهوا فخراً ، وقد قام فيهم هذا السيد الركين !

وعرفت الداهية كيف تهيج حفائظ إبنة إبرهيم . وما غاب عنها إن ابن المهدي ما يزال يطمع في المقعد الاثير. ولقد انتفضت ريحانة، وعلتها الكمدة. وتأوهت ولبست تجيد كتمان ميولها . ونظرت الى نوران نظرة شابها الكره. وودت لو تستطيع تفجير أحقادها . وقالت بنبرة لا تخلو من البحّة وقد ساءها ما تمدح به نوران الخليفة الغاصب : في العباسيين رهط من العظماء يا نوران. والمعتصم أحدهم، لا كلهم. إلا أن الحظ والاه، دون الجميع. فالتفوّق فيه للقدر، لا للكفاية، يا أبنة عُجيف !

فطاب لنوران أن تكشف ريحانة عن امتعاضها ، مما آلت اليه الحال في الدولة العباسية . وقالت تستدرجها الى الافصاح عن مذخور البغضاء : عفواً عني،وقد وقفت الاطراء على المعتصم يا ريحانة،دون انداده من أبناء الأسرة السائدة. أجل، حالفه السعد دونهم، وما هم دونه . فالريح المسعفة هبّت في ناديه، فما قعد عن التشمير في مهبها، وأدرك ما تقاعسوا عنه. مع أن فيهم من جرت في ركابه الريح،ففاته اغتنام هبوبها. إن المعتصم لميمون الطالع، يا ابنة سيدنا ابرهيم !

ولم تحبس تأففها . فلتتذمر والمجال موفور الى جلاء السخائم بامان . فقالت ريحانة بكاوي الالم: وهل كان للمعتصم أن تنتشر له راية وهناك إثنان

للأضطلاع بالعبء، العباس بن المأمون، صاحب الحق الجهير بالخلافة، وأبي، وهو من تسنم ذورتها، وكلاهما خيرٌ منه ؟ ... بيد انه القدر الغاشم يا نوران. ونحن نجرع علقمه، ونحترق بجحيمه. آه من العباس، وقد ضحكت له البغية، وطوّقته بساعديها، فنفضها منه. وآه من أبي، وقد تناءى عن حقه، قانعاً بصفقة المغبون. ما تمنيت إلا أن تندلع ألسنة الشر على الغاصب، فتجتذبه إلى أحشاء الارض. ولقد واثبته فثبت لها. وهو منتهى التوفيق. ولو رجحته، لكنا نرقص اليوم على قبره. آه يا نوران من النكد الغشوم !

وبكت إبنة إبرهيم. وللرياحين دموع. وطربت نوران وهي تبصرها تصبّ عبرتها ونقمتها. ولقيت فيها عوناً على المناكرة. فما يحول دون الاستظهار بها في مجاهدة أبي إسحق، فتكون عقبة من العقبات القائمة في الطريق ؟... وما ونيت نوران – وهي في فراشها تدعي المرض – تفكر في أن تنصب لأبي اسحق الاشراك، بعد كل ما تغلب عليه منها. فلا تزال تسعى لاضرام فتنة يشنّها رجال الدين في انتصارهم لأحمد بن حنبل، ولأشعال حرب يجرّ اليها الروم أبا إسحق، الغطريف المستعلي

وتراءت لها في ريحانة بنت ابرهيم بن المهدي أحد خيوط الشبكة. فلماذا لا تجبه بها أبا إسحق، وتقوده الى حتفه، بوفرة الكائدين؟...فالروم، وقد خافوا المعتصم، بعد قهره جميع من تصدوا لمكارهته، لن يصادموه. فلتتحرش بهم نوران، ولتخلق هذه المصادمة بما تمهد لها من تحريض. قالت تستوضح ريحانة : ألا يطيب لك ما نغوص فيه من ارتباك يا ريحانة ؟... والله، إنك لعلى صدق مخبر. ما نحن في هناءة، وقد وُسد الامر الى من ليسوا من اهله. على أن الحكمة، تهيب بنا الى الصبر يا صديقتي، وما تزال

الامامة في العباسيين . وبعض الشرّ أهون من بعض، يا ابنة السيد الوقور!

فزفرت ريحانة، كأن صدرها موقد جمر. وقالت بصوت بكيّ: وارحمتاه للعباسيين يا ابنة عجيف، وقد قام فيهم الضالع، ونام الضليع. فمن هو القابض على الأزمة فينا، وما يحسن قراءة كلمة، ولا توقيع اسمه؟... نشأ جاهلاً، فظاً، وما برح على سجيته المشؤومة، كأنه من أجلاف البادية. فهل للمرتبة السامية مثل هذا الأرعن، الغليظ؟... دعيني أطلب للعباسيين مرحمة ذي الجلال، وقد أشرفوا على الهلكة. فهل من نصفة الزمن أن تتدحرج إلى هذا الدرك الغائر، فيلي امرنا، بعد المأمون الذكيّ، النبيه، غرّ مغمور لا ينطوي على نتافة من إدراك وعلم؟

فاستمرأت نوران هذه الجفوة تطلع بها عليها ريحانة. وقالت تزيد النار حطباً: لست أنكر سقطتنا الفادحة يا أختي. فما المعتصم حيال أبيك الفهّامة، الوازن الدراية، غير هباءة في ليل. إلا أنها الأيام الظوالم، تعطي الأكلة الشهية من لا يجيد مضغها، وتضنّ على من يحسن التلذذ بها بضئيل القوت!

فهتفت ابنة ابرهيم بن المهدي: ليس أبي وحده بالمكسوف يا نوران، والعباس بن المأمون في طليعة من دهمهم الغبن. وإذا آلمني ما يكابد أبي من حرمان، فإني لاجد بليته تهون إزاء نكبة ابن المأمون. جئت أبثك التهنئة بهزيمة الخرّمي، إلا أني ما أقبلت اليك إلاّ بجبرة، وبودي لو جاهرتك بخذلاننا، وبانتصار الاخرق، مع وفور كرهي له، وامتعاضي منه!

فصاحت نوران، وقد دفعت عنها الغطاء، ونهضت من فراشها توضح عارضها: إن تكن هذه وقفتك من إبن عمك يا ريحانة، فما منعك عني لنتكانف على سحق العقرب؟... والله، ما كان المعتصم غير لدّاغ، نافث

سم ، يهضم الحق على ربه ، ويتأبط الافك . لنتفق على الخلاص من المقيت ، وليتدبر إبرهيم والعباس الامر كما تستصوب حنكتهما . فإن إقرار الامامة فيهما ليحول دون انتهاك رفعتها ، ويصونها من الفلول . أتوافقين على وحدة السعي ، يا ابنة امير المؤمنين ؟

وناداتها بلقب حمله أبوها على متعدد السنين ، منافساً فيه المأمون إبن اخيه . فأعلنت ريحانة بشدة ، تجاهد في بذل العون : كان عليّ أن أسبق اليك الحوادث يا نوران . ولقد أوشكت أن أفعل ، لو لم أبصرك ترتعين في اكناف المعتصم . فان رؤيتي إياك ، تنعمين بعطف أبي إسحق ، أقعدتني عن المبادرة إلى تحريضك على الباغي ، وما كنت أدري أن نوران تقي ذمة العباس الحفوت !

فهزت نوران رأسها ، وقد اتسع لها المجال الى إذاعة سريرتها ، وأبانت : أيدهمك الظن اني اعبث بمنازعي يا ريحانة ؟ ... والله ، لو أعطيت سلطان الارض لازدريته في جنب مودة إبن المأمون . فما يختلج به القلب ، لا تمحوه متعة عارضة . وماذا يبتغي مني المعتصم وقد حباني رفقه ؟ ... سيفسح لي الى حرمه ، فأكون من نسائه . على أن نظرة إلى العباس ترجح هبات أبي إسحق على مداها . وإذا ما أبصرتني أتودد الى الغاصب ، فإن التغرير به يفرض عليّ هذا اللين . فالمعتصم على شغف بي . غير أنه سيمسي رمة نخرة قبل أن يستمتع بمباهج نوران . لنهدمه يا ريحانة ، وما كان للصلف أن يستنسر . فمن الذل أن نطيق عبء الجاهل ، الأغلف القلب ، البغيض !

فاغتبطت ريحانة بهذا العضد المكين . ففي نوران صولة بيّنة التباشير ، ولها من دهائها ، ومن فتنتها ، ما تقود به في مآربها كل عنيد . وما ندّ ، عن ابنة إبرهيم ، ان ابنة عجيف ذات أمر ونهي في المعتصم بالله . فان أبا إسحق ، على

شراسته، لرهين نظرة من مقلتيها . ولكن خفي على ريحانة هذا الاستمساك بعهد العباس بن المأمون . فتراءى لها إن نوران خفرت الذمة، وأزرت بالمصون . أما الآن، فاستجلت النبأ الصحيح . لو شاءت نوران أن تنسلّ من كلفها بالعباس، جانحة الى الخليفة، لاحتلت لديه المرتبة العالية، ولصرفته الى التهالك على استرضائها . بيد أن معاهدتها العباس على الحفاظ، لوتها عن مقتعد الذروة . قالت ابنة ابرهيم بن المهدي : لست تلك العمياء عما تتأبلين فيه من قدرة يانوران . اما وقد نفذت، الى مطاوي مهجتك، فازددت اكباراً لك، وايماناً بك . وإني لاسكن اليك في كل ما تفرضين عليّ من انتهاج شعاب، ما دامت المصلحة تجمعنا . إذا ما دفعتني إلى المتالف، فاني لها . لا تحسبيني على جبن، وقد طبعتني الشدائد بميسمها !

فاستوضحت ابنة عجيف، وقد راقتها الصراحة في هذه الناهدة الى مقاسمتها الجهد : أتؤيدينني في كل ما أصبو اليه يا ريحانة ؟

– في كل ما تحفزينني اليه يا نوران . ما ألقيت بنفسي، على استسلام أعمى، كما أرتمي بين يديك . فانسجي الشباك، وأنا أساعدك على اصطياد الطاغية الطمّاح !

– ليس للمعتصم بقاء يا ريحانة، إن نكن نبتغي العيش الرفيه . فالغاصب ذهب بمدى أجنحتنا . سأدعوك، في الحين الموائم، إلى اطلاق الأوتار . بل سنضفر معاً الدسيسة ونغتال الدميم !

وخاطبتها بالقول الناقم . وتلذذت ريحانة بدمدمة الالفاظ . إن لنوران منطقاً بليغ الأثر في النفس، وهي ذات براعة في اختيار الكلم . قالت إبنة ابرهيم بن المهدي: لن نجري إلا يداً بيد . أنا في صحبتك أنى تتجه قدماك .

فإن لم يمسك بعنان الدولة أبي ، فلا بأس أن يستأثر بالسلطان العباس بن المأمون ، صحبك . فالاثنان خيرٌ من المتعجرف ، المستطيل . والآن ، قومي بنا اليه . وازعمي ، في مسمعه ، أن الأسقام شغلتك عن الحبو في التهنئة ، والتعظيم . كوني أبداً تلك الداهية ، المتفوّقة في مخادعته ، حتى إذا ما استنام اليك ، حدته على حمامه . فليس يؤخذ الجلف بسوى كاذب التدليس !

وساعدتها على ارتداء غلائلها ، وقد فاحت منها اعراف الطيب . فكأن ابنة عجيب نافجة المسك ، وفوح العطر ينتشر من جميع مسامها . ففي شعرها قارورة من شذا الياسمين ، وفي مبسمها رائحة البخور . وأجلّت فيها ريحانة بدائع القدرة ، دون أن يهيج فيها الحسد . وإبنة ابرهيم بن المهدي لم تعدم آيات الوسامة . إلا أن نوران أبعد وثبة في مضمار الحسن

وتهادتا إلى المعتصم على جزيل المسرة . أمستا على وحدة في الأرب ، وقد وفقت بينهما النكبة . وما استطاع ، من ابصرهما في رشاقة حركاتهما ، إلا أن يميد لفرط الشوق إلى طلاقة الصباحة ، ويبارك الباريء المبدع . واستأذنتا على أبي إسحق ، فقفز اليهما بحنين المستهام . ولاحت له نوران فهفا اليها باسطاً ذراعيه ، يكاد يعانقها . وصاح بغبطة الممتلىء الجنان حبوراً : ألا مرحباً بمن تكتمل بها فرحتنا ما بك تتنائين في اليوم البهيج عنا ، يا نوران ؟

قالت ، وهي تتقصف بين يديه إفراطاً في الانحناء : جذل أمير المؤمنين جذل الامة كافة . فالبشرى عمت الأقطار ، ونزلت منا نزول الغيث على الروض الظمآن . فما اشتهينا إلا أن يبلغ الخليفة المكرّم ، من عدوّه ، مبلغ الافناء ، وقد طالت المحنة . لا كان للزنادقة أثر في دولة أبي إسحق . وما عذري ، عن الوثوب في الموعد إلى سندنا المنيع ، غير وعكة قعدت بي عن

المجيء في الاوان . فعفواً عما لا حيلة لي فيه يا أمير المؤمنين !

فأبدى ، وهو يترنح اطمئناناً ، واعتداداً : عوفيت يا ذات الندى المحي . إن طلعتك لتبدد عن الفؤاد العناء . ولقد دعوتك إليّ كي نتبادل التهاني في يوم إحراز الأوطار . لا ، ليس للؤم أن يطغى يا نوران . فالأفعى ، أنى تعالى فحيحها ، سحقناها . فما لبابك ، ولاخوانه المنافقين ، أن يعيثوا أبداً أمننا . ولا محيد للشر عن القهقرى ، مهما طالت مخالبه ، ورهفت أنيابه . وإذا نعم الحرميّ بالفرار ، فان أمده لقصير . سوف يلوح لك مكباً على وجهه ، يلتمس عطفنا ومرحمتنا . ولكننا لن نعفو يا نوران ، وإن يكن العفو من شيم المساميح . فمن قاتلنا ثلاثاً وعشرين سنة ، وبطش بمئتين وخمسين الفاً من بني قومنا ، ونسخ عقائد الدين ، وأباح المرأة لكل طالب متعة ، فلم يصن الاخت من أخيها ، ولا الابنة من أبيها ، ولا الأم من ابنها ، فبيحٌ بنا أن نبقيه في الأحياء . فإن آخرة الرجيم للشفرة الحاصدة ، والحفرة الطامسة . لسنا من أمة ، اذا ما رُوعت في سربها ، وطُعنت في كرامتها ، فزعت الى الحلم . بابك الزنديق أضحى رهينة التراب !

قالت لا تخرج عن وارف بشاشتها : كل ما ينهد اليه أمير المؤمنين لا يعزّ عليه . فمن بسمت له الضلاعة ، والحنكة ، بسمت له الدنيا . ما كان للخرّمي أن يستطيل ، والمعتصم بالمرصاد . لقد لعب الهوس بالمأفون ، وهو ينطح صخرة ، تحطمت عليها قرون العتاة الاعلاج !

فراعه حسن مقالها . الله منها كم تملك من فتون ، وقد حازت تجاذب البهاء ، والبيان . وسدد اليها عين الصبّ الولهان . وعضّ شفته حتى كاد يدميها . لن تكون له ابنة عجيف ، وقد سقط اليه أن العباس سلم من الغائلة ، وارتدّت

عنه نصال الاتراك فاشلة ، كليلة . وكاد المعتصم ينشق غيظاً . وتراءت له خيبته في القضاء على ابن اخيه بمقدار خضده شوكة الخرّمي . نجا من الكوالح جمعاء ، وقد روّض أعداءه كافة ، وما كلّ عن سوى العباس . وفي الكلال عن العباس ضاع نوران

وأرمد عينه الاخفاق . أيذلّ الدنيا ، ويعجز عن فتى أرعن ، عيّ اليد ، والذهن ، واللسان ؟... وشاهدت فيه نوران الارقاض ، بعد البشر . وأحرقها ناظراه المتيّمان ، فاستدلت على مكمن النقمة فيه ، واستوضحت : ألا متى يرجع الكماة الشوس من جبهة النزال يا أمير المؤمنين ، وقد بتنا بشوق الى الأحباء ؟

فصرف بأسنانه حنقاً . إن نوران لتذكر العباس ، وتعيّره الالتواء في القضاء على الفتى . لم يقم بما عاهد عليه في حسم مناوئه في هواه ، كي تسترسل الى شغفها به . وساءل نفسه ، وهو يبلع ريقه ، ويتألم في سويدائه ، عن الدافع الى خذلان أشناس في محو العباس بن المأمون . تقهقرت المكيدة عن أمدها . وكيف يدرأ عنه تبعتها ، وقد افتضحت لابن أخيه ؟... فهل له أن ينفي سعيه لها ؟... وهل يؤمن العباس بهذا النفي ، يجاهره به عمه ، وليس من يرغب في استئصاله غير المعتصم ؟

وحقد الخليفة على قائده أشناس . إنه لنكسٌ ، مخضود الذرع . وأطلق في نوران عينين غاضبتين ، خائبتين . فالسواد شاب اليوم الأغرّ . وذهل أبو اسحق عن نفسه ، وبات لا يدرك ما يخاطبه به مهنئوه من بهيج المقال ، كأن الأرض تدور به . ولم يجب نوران عن موعد رجعة الأحباء . فيا لها من شامتة ، باترة اللسان . فتستطيل حتى على الخليفة ، ولا تبالي . كأن لا خطر لديها لعظيم . وكاد يصرف عنه الجميع ليبقى لها وحدها . فما يقعد به عن إقناعها

بضرورة الانسلاخ من ابن أخيه لتحبس عليه نفسها ؟... وإذا أبت ، فلن يعزّ عليه اكراهها على الامتثال لمشيئته ، وهو المولى الأثير

وعجّل في النجاة من ذلك الحشد، المالىء قصره ، ليخلو بنوران . وناداها اليه وقد اتسعت له الوحدة . وما ابتسم لها، وهو العاشق الحانق، بل خاطبها بجفاء المحب المكلوم الحشاشة. قال : دعيني من اللفّ والدوران. أصبحت منك على طاغي الحنين . وإذا ترددت في أن تهبي لي نفسك ، في هذا اليوم الأبلج، فكأنك تفسدين عليّ سناه. لم يبقَ لي، كي أبلغ من المسرة ذروتها، إلا أن أراك ترقين بين ذراعيّ !

فابتسمت ابتسامة النازع الى تلطيف دكنة الجو، وقالت: ليس لخنفساء، أشبه بنوران ، أن تقلق صفاء أمير المؤمنين . فلا كانت، وهي الهباءة في ناديك ، اذا خطر لها ان تؤلم سيد البدو والحضر . وإذا ما طاب للخليفة، كي ينجو من شبحها الكريه، أن تمحى أصولها، فان في صدرها حقاً من السم لا يصعب عليها ان تجرع ما فيه فتموت . لعينيك ، يا أبا إسحق !

فزمجر : لست أنهد الى استئصالك ، بل الى الزواج بك !

فأجابت باطمئنان الواثق بأنه ما أتى أمراً فرياً: ولكن ما اتفقنا عليه لم يقترن بالانجاز ، وما يزال العباس في الأحياء. أأكون لك، وابن المأمون يرقبني في البرّ في العهد ؟ ... إني لأحقر من غبار نعل إذا فعلت . نوران تربأ بنفسها ، أن يقال فيها ، إنها خفرت ذمة من والته ، يا أمير المؤمنين !

فزعق وكل ما فيه على غليان: ألا تدرين أن ليس لكلمتي من يردّها، أيتها المتلاعبة بنهيتي وصميمي؟... والله، ما كان المعتصم هُزَأة كي تسخري به. أنا رب الناس في هذه الدولة، وعليهم أن يخضعوا، بلا استثناء، لمشيئتي .

وما أنت إلا منهم . فحذار أن تحيدي عن أربي . ستكونين من نساء أبي اسحق. بل ستكونين من حظاياه إذا مضيت في مكابرتك. فلا يغرّنك حلمي!

وهجم عليها يهمّ بها . فصاحت به صيحة عالية، دون أن تتراجع، كأنها لا ترهب وثبته: مكانك، يا أمير المؤمنين. إن هذا السم لأقرب اليّ منك. فاذا ما لمستني جرعته، ورحم الله نوران. لن تصل اليها إلا وهي جثة هامدة. وما هذا ما يقدر الحب على العاشقين. فالعنف ما كان ليوثق القلوب، وليدني الأرواح، وهو يزيدها بعداً ونفاراً . مكانك ، أجل . لست لك نوران وقد أخفقت في السيطرة عليها . أهون عليك أن تضرب بحسامك عنقها، من ان تطوّقها بساعديك !

وانتضت من صدرها حُقّ السمّ، وألقته الى ثغرها. وأيقن المعتصم أنها جادّة، فخشي أن يخسرها إذا ما ضمّها اليه، ونال منها . فجمد مكانه وهو يتملّل، ويقول بصوت كئيب، صديع: آه منك. انك لويلٌ على مهجتي، ونارٌ على كبدي . ما عرفت من أبناء زمني الاستشهاد عليّ إلا يوم كلفت بك . ألا رحمة للخليفة الشقي!

فأعلنت تجاهد في الافلات منه، دون ان تمعن في قهره: لن يكون شقياً أمير المؤمنين، ونوران لا تنسى ما عاهدت عليه. فما يزال لدينا متسع من الزمن لاجتثاث عود ابن المأمون !

فقال وقد أرهف لها أذنيه ، ودنا اليها مسترحماً ، مستشفعاً الى نفسه : وكيف يا نوران ، كيف أيتها الساحرة المعذّبة ؟ ... إرشديني الى سبيل تتسع لي اليك ، وقد عدمت الهدى في الاستيلاء على كنزي الثمين !

فأوضحت بما تملك من جزيل الدهاء : باضرام حرب أخرى تلتهم نارها

الحائل العتيد !

– أنخوضها معارك لا ينتهي لها أمد، ونبيد الناس كي نظفر بالمنى ؟ ... غالبت في مهرك يا ابنة عجيف !

فابتسمت وقالت تبرّد من غلوائه : ولكن من تضنّ عليك بالحب لم تبخل عليك بالمجد، وأنت الموفق في كل صعيد دفعتك فيه . فليذكر أمير المؤمنين أنه مدين لي بتدويخ بابك، وبسحق العلويين والزطّ. وهي شواهد نصر باذخ لم تتوّج مفرق سواك من الخلفاء العباسيين الصيد. فإذا خضد المنصور، جد أبيك ، شوكة أبي مسلم الخراساني، فما أقتحم معقله، ولا كسر ذرعه في عقر داره، بل ناداه اليه، واغتاله في ايوان ضيق مظلم . وما أبقى لأبي مسلم شفرة يردّ بها عنه سورة الاعتداء المغلّ الكفتين. أما أنت، فأنقضضت على أحراز الخرّمي تفتّتها حجراً حجراً، وتقتلع أوتادها وتداً وتداً. وهي، لعمر الله، صولة ما ادركها غير القشاعم. وليس لمن اقتعد سنام هذه القدرة، أن ينوح على حب زريّ، وقد روّض الجسيم العزيز. حسب المعتصم أن ينتزع الثعبان من جحره، بعد كفاح دام ثلاثاً وعشرين سنة بلياليها، لم ينعقد فيها للأمن هدب قرير !

فاستهان بالمجد، على رحابة تخومه ، حيال خذلانه في حب غانية استهوته ولم تجبه الى الصبوة . وقال وهو يتأوه : نظرةٌ واعدة منك ترجح كل ما نفحني به الزمن من جاه ومرتبة . ألا كوني لمن يستميت في حبك، ولا تحمليني على الخزي، فيزدريني قومي . ليس ما يقف بيني وبين قضاء اللبانة منك ، على رغمك ، غير همهمة تشيع في الآذان ، ويرددها بعدي التأريخ ، ناشراً ان المعتصم استنزف في ابن أخيه كل خلجة من رمق . فلحاه حتى بمن

يهوى، وتركه عوداً يابساً للنار. أتريدين أن نعيد الكرة، فنوفد العباس الى حتفه، يصارع الفناء ؟

فهتفت بوارف المسرة : نعم، نعم يا أمير المؤمنين. وسوف يبدو لك ان السعد يلازمك كظلك. فتنسف الجميع، وتخرّ نوران ساجدة بين يديك. حرّرني من قيودي، وأنا لك كلي. فلا رونق للدنيا إذا لم تجمعني علالات الشوق بأبي اسحق !

فأشعلته وجداً، وترنح عطفاه هياماً. انها لموقدة النار في الأكباد هذه الفاتنة، المقتعدة القلوب. وظل عنها بعيداً، وما كان ليتوافر له ان ينجو من سحرها. قضت عليه بالجمود، وإنه للأشلّ. وغمغم من صدر يضيق، ومن وحنجرة تكتوي : أطلتِ دلالك يا نوران !

وودّ لو باع كل ما حاز من جلال، وعظمة، واشترى نوران بنت عجيف. إنه ليشتريها بكل ما في خزائنه من مال، وبكل ما في قبضتيه من سؤدد. وأعتزم، لأجلها، خوض حرب أخرى، تنقذه من إبن أخيه. فما دامت نوران تريد إضرام اللهب، فلتحترق الدولة حتى أقاصيها في استرضاء المتعنتة. بالامس العلويون والزّط، واليوم بابك، وغداً من يكتب له القدر أن يكون، ممن قضت عليهم ابنة عجيف بالموت الماحي، الذريع !

الجزء الثاني

وردة على قبر

١

خفقت الأعلام العباسية السود، في سر من رأى، تذيع بشائر النصر. وما برح قصر المعتصم يضيق بالوفود، وقد نفر اليه حتى الشانئون. وللظافر تعنو الرقاب بأسرها، مع كل ما يبلغ بعضها من صلابة وعتوّ. وما تقاعدت بغداد عن الشخوص الى ابي اسحق تبارك في الفوز الانور. فغفرت له نزوحه عنها، على ما تكابد من مضض القطيعة. ورأت فيه وحده السيد المهيب، المطاع. وأطلّت الجيوش المظفرة تملأ الرحاب، فعلا الهتاف من كل حنجرة، يحيي الضراغم الغطاريف

وبدا الأفشين في الطليعة، ووراءه العباس بن المأمون، فأشناس، فإيتاخ، فعجيف، فبغا، قادة الجيش الاروع. فابتسم أبو إسحق للأفشين. إلا أن البسمة ما استطالت في محياه، وقد بدا له العباس بطلعته النضرة، وصباحته المشرقة، كأنه في قسمات ابيه المأمون. فغصّ ابو اسحق وهو يبصر ابن اخيه. وتمنى لو اتقى مرأى هذا الشبح المقيت. ألا ما حال دون محوه، وقد عُهد في الامر الى اشناس، أيكون القائد التركي ذلك الحيران، الكليل؟

وأغار حاجبا المعتصم على عينيه امتعاضاً وجفوة . ليفترسنّ أشناس الحسير العي . فأين ما تخرّص به من دهاء وقدرة ؟ ... ألا كم غالى المستضعف في الدعوى . ضخامة هيكل على هشاشة وكد . أف للمظاهر ما أخدعها !... وسألت بطانة المعتصم عن هذه الكمدة الشرسة ، الفاشية في أسارير أبي اسحق . أتنتفض فيه النقمة في اليوم الغرير ، الطرير ؟

وأطلق الخليفة في أشناس ، وقد مرّ بقربه يحييه ، باصرتين صاعقتين لفرط ما تنفثان من كره، وسخط. وما غاب عن القائد التركي حنق أمير المؤمنين . فارتعد. لم ينقذه من شر العباس المنافس الالدّ. ولكن البسمة، المحوّة، ما لبثت ان تجلت في اسارير المعتصم بالله وقد لاح له عجيف بن عنبسة . هذا والد نوران ، مليحة العرب والعجم . ودنا الأفشين من سيد الدولة ، ينحني في حضرته، ويقبل يده هاتفاً : السلام على أمير المؤمنين ، حامي ذمار الدولة العباسية ، وكاتب المجد في ألواح الخلود !

فانحنى المعتصم ، وهو بين ولديه هرون وجعفر ، على خيذر بن كاوس يقبله في رأسه، ويقول بنشوة الاعتزاز: عوفيت يا أبا الحسن، وسلمت يمينك. أيقنت أني في الاكفياء من رجالي، وأنا أبصركم حولي، رجال الاقدام والولاء. ألا مرحى ، ان أمة أنجبتكم لجديرة بأن تعتلي أسوار البقاء !

وصافح العباس، ابن اخيه، وابتدره بفورة من مصنوع الغضب: أصحيح انهم انقضوا عليك بنصالهم يا ابن أخي، فحطمت النصال وبترت الاعناق؟... انك لابن ابيك. كفيتني مؤونة طحنهم. يا للانذال!...هل طمعوا في محقك عابثين بجلال ابيك ، وبمنعة عمك ، وأنت تذود عن حوزة المجد ؟ ... والله ، هذا زمن بطرت فيه الخنافس ، وزخر بالجاحدين . ولكن على من

تتجبر الحشرات يا عباس . فداك عمك المعتصم ، من كل أذى يعروك !

وضمه الى صدره ازدلافاً في الحنين ، مع انه اشتهى أن يخنقه . وارتاع العباس حيال هذا الفيض من المصانعة ، فكاد يصرخ بعمه : « ولكنك من رماني باولئك الاوغاد يقتنصونني . أحقداً وكيداً يا أبا اسحق ؟ » . غير ان الموقف لم يكن يسعف في جلاء الخفايا الكوالح ، وليس ليوم النصر أن يتلطخ بالشين . إلا ان هذا المتماسك عن البوح بما يعلم من مكايدة عمه له ، ما استطاع أن يتحامى تسديد النظر الساخر إلى المعتصم ، لمجاهرته بما لم يغب عنه من غلّه . فأصيب أبو اسحق بالضعضعة تحت وقع النظرة الخادشة ، وبلع ريقه . وظهر لعينيه « إيتاخ » فبدد فيه الارتباك المستشري ، وقد قبل القائد التركي الارض بين يدي الخليفة صارخاً : عاش أمير المؤمنين قائدنا الى النصر !

فرددت الجموع من بعده : عاش أمير المؤمنين !

فرفعه المعتصم اليه آخذاً بيمينه ، وهو يقول بفرحة ريّا : وعشتم أنتم عيون الجيوش الامينة ، المنصورة ، يا ايتاخ !

ولم يشحّ عليه بقبلة الرضى . ودنا منه أشناس يزحف زحف الخنوع ، فتجاهله . بيد أنه ما كاد يسجد عند قدمي الخليفة ، ويقبل الارض ، حتى أشفق عليه أبو اسحق من فرط ذله . وصاح به بما فطر عليه من لين ، بجنب ما يتنمّر فيه من شدة : ألا أكرم نفسك يا أشناس . انت من هؤلاء الاشداء الموفقين في حسم المحنة ، لا من ارذال الناس !

فاستحيا أشناس ونهض ، وفي وجهه خجلٌ وشحوب . فقال المعتصم ، وهو يجود عليه بيده ليقبلها : ليس لذي سهم في كسر أعدائنا أن يعفر جبينه في التراب !

فتعاظم اكفهرار القائد التركي، وتقلّصت قامته المديدة، فبات خيالاً يكاد يضمحل. لطمه أمير المؤمنين في انفته لطمة موجعة رضّت عظمه، ونفثت في روعه الهول. لا، لم يكن عند حسن ظن ابي اسحق. وبدا عُجَيْف بن عنبسة فاستبشر أبو اسحق، وبسط يده للقائد المنحني بين يديه بخشوع هاتفاً به: مرحباً بقدوة الابطال!

فأدهشت هذه الرحابة والدنوران. لكأن المعتصم يجهله. وتغامز العباس وابنة عجيف، وهما يبصران الخليفة يهش ويبش لابن عنبسة. وشفّت الغمزة عن استهانة بأبي اسحق. ألا كم يجهل مكنون النيات. ووقف أمير المؤمنين في الاخلاط، المنشورين في باحات القصر في متراصّ الزحمة، حتى لم يكن لصدر أن يتنفس بهناءة لفرط التحاشد. وخطب فيهم يقول: الحمد لله وقد أقامني عليكم سيداً، كي أردّ عنكم غارات العدوان، وأنشر عليكم رايات الحق. ارتفع للبطل فينا مثوى آمن فدككناه. وعلت للكفر هامة عنود فشدخناها. أنتم اليوم في منعة من الشر والضغن، فاشكروا الله. وما كان المؤمن الا شكوراً. واذكروا نعمة ربكم عليكم. إبليس وحده لم يكن ذكوراً. هذا يوم الايمان والنصر، فابتهجوا وانهجوا النهج السويّ، وليس للضالّ فينا مقام. فما نبسط جناح الأمان على سوى من اتبع الهدى وهدى!

فوثبت صيحاتهم من صدورهم صواريخ تلطم جبين الفلك: عاش المعتصم بالله، القاهر الهادي!

فابتسم لهم ابو اسحق. وانحنى بعض انحناءة يحييهم بها. وتوارى يبقيهم لهتافهم بحياته، وعدله، وقدرته. وقُرعت الطبول، ونفخ في الابواق. وانطلق

الجيش إلى ثكناته يلقي فيها عنه اعباء المعامع الناهكة ويستريح. أعطى من نفسه كل ما يملك من عزمة. وتألقت في الليل سرّ من رأى بأشعة جلت الدهمة، كأن النهار لا ينفك يمدّ بساطه. وأقام أبو اسحق يصغي الى المغنين والى الشعراء في امتع أناشيدهم. ويبصر القيان في رقصاتهن الميّاسة وصدره لا يتسع للدنيا المطواع. فهو لا يرى في الحفل نوران. ألا اين هي ابنة عجيف يقع عليها نظره فيطرب، وتشنّف أذنيه بحديثها الخلوب فينتشي، وقد رجحت لديه كل ما يعرض له من آيات المسرّة ؟

وأدرك أين هي. إنها لفي لصق العباس، ابن اخيه، تبثه اشواقها. وأجال عينيه في من حوله، فلم يبصر العباس، فاشتعل غيرة. وسال العرق من جبينه، ومن فَوْديه، وسبح في مائه، فابتلّت ثيابه، وضلّ عن نفسه. لكأنه غريب عن كل ما يقع حوله من حبور وأنس، و كأن هذه الافراح، المالئة دولته، لا تمتّ اليها بصلة. فما أحقر الدنيا، وقد خلت من نوران!

ونوران بلصق العباس. صدق أمير المؤمنين. فهي تشكو إلى من تهوى ظلم القدر. قالت تتبرم بلؤم الزمن: ألا ماذا تقدر عليّ من سعي فوق ما أبديت ؟... والله، ما هدأت لي قدم، ولا سكن لي بال. فقضيت الليالي في استنباط معاضل، وتدبير دسائس. وأفلحت ولم أفلح. أفلحت في تشييد العقبات العُنُد، وأخفقت في تأبيدها، وقد وفق عمك لنسفها، والعبث بها. دعوته الى مقاتلة بابك فصرعه. وبابك من لا يخفى عليك أمره، وأبوك، السيد الأمثل، لم يهدم وكره. ورشقته بالعلويين والزطّ، فاستعلى في المناكرة. وأنى لي، بعد كل مجهود سفحت، أن أُحطم شأوه ؟

وشاع فيها الجزع. إن الموت ليخضخض نفسها. سلكت كل سبيل

وتضاءلت عن بلوغ الهدف. قال العباس، وقد لاحت له ندوب، واليأس امتصّ منها بعض نضرتها: نزع الغاصب إلى قتلي، فرماني بشيعته الأتراك. إلا أني بددت شملهم، بل نثرت جماجمهم، فتساقطت كأوراق الزهرة الذابلة. وهاج الجند وهبّ الى الثورة. وكانت بيني وبين أبيك والأفشين مؤامرة حبا فيها الأفشين الى الاعتدال. فجمعنا أمرنا على السكوت عن القانص العاتي، ريثما تتدبر أمر بابك. ولقد هزمنا بابك، إلا أننا فسحنا له الى تنظيم موئله، كي يظل نصلة مغمدة في جنب المعتصم. وسنوفد اليه، وقد لمّ نفسه، من يدعوه الى مظاهرتنا على عمي. ولا بد أن تسأليني عما قعد بنا عن مباحثته في الأنضمام الينا، وهو ذلك النسر الطويل الجناحين، الحادّ المخالب. وجوابي إن حثّه على المسير بجانبنا كان محالاً، وهو ذلك الرهيف المنسر، المجدول الساعد. أما وقد أيقن أننا تفوّقنا عليه، فسيجري طوع أيدينا. وشيكاً وندفع اليه رسلنا، وتزهق روح إبي إسحق. لا تجزعي. ليس البطل حليف الخلود!

فما أزوت بما تسمع، والرأي لا يخلو من الصواب. على أن الحرقة ما زايلتها، وما انفكت تلتاع. قالت وهي تكتوي بجحيمها: إذا لم تبشر مساعيكم بالنجح، فإن لديّ طريقين الى زحزحة الغاشم عن مستقره. سأغريه بدم ابن حنبل، وأجرّ الى مناوأته رجال الدين. فلا يبقى فطيم إلا وينبري للذود عن الحبّر الشهيد. وأطلق الى الروم احدى الهاشميات تتحرش بهم، وتستعين به عليهم مولولة لعرضها المثلوم: «وامعتصماه!». فلا يتماسك عن التلبية. ويذروه عدوّه التليد غباراً في النوء، وما يبرح منهوك القوى بعد منازلة الخرّميّ، القرم الصلب. إي والله، يا شقيق نفسي، إني لانام وأنا

أحوك المكايد . وأنهض وأنا أخبطها ، حتى امسيت لا احفل بسوى الدس والروغان !

وتأوهت وأعلنت بشجو ناهك : ما حسبت النكد يرافق خطوي ، وأنا أستطير حنيناً اليك . فأين ما عللتُ به نفسي من نواضر وطرائف ؟ ... والله ، ما أيقنت أن الدنيا أخاديع ، واكاذيب ، إلا وانا أكابد في هواك كل عسير . وزاد في حنقي ، على زمني ، اني في سعي على محض الاخفاق . لا ، لم يصرعني البأس يا ابن المأمون ، وما أبرح على مناعة ، الا ان عيني تبدلت في تحديقها الى لباب الامور . فبتّ أجد الراهن المحسوس خيالاً ، وأسود الجأش حالي العود !

فابتسم لها ، وقد خلع كبده تأففها بما عراها ، في مودته ، من جسيم الخطوب . وقال يتكاره على ابداء المرح ، فيما يدعوها الى الاعتصام بالرجاء : على هونك يا أخت روحي . فلن تمتد الأيام في نحت شأونا . إن يكن المعتصم فاز بالخرّمي ، فما يزال المقهور طليق اليدين . وقد يستعيد صولته ، وما استأصلناه . وله شيعته وجيشه ، ولن يعزّ عليه أن ينشط في جمع فلوله ، والوقوف للهلكة يفلّ غربها . وإن سقط في ذرعه ، فلن نغفل عن أن ندين بدينك . فننظر اليك تغرين الغاصب بابن حنبل ، وبمناجزة الروم . وما يحول دون انقضاض الجميع عليه بما يقلقل ركنه؟ ... أصبحنا نجد ، في كل ما يرمض روحه ، عوناً لنا على ابادته . ساخاطب أباك والأفشين بما استولدت مخيلتك الخالقة . أمسيت وحدك صاحبة الرأي فينا ، وما نحن غير سهام تسددينها الى صميم هدفك . مرحى لليد الأمينة في رشق النصال ، وما تطيش لها نبلة . فليس للعاتي أن يرسخ في طغيانه ، وأنت ترشقينه بمقتك السديد !

وجنح الى دفع الهشاشة عنها، وما يريدها قانطة، رخوة المكسر ، وقد تجلى له في عقلها الشبيع ، وفي مضاء فطنتها ، ذخرٌ من نجـدة يتقاصر عنه جيش لجب . ودنا منها يطوّقها بساعديه، ويدللهـا بالقولة اللدنة ، الحلوب : بروحي أنت . والله، لو لقيت حولي، من يضاهيك في نصيح المشورة، لبات الغاصب ، منذ عهد طويل ، نخر العظام !

وقبّلها بمستفيض الشغف،وهي لا ترفع اليه عينيها،وقد غاصت في كاسف الشجو. فما دهمها من الجيف أقلق فيها صفاء اللفتة،وبهجة الحركة. وأحسّ العباس بن المأمون بحرقتها، فقال يسرّي عنها : هلا قمتِ بنا الى الافشين نعرض عليه امرنا ؟ ... ستروي له ما تنزعين اليه لبلبلة موقف البغيض . وأبوك عنده. غادرنا عجيف، الساعة، لمباحثة الأفشين في موقفنا من الأتراك بعدما كان منهم في السعي لاغتيـالي . أنطلق لهم مطاولهم ويرعون في حصائدنا، أم نمسك بأعنتهم فلا نبيح لهم من الأشر، والغلاظة، ما يخضدون به شوكتنا ؟

فهتفت وقد شاقها أن تباحث الأفشين في منازعهـا : لننهض الى أبي الحسن . هذه الحوابس علينا أن نجلوها وليس للضيم أن يطول !

والأفشين،وعجيف بن عنبسة، لم تكن فرحتهما، بتقويض بابك الخرّمي، دون طربهما لنجاته . فما يزال شبحاً رهيباً يفسد على أبي اسحق طمأنينته، ويحفزه الى الاستمساك بقادته . قال الأفشين باعتـداده وجلاله : والله ، لو شئت لطحنت عظامه يا عجيف ، الا اني ابيت ان أخرق مناعتي بيدي . بقاؤه حياً عونٌ لنا على المستنسر، المقتعد الذروة . فما أن يطوف به خياله حتى يرتعد، ويهرع الينا مستنجداً بنا. اننا لقابضون من الغاصب على عنقه وبابك

ذلك الطليق الجناح . فلا يتنفس أبو اسحق الا بمقدار ما تبيح له أيدينا الممسكة بمخنقه . على ان هذه القبضات الخشان، لن تنحلّ عن جيده، إلا وقد استحلت دمه . نحن ولاة امر هذا المعتلي الاريكة اعتسافاً . غير ان العباس، يا عجيف ...

وكاد يجلو نباته . فأي مستضعف هو العباس بن المأمون كي يتسلق القمة، وقد وهنت دونها قدماه الركيكتان ؟ .. غير ان السانحة لم تتسع للبيان . فالعباس بالباب يلجه، ومعه نوران . فنهض الافشين مرحباً، وما يبرح العباس سيده وابن سيده، مهما تضاءل من عزمته . وفسح ابو الحسن للزائرين صدر مقره . وتحدث عما يكيد للمعتصم، فقال: إن عهده لقصير . فما أن ينبت ريش الخرّميّ، وتطول قوادمه، حتى نحتضنه وندكّ به منعات أبي اسحق . هي بضعة أسابيع ونشهد حرباً اوجع . الا أن المواقف تتبدل فيها . فيمسي بابك من أنصارنا، ونبيت إلباً واحداً على المعتصم . كان بوسعي أن أغمد في صدر الخرمي نصلتي، يا ابن المأمون، غير اني ابقيته ذخيرة ليوم أكرم وجهاً . وسأدفع اليه من يزيّن له العودة الى المصاولة، ويضفر له من الوعود ما تسكن اليه نفسه . لا ، ما هدأت النائرة ، ولكن غلّفت بالرماد !

فقال العباس : ليس للكثرة أن تتخذل حيال القلة، يا أبا الحسن . نحن معظم الأمة في مناوأة المعتدي على الحق الأنور. وما كان للأمة أن تنهزم لينتصر عليها نفر من الشذّاذ . ولقد جئت بنوران كي تعرض عليك ما يلمّ بخاطرها من الطمحات . فهي تجنح الى اثارة المعتصم على رجل مرموق، وعلى قوم صلاب الاسنّة . فاذا سلم من تبعة ذاك، فلن ينجو من شر هؤلاء !

فأكبر الأفشين في لب نوران سعة الدهاء، وما زال يحدج هذه القسيمة

اللعوب بعين الاحتراس. فإنه ليجهل بجانب من هي، وما أن تلوح له بقرب العباس، حتى يقع عليها بلصق المعتصم بالله. فمن تصانع من الاثنين، وليس لمودتها قرار ؟... على أن خيذر بن كاوس أخرس ظنونه، وأبدى الرحابة. ورنا الى ابنة عجيف يسألها عما تدبر لأبي إسحق من محرجات. قال وفي أساريره طافح الابتسام: ألا هاتي، يا مالكة النهى، ما أجدت إعداده من حاطم، كاسح. أيقنت أنك فينا العقل الوازن، والرأي النضيج !

وظلت ابتسامته منبسطة في ملامحه، وما خلت من تكلف وخبث. فقالت نوران: يدهشني في الرجل، يا أبا الحسن، إن الحظ خادمه. فما أبقيت على داهية إلا لطمتها جبينه، فارتدت عنه تبوء بالخزي، والعقم. ولا أدري. هل ينجع فيه ما لا أزال أنسج له من دسائس، وهو عن العوادي في حرز مصون ؟ ... أفلقتني مناعته، حتى لأكاد أحسبه من الجنّ !

فأيدوها في مقالها الحائر الملتاع. وقال الافشين: على أن الحظ لا يوالي سرمداً يا نوران، وهو لزمن موقوت. وقد يكون إدباره يفسح الى اقباله. فانثري عليّ ما طاب لك رسمه من خطط التقويض، وكلي مسامع صواغ إلى بيانك النضير !

قالت وهي فريسة الشجو الأرمد: حدثتني نفسي، يا أبا الحسن، بعدما أفلتت منا مساعي الابادة، على محكم صياغتها، أن ازخرف للغاصب التحكك بابن حنبل السجين. فيكرهه على القول بخلق القرآن، فيعاند رجل الدين. فيأمر المعتصم بضربه. ولا بد أن يحتمل الامام الضرب، ممسكاً على رأيه في كون الكتاب صنو الازل. ويضيق صدر أبي اسحق بهذه المكابرة، فيبطش بابي حنبل ويريق دمه. ولا بد للدم المراق، ظلماً، من ان يستصرخ

العدل والحق المخذولين ، فتهب الأمة، على بكرة ابيها ، للأخذ بثأر الامام الشهيد !

فصاح الافشين بفيّاض الجذل : أحسنت يا نوران ، يا ذات الفكر الخلاّق . والله ، انك لتزجين الينا عرائس الحجا أبكاراً، لا يعلوهن شبن . أنت ذات خيال عجيب يا ابنة عجيف . ولم يبق علينا، لنقصير مدى العاني، الا الاخذ بما انساب الى ذهنك الجبار !

وأكبر فيها الوحي الملهم . مقتل ابن حنبل، بسيف المعتصم، يقيم الدنيا ، ولا يقعدها على سوى ضريح المعتصم بالله . قالت نوران: واذا خاب هذا المسعى،يا أبا الحسن،فقد أجمعت على هادمة ليس بعدها زيادة لمستزيد. فان لم ادرك بها المنى ، فعلينا جميعاً رحمة الله !

وتحمست نوران. واتقدت عيناها ببارق الغيظ والألم.فاستوضح الأفشين بشدة، وقد استولت على صوابه هذه المجبولة من طينة تفوق الصلصال كرماً وقدراً : ألا ما هي نصلتك الاخيرة يا نوران ؟... ما هي شفرة تعبت في شحذها، وعييت عن سنّ نصلة امضى منها؟... لا مراء في انها نهومٌ،لهوم !

قالت لا تكتم سرها،وهي الموقنة أنها تذيعه في صدور لا ترشح بمطاويها : سأستعدي عليه الروم !

فانتفض الأفشين اعجاباً . وكاد يسجد ، وهو المجوسي الباطن ، في حضرة ربة الحسن والفطنة،فيعبدها كأنها النار،وما كان يرى فيها غير ألسنة من لهب تندلع،وتعلن آيات القدرة . وصرخ،وقد آمن بموهبة التفوّق في ابنة عجيف بن عنبسة : والله ، اننا لنزدري وهج النضار ، اذا امسكنا عن المناداة برجاحة هداك، يا ابنة عجيف، وما تجودين علينا بسوى التبر المصفّى.

أنت ربة السؤدد فينا ، والأفشين يبايعك ثلاثاً . فهو خادمك المطيع !

وما تناهى في الملاينة والمواءمة إلا ليزيد في ثقة القوم به . فهو لهم عبد رقّ . ولكن هذا العبد الخَضوع، يسوق الجميع في مآربه، وما يساير الا ليجيد امتلاك الرقاب . لينطلق العباس وعجيف ونوران في الدس على المعتصم، وما يجرون في سوى خدمة الافشين . ففي القضاء على أبي اسحق حياة أبي الحسن . قالت نوران تستنبىء : أيروقك ما أزدخر من أساليب الصراع يا خيذر ، وهل تكتب لنا الغلبة فيها ونحن نستظهر بها ؟

فأبان باخضلال أساريره، ولدونة ألفاظ : ليس لنا أن نلتوي وهذه القوى تعضدنا . ولا ننسَ بابك الحرّ الحظوة، وما يزال لنا الساعد الامين !

وهدهدتهم الآمال الصباح . لهم الغلبة، وللمعتصم العفاء . وامتدت أنظارهم إلى الغد الضحوك، فتمثلوا فيه الاماني ملء الوطاب . ولكن راعهم ان يبدو فيهم الحسن بن الافشين قائلاً : ورد حمام الزاجل، على القصر، معلناً سقوط بابك الحرّميّ في قبضة رجال المعتصم !

فوثبوا اليه جميعاً كأن ريحاً عاتيـة هبت عليهم ، فقذفت بهم جذوراً مقتلعة . وتعالت صيحاتهم بهول ، وقد انقلبت ملامحهم ، وجحظت أعينهم، فجلجلوا باستخذاء : ماذا ، ماذا يا حسن ؟

فأدهشه الذعر المندلع من ابصارهم ، ووجوههم ، وحركاتهم ، وقال : ولكني لا أنبئكم بما تقلق له أرواحكم ، بل بما تطمئنون اليه . عدوّكم المشؤوم، بابك، أضحى في السلاسل . ووشيكاً يجرّه الجسر من رأى جنود أمير المؤمنين !

فتداعت عزائمهم، وهتفوا به : ومن أبلغك النبأ ، من ؟

وشخصت اليه أنظارهم تختطف حركة شفتيه . فاذاع فيهم وقد باتوا كلهم آذاناً لسماعه : كنت الساعة في القصر، وقد هبطته حمامة في ساقها رقعة من سهل بن سنباط ، عامل أمير المؤمنين على بلاد ارمينيا . وفي الرقعة ما يبشر المعتصم بوقوع بابك في الفخ . فماد القصر طرباً . وهزت البشرى القلوب ، فترنحت افتخاراً . ويروّعني أن لا يلقى فيكم الخبر ضؤولة من حبور . ألا يطيب لكم أن يهوي الأثيم في الشبكة ، بعد متفاقم عيثه وطغيانه ، فأحرج دعتكم ، وما أبقى على حرمة ، ولا على روح ؟

فسكتوا وبعضهم ينظر الى بعض على هلع وحنق ومرارة . اضاعوا ركناً ركيناً بافتضاح أمر الخرّمي ووقوعه في الاسر . إن الزمن ليكايدهم ، ويمعن في مناهم حصداً وتهشيماً . وودوا الوقوف على جليّة الرواية . قد يكون ضلّ عن لبابها الحسن بن الأفشين . وركبوا فضولهم وخيبتهم إلى صرح المعتصم بالله،وكل ما فيهم على جزع وارتماض. وما لاح لهم في القصر، من مظاهر الابتهاج،أوحى اليهم أن الحسن لم يطش عن النفاذ إلى اللبّ . بات الخرّميّ في حوزة أبي إسحق . وتصاعدت الزفرات الحرار من صدور الكاشحين . وأحسّ الأفشين وعجيف والعباس ونوران بأن ركابهم تخذلهم في صعود درجات الصرح إلى المعتصم. على أنهم اضطروا إلى إظهار الاستبشار، وإلا فالسيف الباتر ما يزال مجرّداً . وانسابوا إلى مقر الخليفة يكبّرون ويهنئون:مدّ الله في عمر أمير المؤمنين، ونصره على اجتثاث جذور شانئيه!

فتلألأ السرور في وجه الخليفة البالغ من زمنه جميع مرتجاه. أي رأس يتشامخ،وفي يمين أبي إسحق، الفيصل الناثر الجماجم في كل مثوى يرين عليه الشغب والدس؟...أضحت الدولة برمتها في قبضة السيد العباسي الرفيع المجد،

الباذخ الدَلّ . واستشرت في أبي إسحق عنجهيته المتناهية الأمد . لم يبقَ في الجو ظل لغمامة تعكر وضاءة الافق . وإن يكن محمد بن القاسم العلوي، يؤلّب في خراسان، الناس على خليفة سرّ من رأى، فسوف يصيده عبدالله بن طاهر، عامل أمير المؤمنين، وليس له أن يبلغ في استعلائه مدى بابك الخرّمي، ذي المعاقل والجيوش

واحتملت نوران، على مكظوم الاسى، هذا الفياش في الخليفة المستأسد . إنه ليستكبر حتى يكاد يناطح قبة السماء، وقد ذلل كل عقبة، وأذلّ كل غطريف . والعباس جاولته الكمدة، وأحس باللذعة تكوي مهجته . أتنهدم الحوائل، بأجمعها، تحت وطأة المختلس المختال ؟

أما الأفشين، وعُجيف، فما خرجا عن طاعتهما العمياء . فالموقف يدعو إلى المداهنة، وهما فيها بارعان . فتقلّصا حبال المعتصم، حتى خيل اليهما أنهما خفقة في جناحيه . ورنا أبو إسحق، الى نوران، بعين الوله المفضوح . ما بها تصدّ عنه، وتعاند في مشاطرته بهجة يومه؟ ... أيروقها أن تبقى لذاك القزم، المتواني عن طلاقة المجد ؟

وتذكّر المعتصم ، وهـو يحدج نوران بعينه الفائرة هياماً ، قائده التركي أشناس . لقد كبا جده في ما انتدبه له الخليفة من إستئصال . ألا ما عاقه عن فصل تلك الهامة عن منكبيها، وإنقاذ مولاه من مرآها الزنيم؟ ... وعاد أبو إسحق يصرف بأسنانه . تهادت اليه جميع الأماني، إلا التلذذ بحلاوة نوران . تباً للدهر، وليس يصدق على جمام في موالاة . ولا بد ان يستبقي بعض ما ينغّص به رونق المتعة السكوب

وخطر للخليفة أن ينتزع نوران، من قبضة العباس إبن أخيه ، والدنيا

مصاولة. فكما اقتحم مقعد الخلافة ، ودوّخ الخرّميّ، له أن يقتنص نوران. والحق لمن يفوز به، لا لمن يملكه. على أن نوران لا ترضى ، وهي تأبى تلطيخ أحدوثتها بالغدر المكشوف الدخلة . وتململ المعتصم . وغرزت أظفاره في راحتيه،نقمة على الزمن . وشعرت نوران بأن العاصفة توشك أن تهب،فاتقتها بالفرار . لقد وثبت الى عليّة بنت المعتصم، المقيمة وأترابها خلف ستار ، في الايوان ، تبثها التهاني : لنا البهجة يا عليّة ، والويل للمنافقين !

وتعانقتا . وأبصرت نوران، بجانب ابنة الخليفة، شقيقاتها، وريحانة بنت ابرهيم بن المهدي. فهفت اليهن تقاسمهن الفرحة . وسددت إلى ريحانة نظرة ومضت بالمواءمة، والنفرة مما يلوح لهما من مظاهر الأنس والمسرة . ودنت نوران من ابنة ابرهيم تتبادلان أحاديث المودة، وفي كل نظرة غمزة، وفي كل كلمة لمزة. إنهما لمتبرمتان بهذا اليوم السعيد، وقد آثرتا عليه الفجيعة والنواح

٢

من بابك الخرّميّ ?... من هذا الناشر الافراح في بسطة العرب بكبوة جده ، ومالىء الدولة العباسية أتراحاً بمضاء عضبه?... فارسيّ ، راعي شياه. توفر في جبال البذّ ، في اذربيجان، على خدمة « جاويدان » ، الزعيم المجوسي، فهامت به امرأة سيده. وانكفأ جاويدان، من احدى غاراته ، مثخناً جراحاً، فمات . فنادت زوجته بعشيقها بابك زعيماً . ودعت الاتباع والاعوان الى نصرته ، معلنة أن زوجها، قبل أن يموت، وصّاها بان تحمل قومه على طاعة بابك ، وهو خير من يضطلع بعده بالمهمة الثقيلة الاعباء

وما انخذل بابك في المقدور عليه . فساس الجماعة، وجرى فيهم على دين « مزدك »، النبيّ المجوسيّ العابث بالحرمات. فالتناسخ، والحلول، والاستباحة، قواعد الدين المنشور . وقاتله المأمون يردعه عن الزندقة، فما تورع « بابك » عن مناوأة الخليفة ، قاهراً جيوش أبي العباس

الا ان المعتصم لم يقف منه موقف الوهون . فشنّ عليه حملة بددت شمله، وأجبرته على الفرار شريداً، طريداً، في الفيافي وشاسع الامصار. وتنكر بثياب التجار. ولحق به أخوه وولده واهله وخاصته. ومرّوا براعي غنم في ارمينيا اشتروا منه شاة، وذبحوها . فارتاب بهم الراعي. وهفا الى سهل بن سنباط، عامل أمير المؤمنين، يعالنه بقوله: لكأني صادفت الخرّميّ يا سهل. والله ، هو هو ، يا ابن امي !

فركب سهل وحاشيته الى القافلة التائهة، وإذا بها في مستقرها . وترجل عامل أمير المؤمنين، وقد أشرف عليها . وحبا الى بابك يسلم عليه بالملك، قائلاً

بانخاءة الخشوع: قمْ الى صرحك، يا ذا الجلالة، واجلس على سريرك. قصري يفتح لك أبوابه على سعتها، فأنزل نفسك منزلتها. ان لك حرزاً يصونك من كيد عدوك، فلا تكلف وكدك الهيام على وجهك في القفار، ومثلك خليق بالتيجان والعروش!

فكأنه صبّ في شدقيه زلال الرحيق، فانتشى. لا يزال السيد الرفيع العماد. وابتسم وآمن بصدق التحية، وبنصاعة الاريحية. وجمجم يذيع سره: لن نبخل عليك بشرف الضيافة، يا ابن سنباط!

وفشا فيه الدلال. لم يت باذخ شأوه. وتماوجت في صدره الآمال الرحاب. سيعود الى الأريكة، ويخضد عنجهية المعتصم، وما يفتأ يجد حوله من يناديه: «يا ذا الجلالة!». وقام الى صرح ابن سنباط يربع بسرير السلطان. فبالغ سهل في إكرامه. ونحر له الاكباش السمان يبذل في الايناس جهده. ومدت المائدة. وجلس اليها بابك وخاصته. وآكلهم ابن سنباط. فشزره الخرّميّ بعين فظّة. وانتهره صارخاً به: أمثلك يأكل معي؟ ... إني لأتعجب من استطالتك على الكرامات، وانت أحقر من نملة!

فامتثل سهل، ونهض على مضض. وانحنى وتراجع، يبالغ في الاعتذار، والاستغفار: عفواً يا صاحب الجلالة، ما كنت أدري أني جاوزت حدي. ولكن من شيمة الملوك الصفح عن العبدان!

وتوارى وجوفه يغلي حقداً. ليفعلنّ وليمثلنّ. وأهاب برجاله الى الاحاطة بالصرح. وعاد الى بابك، ووراءه حدّاد يحمل قيداً. وأعلن بدمائة واحتشام، كأنه لا يزال يمثل دور العبد حيال المولى: مدّ رجلك، أيها الملك!

ففار جأش بابك، وقد تجلى له المصير المكتوب، وزعق: أغدراً يا سهل؟

فنضا عنه إبن سنباط كياسته. وقذف الخرّمي بالقول الصافع، الماحق :
يا ابن الخبيثة ، إنما أنت راعي بقر وغنم ، فكم بينك وبين التدبير للملك ،
وتنظيم السياسة !

وصاح بالحداد : أوثقه بالحديد . ولمثل هذا العائث الأصفاد !

وصرخ برجاله : كبلوا جميع من معه بالأغلال . ليس هؤلاء غير
مناكيد ، يطاردهم العدل ، ويبتغي رؤوسهم أمير المؤمنين !

واطلق الطيور إلى المعتصم يعالنه البشرى . فتمايل أبو اسحق اغتباطاً .
ألا ما اشهى ما يسقط اليه. فلتنشرح الصدور، وقد زايلها الكابوس الهاصر.
وأوفد على عجل، الى سهل بن سنباط، قائده الافشين في كتائب موّارة، تعود
اليه بالزنديق الثائر . وكتب الى الأمصار يذيع فيها النبأ الطروب . كل
عقبة تداعت، ولم يبقَ سوى وجه الحق الصبيح

والأفشين زحف في جيشه العرمرم، الى سهل بن سنباط، يتسلم منه الخرّميّ
وأصحابه . ويبلغه رضى امير المؤمنين. ويسقط عنه الخراج. وعاد بالأسرى
الى ضفاف نهر القاطول، على بعد خمسة فراسخ من سرّ من رأى. والسنة
مئتان وثلاث وعشرون للهجرة. وحفز، الى المعتصم، من ينبئه بوصوله، في
ركبه . فدفع اليه أمير المؤمنين ابنه هرون، في حفل حفيل ، وقد نهد الى
التباهي بصولته، وبجسامة فتحه. فما يقود إلى قاعدة ملكه لصاً، زريّ الشأن،
بل ملكاً، رب تاج وصولجان. حكم ثلاثاً وعشرين سنة في أمة وجند. وهزم
قوات المأمون والمعتصم على متعدد المرات . وأباد مئتين وخمسين الفاً
من الأرواح

ولا بد من إظهار مدى العزة، والتغني بروعة النصر، حيال المأثرة الشرود.

فيبدو بابك في موكب ملك أسير ، محفوف بعظمة أرباب التيجان ، لتدرك الامة مبلغ ما احرزت في تدويخه من ظفر، وما أصابت بتقويضه من مناعة، ورفعة شأن . وأزجى اليه المعتصم الفيل الأشهب ، مجللا بالديباج الاحمر ، والاخضر ، والحرير الملوّن . وهو هدية بعض ملوك الهند الى المأمون . وساق الى اخيه ، عبدالله ، ناقة نجيبة، مزدانة بالنسيج النفيس، مع درّاعتين مرصعتين بالياقوت والزمرد. فلبس بابك إحداهما، وارتدى أخوه الأخرى. ورفع كل منهما على رأسه قلنسوة مزخرفة باللؤلؤ والجوهر . وأبصر بابك الفيل ، فاستعظمه ، وسأل : ما هذه الدابة المنيفة ؟

وراعته الدرّاعة فقال: هذه كرامة ملك جليل، اخطأته الاقدار فذلّ !

وركب الفيل الى سرّ من رأى، بين صفين من الجند متتابعين. ووراءه أخوه عبدالله على الناقة المكسوة بالثمين الانيق. وجرى في أثرهما هرون بن المعتصم ، والأفشين ، وأهل بيت الخلافة، ورجال الدولة، وحملة الرايات، والفرسان . وامتدت عينا بابك الى الحشد المرصوص، وأدركته الغصة . فاته بتر هذه الرقاب المشرئبة اليه بشماتة ، وفضول ، كأنه السُخَرة

وتبرقشت سرّ من رأى بالقشيب الطريف. وازدحمت جاداتها وشرفاتها وسطوحها بالجمع اللجّ. وبدا فيها بابك بذله، وهزاله. فهتفت للمعتصم قاهر الطغاة، وسيد الغزاة. ودخل عليه الأفشين يقبل الارض بين يديه، ويقول: ها هوذا عدوك يا امير المؤمنين، يقبل اليك ملتوي الرأس، منادياً بالطاعة، ملتمساً صفحاً !

فأدنى المعتصم منه قائده المظفر، وقبله في رأسه، ورفع منزلته . وجاء ببابك يسدد اليه النظرة الهازئة ، ويستوضحه : أأنت بابك ؟

فأطرق الخرّمي لا يجيب استكباراً . فكررها عليه المعتصم ، وبابك لا يخرج عن إطراقه . فمال عليه الافشين يقول : لك الويل ، أيخاطبك امير المؤمنين ، وأنت ساكت ؟

فقال بعد لأي، مغلوباً على أمره: نعم، أنا عبدك بابك، يا أمير المؤمنين!

فهتف المعتصم برجاله ، وقد ضاق به : ألا جرّدوه !

فنزعوا منه زينته ، والمعتصم يدمدم عليه : يا ابن الفاعلة ، ألا يكفيك أن مسخت الدين ، حتى فتكت بالارواح ؟... حسبك الكفر والمروق . إفصلوا عنه جوارحه ، واحدة ، واحدة ، ليتبين ما أنزل بقومنا من عسف ، ونكال !

فاقتطع الجند يمناه ، وألقوها إلى المعتصم . فضرب بها أبو إسحق وجه عدوّه ، صارخاً به : إن الحق لينتقم منك ، أيها العابث بالمهج البريئة تذروها ، كأنها الهباء . أتشعر الساعة ، بما كان منك في ضحاياك ؟ ... هذه عاقبة الأنكاد !

وتساوت يسراه ورجلاه بيده اليمنى . فهوى بابك في النطع ، يتمرغ في دمه . فأمر المعتصم الجلاد أن يدخل السيف ، بين ضلعين من أضلاع الخرّمي ، عند أسفل القلب، ليطول عذابه. ثم دعا إلى قطع لسانه ، وصلب أطرافه مع جسده، وحمل رأسه الى بغداد، كي تعتبر المدينة الحرون بقدرة أبي إسحق . ونُصب الصليب على الجسر ، عظة للخوارج الطامعين في الاقلاق. وأبى رجال المعتصم، الا ان ينطلقوا بالرأس إلى خراسان، فيطوفوا به في جميع ارجائها ، وهي المتعصبة للخرّمي ، لتلمّ بما يصير اليه أمر الشذّاذ ، في دولة أبي إسحق

ولقي عبدالله، أخو بابك، في بغداد، ما انتهى اليه بابك في سر من رأى. فأنزل به إسحق بن ابرهيم ، من ضروب التنكيد ، ما شفى به نهمة الناقمين على طغمة الزندقة . وما كانت فرحة المعتصم لتعرف لها مدى. فعاد يدعو اليه الأفشين ويغمره بالثناء ، وبالعطاء . وتوّجه برصيعة من الذهب ، يتلألأ فيها غالي الجوهر ، وبإكليل منضّد بالزمرد وبالياقوت . ورضي عن أشناس . واستطاب التوفيق بين الفرس والاتراك ، لضمان وحدة جيشه . فزفّ أترجة بنت أشناس، الى الحسن بن الأفشين، كي يقبض على الحبل من طرفيه، ويزيل الاحن الممسكة بالنفوس . فلا يحاول فريق فريقاً . ولا تنشب الخصومات بين عنصر وعنصر ، وثمة كتلة متراصة، يهمن عليها رجل فرد ، هو المعتصم بالله ، الخليفة العباسي الاثير . فالسياسة أهابت به الى لملمة حبات السمط

على أن جميع هذه المباهج ، ما كانت لتقصي عن خاطر المعتصم، طيف نوران. وما زالت إبنة عجيف مطمح عين السيد الحمي. فكل مسرة، لا تحبو اليه كاملة ، ما دامت نوران تتعارج في المودة . فلن تتوافر الغبطة ، على تمامها، إلا وقد خضبتها نوران بالمواءمة السمحة. فتسترسل بطلاقة الى الخليفة المغبوط المكانة، الواري الزند. ولكن أنى تحقق نوران هذه الرغبة ، وهي المشدودة إلى العباس بن المأمون ، بوثاق تحرص على عصمته ؟

وتنهد المعتصم ، لا عن ارتياح، بل عن ألم . ما تنفك أمم الارض تعنو له بتمادي الاستسلام ، وتشذّ عنها نوران . وعاد يلتمس النجاة من ثر هذه المتسلطنة عليه ، وهو المتسلطن على الدنيا . وخطر له أن يسلوها ، وأن يعلق سواها ، وهو في فيض من اولئك الجواري الحسان ، المحتشدات في

دولته ، وفي جوار تخومه . فما له إلا أن يومىء كي تهفو اليه أسنى غادة ، واكرم آنسة . وشرد ذهنه في البحث عن روائع الدمى. على أنه كان يتيه في الاقاصي ليفيء الى نوران . آه من المعذّبة ، المحرجة ، ما أظلمها . لكأنها تستطيب الايلام !

ورأى أن يدفع اليها من يأتيه بها . ما بالها تتباعد عنه في الافراح؟... أتميل الى تنغيص مسراته ، فلا ينعم ، في أيامه النديّة ، بطلاقة المتعة ؟... ولكن من يوفد اليها ، والعباس بجانبها ، وليس يشتهي أن يلمّ ابن أخيه بجنوحه إلى الفتاة ، فتتسع شقة الضغينة ، وتنفجر الحفائظ بما لا تحمد فيه مغبة ، وفي الجند من لا يفتأ بوالي العباس ؟... أيحفز اليها إبنته عليّة؟... لا ، ليس يتوق إلى إفساد إبنته ، والمهمة لا تعدو توطئة غرام . كما إن ظهور عليّة ، لدى نوران ، لا ينشر في نفس العباس الطمأنينة ، فتثور في لبه الظنون ، ويتهم نوران بالمخادعة ، وعمه بلئيم الدس

وفكر أبو إسحق في جاريته « نهوند » . ولكن « نهوند » قد تتكلم ، وكانت للعباس أشبه بالحاضنة . إذن فما للامر سوى ريحانة ، إبنة عمه ، وليست محطّ شبهة . وناداها اليه ، وما تنأى عن صرحه . وخاطبها بالقول المبسام ، النافض منه مظاهر الريبة : ألا ما بنا لا نبصر بيننا غادات سرّ من رأى ، يا ريحانة ، يشاطرننا أنسنا ؟... فأين ذوات القسامة ، لا يقبلن الينا لانشادنا الأماديح ، ابتهاجاً بحظنا من النعمى؟...هلا دعوتهن إلى صرحنا ، كي نحس بأن الامة تقاسمنا بشاشاتنا ، وتشعر بما نغوص فيه من بشر ؟

فابتسمت ، وقد فطنت الى مطمعه ، واستوضحت : وبمن تبتهج نفسك

من الغيد الملاح ، يا أمير المؤمنين ؟ ... إن في سرّ من رأى لاسراباً نواضر ، ظوامىء الى فيئك . وأية غانيـة لا تحنّ إلى معتلي أريكة الحسب التليد ؟

وجنحت به إلى البيان . وما غاب عنها أنه يتوق إلى ابنة عجيف . فالتبك . وأوجعه الافصاح . إن نفسه لترغب عن الفضيحة . قالت ريحانة ، وقد شاءت أن تمتحنه : أأجيئك بنوران ؟

فاتسعت عيناه . وأشرق وجهه . وسدد الى ريحانة ، ابنة عمه ، نظرة ثاقبة تستجلي . هل تلمّ إبنة عمه بجواه؟...وقال بصفاء لهجة، كأنه يتبرأ من كل نية فاسدة: لا بأس يا ابنة عمي. نوران من زهرة الحسان. هل توثقك بها صداقة أيّدة ؟

قالت : نحن ثلاث لا نفترق، يا أبا إسحق . أنا ، وعليّة ابنتك ، ونوران. سأجيئك بابنة عجيف ، وهي من خـيرة وسيمات العرب والعجم . طرفٌ كحيل ، وقدٌّ نبيل ، وحديث بلبل !

فأعجبه وصفها ، وهتف: لله أنتِ، ما أقدرك على القـول المصفّى . لست أجهل نوران، ولهـا من صرحي مدرجٌ رحيب ، وموئل حبيب . غير انها للعباس، ولن أحرمه إياها . وإذا ما بدت فينا ، فإن لها من الاكرام ما ترتاح اليه مهجتها ، ويرضى عنه إبن أخي . مرحباً بك وبها ، يا ريحانة . لتقبل إلينا ذات المحيا المغبوط !

فقالت تداعبه : ما أراك تبتغي سواها !

فصرخ بها ، وهو لا يتمالك أن يميع ابتساماً : ما عرفتك خبيثة ، يا ريحانة ، خزاك الله . نوران للعبـاس ، لا للمعتصم ، يا ابنة عمي . بيد أن الوسامة

المشرقة ، تنير كل مكان تبدو فيه !

ومن عادته أن يطرب لمجون علي بن الجنيد الاسكافي . فيحدثه علي بلا كلفة ، كأنه خدينه . ويروي له ما هبّ ودبّ من بذاءة، وخشارة . فيقهقه المعتصم ضاحكاً ، معجباً بخفة روح جليسه ، على قحته وسلاطة لسانه . غير أنه ، بعد هيامه بنوران ، أخذ يتنكر لفاكهات علي بن الجنيد ، كأن مباسطات الاسكافي اضحت لا تلذّ له ، بعدما شغل قلبه بابنة عجيف ، وقد تمثل بهجته في الغادة المغالبة في التنائي . والتنائي ضربٌ بليغ من الاستهواء

وشاء أن يقيم وحيداً في إيوانه ، وأن يجتنب الجلوس للمظالم ، مفوّضاً أمرها إلى وزيره أحمد بن أبي دواد . فان شوقه ، الى نوران ، أمسك به عن صرف همته الى الرعية ، كأنه يعيش لقلبه ، لا لقومه

وانتهبت ريحانة الطريق الى ابنة عجيف، وفي نفسها لظى من أشجان . فدخلت عليها وهي تلهث ، وتقول من مبسم نديّ : إسرعي يا نوران . كله حديث عنك . اندفعي اليه ، وخففي عن كاهله عبء هيامه بك . ما أسمعه إلا يستطلعني أمرك !

وضحكت ملياً ابنة ابرهيم بن المهدي . غير أن نوران لم تكن تضحك، وفي طلعتها مطارح للجزع والوجوم . ولم يندّ عن ريحانة الباعث على الأسى ، والمجهود المبذول في قهر المعتصم ، باء بالخسران . قالت تهوّن وقع الخطب: لا تيأسي يا نوران ، يا أختي . فإن من يبصرك ، في جهامتك ، ليضطر الى مقاسمتك اشجانك ، والغور في سهومك . قومي الى القصر . وسنتحادث، بعد مثولك فيه ، بما نشفي به كربتنا . فلن ننام على ذل يجتاحنا ، ويخفت فينا الصوت الطليق . أبي امتدح المعتصم ، وهو إبن أخيه ، في غلبته . على

ان في قلبه منه أوتاراً آكلة ، لن يدهمها نسيان !

فقالت إبنة عجيف ، بصوت أجشّ ، تساوره الخيبة الممضة : إن الزمن ليواليه ، يا ريحانة ، ويجفونا . وتميل بي منازعي الى تحطيمه ، فما أجدني إلا أريد في قدره ، وبسطة شأنه . آه يا ريحانة ، كوت صدري طمحات الدهر الغشوم !

وبكت ذات الدهاء الكاسح ، والحسن الفاتن . بكت لفرط الضيم ، وهي في جهاد ، والزمن في عناد . ما إن تبني مدماكاً ، حتى ينهار ويشمت القدر . قالت إبنة إبرهيم بن المهدي ، وقد راعها ان تبصر نوران تذلّ عصيّ الدمع : كلنا في عونك يا ابنة عجيف . فما لك ولكيد الايام ، وساكفيك غدرها . أما عاهدتك على التحكك بالروم ، كي ينالوا مني ، فأستنجد بالمعتصم وتزلزل به الأرض ؟... لا أبرح على رغبة في المساندة . قومي الى الصلف التيّاه نلاينه ، وسننظم من الأحابيل ما نكبح به جماحه ، ونذيب روحه . كدت أطلع أبي على ما نحاول ، بيد اني خشيت أن يذيع سرنا . على أنه لا يمانع في إقدامنا على النيل من القبيح !

وأمسكت بذراع نوران ، وجرّتها اليها قائلة بلهجة ترين عليها الدالة ، ويفشو فيها الأمر : انهضي . ليس لك ان تتقهقري عن أمير المؤمنين ، وهو يدعوك اليه . إنه اليوم للسيد المطلق ، وعلينا أن نسايره ونحن دونه . أما غداً ، حين نمسي أرباب الحول والطول ، فسنعرض عنه ، بل سنطفىء فيه جذوة النفس . وليس للغاصب الأميّ ، أن يعيش وهو على جهل في أحكام دينه ، وفروض دنياه !

وسارت بها الى القصر ، تهمس في أذنها : لا أزال أرقب ما تعهدين

فيه اليّ . فمتى ترين أن نضرب الانكد ضربة تذهب بأيامه ؟... ألا يبدو لك ان الموعد قد حان للخلاص من المقيت ؟

فراقها أن تجد ، في ابنة ابرهيم بن المهدي ، الايمان الركين بصواب الدعوة الى التنكيل بالمعتصم . وهي عضدٌ لا يلتوي في العون . وجارتها في شهوتها ، ودخلت وإياها القصر ، قائلة بمرارة ، وسخر : يدهشني في هذا الرابع بأريكة السؤدد ، يا ريحانة ، أن يحسبني على دينه في الهوى ، وما أبحت له من مبسمي رشفة . فما وقع مني على سوى وعود نخرة ، وعهود أشبه بالذرور ، تبدّدها نفخة . وليس لمن بلغ المعالي الشمّ ، أن تعبث به امرأة . انه ليتولى شؤون دولة ، ويعجز عن فتاة !

وحرّقت الأرّم . ذكاؤها طاش عن الهدف . وأمست في إيوان أبي اسحق وهي تتلهف على ما انقضى ، بلا طائل ، من عمرها . كان لها أن تحتلّ منذ زمن بعيد هذه الذروة ، وأن تحفّ بها الجلالة ، وتستولي على الأعنة ، وتقضي في الأمة القضاء المبرم . غير أن مكابرة الزمن أحرجتها ، وضيّقت عليها سعة الصبر .

وانحنت بين يدي أبي اسحق الهائم ، المشتاق . وتكلفت الابتسام والغنج . فعليها أن تبدي الرضى في حضرة المولى المبجّل . وكاد يصفق لها المعتصم وهو يراها . فاهتز اليها هاتفاً بها : اصابت ريحانة ، وهي تختارك ، لتنيري هذا الصرح . فليس في دولتي أبهى وجهاً ، ولا أشهى حديثاً . ان السنين لتزيد في رونقك ، يا نوران . وكلما انقضت عليك ، وهبت لك من الينوع أكمله ، ومن السنى أقصاه . بوسعي ، الساعة ، أن أقول ، إن امير المؤمنين ، ذاق حلاوة الغلبة ، والأمان !

وانتشر فيه الجذل . وأبى أن يجلس إلا جنب نوران . فجلّ مناه أن يقيم بلصقها حتى الأبد . وما لها الا أن تشير بالرضى ليرفعها الى القمة . غير انها لا تزال قانع ، كأنها تكره العز العريض ، وتميل عن باذخ الجلال . فهل لها أن تطمع في ما يرجح ، في الدولة العباسية ،ركوب المسند الأرفع؟...ألا ما بها تستمسك بالزريّ الغرّ ، وتشيح عن الجبار ، الساحق القبضة ، السائر في ركابه الألوف تلو الالوف من البشر ،حتى لا تكاد تبدو لهم نهاية ؟... أليست من الحبل ، على طفاح ، ابنة عجيف بن عنبسة ، وهي تتلكأ عن أمير المؤمنين ، لتوالي رثّاً ، معدماً ؟

وودّ النطق ابو اسحق ، وقد بات لا يقوى على إخماد شعلة غرامه . وأحست ريحانة ، ابنة عمه ، بأنها تسدّ عليه مسالكه . فزعمت أن لها عند عليّة ، ابنته ، بعض ما يدعوها في قضائه الى العجلة . واستأذنت في الانصراف . وأبقت نوران عرضة لمخالب المغرم ، النافد الجلد . فأجاز لها أمير المؤمنين الابتعاد عن مجلسه ، وقد شكر لها ، في مطاوي نفسه ، هذه الأريحية المتلألئة في أوانها . وزفر ، وقد اتسعت له الخلوة بنوران . وقال وهو يرنو الى ابنة عجيف بعين تتلظى كلفاً ، ولا تخلو من ميعة الانكسار : أتحتجبين عني وقد بدا العباس ، يا نوران ؟...فهل غاب عنك ما في نفسي منك؟... والله ، ليس كل ما غنمت من فتوح ، أسمى قدراً من كلمات سماح ، تبرّدين بها غليلي . ألا اطفئي أشواق أمير المؤمنين ، يا محرقة الأرواح!

فابتسمت له باسراف في الممالأة ، وفي الدَّلّ . إن فيها من قوة السيطرة ما ينحني له حتى السيد الأروع . بيد أن ضغائنها ما زالت تبعدها عن أبي اسحق . قالت تتناهى في المخاتلة : نحن صنائع أمير المؤمنين . وليس

للصنائع أن تتجانف عن الأكتاف . إلا أن الخليفة ، أدامه ربه ، لم يعبّد طريقي اليه ، وما تبرح الحوائل على استعصاء !

وجبهته بنظرة حانقة ، يفشو فيها التنديد الحادش . تبعة انقطاعها عنه ، ترسو عليه ، وقد التوى في محو خصمه . فكم حرّضته على العباس ، إبن اخيه ، وما أصابه بوخزة . ومن يحجزها عنه الا العباس ؟... فتأوه . وأوجعه ما تعيّيره إياه من التخذال . طمس بابك ، وتقاصر عمن يطمس قلبه . وأين العباس ، من الخرّمي ؟... نواةٌ ملفوظة ، في جنب دوحة زاخرة بالثمار . على أن هذه النواة صَلُبت على قبضة أمير المؤمنين ، حتى أوشك أن ينادي بكلاله عن طحنها . وصاح أبو إسحق ، وقد صال فيه اعتداده بعزّته : أيطيب لكِ أن أنثره أشلاء للكواسر ، والضواري ؟

قالت ببرودة دلت على رحيب الدهاء : يطيب لي أن يتوارى في معركة تشنّها على أعدائك . فإذا سلمت روحه ، في منازلة الخرّمي ، فليس لك أن تكتب له السلامة في مناوأة عدو آخر !

فنبر ، وقد راز مبلغ ما تكلفه من جسيم العبء : أتسوقينني إلى حرب أخرى ، يا نوران ، لاجل من لا يساوي نصلة محطمة ؟... غاليتِ ، يا أخت البدور . فلا أزال مهدود القوى ، وبابك دفعني الى مسرف التضحية . والله ، ما نازلت المجوسي الزنديق ، إلا وقد ابتغيت العباس . ولكن جده ، صانه من حتفه ، وقد حملته عليه . فلا تدفعيني إلى نزال أدهى ، ولم يبق في شرايين رجالي دم أستصفيه . أطلبي مني أن أسقيه السم ، فأفعل ، أن أنصب له كميناً في الطريق ، أن أشكّ في قلبه نبلتي ، أن أضرب عنقه بسيفي ، وليكتب عني التأريخ ما شاء من سفاسفه ، فإني لأجلك أزدريه !

فأعلنت بموفور الرثاء : إني لأضنّ بك على قسوة التاريخ ، يا أمير المؤمنين. فلماذا نبدي الغلاظة ، ولدينا فسيح السبل للتمويه، والتضليل؟... أيروقك أن يقال فيك ، إنك كافأت المأمون ، على وصيته لك بالخلافة ، بحذف إبنه ؟... هذا جحودٌ ليس له أن يلطخ جبين المعتصم الأغرّ . فما علينا بسوى المواربة ، بانتهاج التعاريج . لم تكن ذلك المغبون في مناوأة الخرّمي . فإذا لم تدرك نشوة الحنين ، فلقد نعمت ببهجة المجد . وما تزال الدنيا تردد باكبار، أنك بلغت ما أعيا المأمون، الخليفة العظيم . على أن العباس يقول، إنك إذا رجحت أباه، في قهر بابك الخرّمي ، فما تزال دونه في مغالبة الروم ، وقد فرى لممهم ، وفلّ غروبهم . فاطّرحهم عند قدميه أذلاء ، مرعوبين، يستظهرون بأريحيته عليه . وأنى تسمو إلى هذه المنزلة ، وما تجرؤ على مناجزة ذئاب التخوم ؟... وأبوه قدر على أحمد بن حنبل ، الجهر بخلق القرآن ، فما وفق للخروج به عن المصارحة بكون الكتاب عطية الأزل . فهل لك أن تميل به ، إلى العدول عن رأي ، يستمسك بطوارفه؟

فجرض بريقه . ابنة عجيف تهزّ مهجته في ما تحرضه عليه. ألا كم يستلزمه الهيام من بذل . غير أن أنفته أبت عليه أن يسمع ما يعيّره ابن أخيه ، وأن يقف منه ذلك الحسير . فجلجل : أيرميني العباس بهذه الحوادش ؟... على رسله . سوف يبصر عمه في المركب الوعر . والله ، لتذهبنّ روحي عني ، أو أتفوّق على الضياغم من بني العباس. فليعلم ابن أخي، أن في عرق عمه نخوة ، وحمية ، لا ترتضيان له الموقف الخسيس . ابن حنبل سيعلن، ما كابر في اعلانه ، في حضرة المأمون . والويل للروم ، وسوف يذوقون البلى ، كرمى عين العباس. ولكنهم لن يكابدوا الموت ، وحدهم ، وسيعاني

ابن أخي، من لظى الجائحة، مـا تحرقه ناره، وتبدده ريحه . فلا تلتقي ذرة منه ذرة اخرى. فما كان المعتصم، ذلك المتقاعد حتى عن المحال، يخضد شكيمته، ويذلّ عنانه . طيبي قلباً ، يا نوران!

وامتدت قامته . وعمقت نظرته ، كالنسر وقد طالت مخالبه ، وشرست عينه، والفريسة تلوح له. وارتاعت نوران وهي تبصره في مبسوط استطالته. الا انها طربت ، وقد ختلته عن نفسه ، وحملته على منيته . وهتفت بفيض من اكبار : عاش أمير المؤمنين !

ولم تزد . وفي الزيادة مبتذل الدعاء . ونشر المعتصم بالله صيحته : غداً سيقف أحمد بن حنبل، بين يديّ ، يا نوران ، لاذاعة ما يعاند في اذاعته. وبعد غد ، تمشي جيوشي الى خذل الروم. فـلا ترضي بالمعتصم زوجاً ، الا وقد حمل اليك الكون بأسره ، يزين بفرائده ، مفرقك المهيب !

فتمايلت جذلاً . هـذا آخر سهم في الكنانة . وفـيما يطلق أبو اسحق عينيه، في الشاسع الشاحط ، ويتراءى له أنه ساد الدنيا ، وظفر بنوران ، كانت ابنة عجيف تبصره ثاوياً بحفرة، مثخناً جراحاً ، وقد وقفت على قبره مع العباس ، ينظران اليه بشماتة ، ويرقصان مستبشرين خيراً

ووثبت الى مأواها ، في هالة من نشوة، وكل ما فيها يصيح : قتلتُ أمير المؤمنين !

٣

همسة تَرددت في عهد الرشيد، في آذان بعض رجال الحاشية، لم تلبث أن استطارت في زمن المأمون، وأضحت ذات أصداء صارخة. فالقول بخلق القرآن، عمّ كل محفل. وتباحث فيه كل ذي علم. ونطق به الخليفة، ودعا الى إقراره. ففنّد الامام ابن حنبل الرأي، وسفّه ناشريه. فنقم عليه المأمون، وحبسه، وأزرى به

ومات المأمون، وهو يلحّ على المعتصم، في توطيد البدعة. فأعلنها أبو إسحق، ولم يطلق إبن حنبل من سجنه. فليبقَ في المطبق ما طالت به أيامه. أما ونوران، تحدثه بما يتحداه فيه العباس، إبن أخيه، فسيوضح لهذا الغرّ، أن عمه ليس ذلك المتواني. وهتف بحاجبه: ألا جئني بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وبالقاضي أحمد بن أبي دواد، يا وصيف. إسرع، وإلا عدمت روحك!

وما أصبح الوزير والقاضي، بين يديه، حتى أذن لهما في الجلوس، وقال بصوته الخانق: دعوتكما اليّ، للنظر في أمر، من الخطورة بمكان. أخي المأمون، رحمات الله عليه، نادى بخلق الكتاب. وما انبرى لدحض القولة سوى أحمد بن حنبل. وإني لأكلفكما مناظرته، والجنوح به عن المكابرة. فاذا أصرّ عليها، فلا يلومنّ سوى نفسه!

وليس ابن الزيات، وابن أبي دواد، بمن يخرجان عن طاعته، وهما نبلتان في جعبته. فخاطبا ابن حنبل، في ضرورة الاذعان، لمشيئة أمير المؤمنين، وقوله القول المنيف، وليس لذي رأي أن يعلوه. فرفض إبن

حنبل ، قائلاً بمستوثق الايمان : قبيحٌ بي أن أنكر معتقدي ، وان أتخاذل في حرصي على ديني . فالكتاب ابن الازل، وقد حفلت به روح القدرة منذ الانبثاق ، حرفاً حرفاً ، وآية فآية !

قال ابن ابي دواد : وهل أوحى به الله بلغة قريش ؟

فشدد ابن حنبل في تأييد بيانه، مذيعاً : ما نزل الكتاب إلا كما نقرأ ، تنزيلاً في التنزيل . وكل من يقدم ، على نفي هذا اليقين، يكفر بالله ، وباليوم الأخير !

وأيقن الوزير والقاضي انهما يناطحان صخرة . فارتدّا الى أبي إسحق ، يجاهرانه بالقول البائس، المتشفي: أقتله يا امير المؤمنين ، ودمه في اعناقنا !

فهدر المعتصم : ألا يزال الوقح ماضياً في عناده ؟

فأبان محمد بن عبد الملك الزيات : هو في يبوسة الصوّانة ، يا أمير المؤمنين !

فزعق وكله سخط : عليّ به . لأهدمنّ مناعته !

ودعا بعُجَيْف بن عنبسة ، والد نوران ، يقول له : قفْ بجانبه يا عجيف ، وانخسه بالسيف كلما مضى في غلاظته . وما ان أشير عليك بقطع رأسه ، حتى تضرب هذا القائم بين كتفيه . فتدحرجه عند قدميّ . ليس للمكابر أن يغالبنا في شهوة !

ونادى اليه نوران ، كي ترى وتسمع. فسدل عليها ، وعلى ابنته علية ، وابنة عمه ريحانة ، ستاراً في إحدى زوايا الايوان. وأباح لهنّ الوقوف على ما ينزل بالحرون، من ضروب الايذاء، كلما لجّ في إصراره، على إنكار ما تواضع عليه اهل النظر والعلم . ونوران ، وقد ذاع في سرّ من رأى ، وفي

بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، ما يحاول امير المؤمنين ، في اكراه إبن حنبل على الجهر بخلق القرآن ، هفت إلى رجال الدين، توغر صدورهم على الخليفة المنادي بالكفر، صارخة بهم : أين أنتم، أيها المنافحون عن الهدى ، وقد طغى على دين الله الضلال ؟ ... قوموا إلى نصرة دينكم ، وإلا أطارته الريح غباراً . ليس لكم أن تتعاموا عن كتابكم ، وهو لديكم وديعة الله ، وعهده !

وجادت ببلاغتها ، وبسلطانها . ولقيت صيحاتها، في نفوس الائمة ، تربة خصبة للكفاح. فلن يسكت رجال الدين عن شنّها حمراء ، أكولاً. قالوا : اذا ما قضي على ابن حنبل ، فليس للمعتصم أن ينعم بعده بمديد العمر . فسنشعلها في كل زاوية ، وفي كل فلاة ، حتى ليمسي أبو اسحق في شعلة لا تنطفىء ، الا وقد انطفأ ، وبات رماداً !

وسرّها أن يتولى ابوها نخس ابن حنبل بالسيف. واذا ما اعترض عليها الائمة ، بكون عجيف ، يظاهر المعتصم ، على الامام احمد ، فلن يخونها الاعلان أن اباها مكرهٌ ، لا بطل . فليس له أن ينقلب على سيده ، وهو دونه قوة، وشأناً . على أنه سيكون ، عند آزفة الهبوب ، في قادة الفتنة. وأوفدت جعفراً ، أخا العباس ، الى بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، يحضّ فيها على تأييد ابن حنبل ، وانقاذ الكتاب من المتطاولين على الحرمة. فقيل لجعفر : أتكون ابن المأمون ، وتناوىء معتقد أبيك ؟

فأجاب ، وما نسي ما لقنته اياه نوران : لسنا باضطرار الى الالحاد ، نعمى عين مبتدع . فما فينا من يتجاسر على دحض استقرار الكتاب بكلماته ، وحروفه ، بوعي الله ، منذ الازل . وان فعلنا ، كنا ممن تاهوا

عن دينهم ، وأعدّ لهم في الآخرة عذاب الجحيم !

فاستوضحوا : وما رأي العباس ، أخيك ؟

فأعلن ، وفي شفتيه ابتسامة الواثق بما يبـدي : العباس من حزمتنا ، بل هامتنا ، وأنا رسوله . فهو يقرئكم السلام ، ويدعوكم إلى الذود عن دين الله ، والانتهاج به المنهج السويّ !

– أيكون أخوك لنا ناصراً ، إذا ما دجا الخطب ، يا جعفر ؟

– أخي يمشي في طليعتكم ، وفي أثره شطرٌ من الجيش !

فآمنوا بما ينشر عليهم ، ولم يؤمنوا . فما عوّدهم العبّـاس الاعتصام بالحزم ، وإلا فلم يكن لسواه أن يربع بأريكة الخلافة . غير أنهم لم يرضوا عن هذه الرجرجة، في صدد الكتاب ، وهو في عرفهم غير مخلوق. ووعدوا بالمؤازرة الأيّدة، لدن تندلع شرارة الفائرة . وعـــاد جعفر الى العباس ، ونوران ، ينبئهما بما انجلى عنه سعيه. فالجميع على صدق ولاء، على ان تتوهج اللهبة . قالت نوران بحدة : إن لم تشبّ اليوم ، فمتى تتقد ، وهي خير نهزة لاشعالها ؟

ووقف ابن حنبل ، في حضرة أمير المؤمنين ، وقفة الخاشع ، مع صلابة شكيمته . فما يجهل أنه بين يدي خليفة الرسول . وإذا قاوم ، وعارض في دعوى خلق القرآن ، فلن يتنكر لمن يمثل هادي أمة ، ومهذب أجيال ، حتى مع خروج الخلف ، عن صراط يبدو له قويماً . فالمتأد لن يستعصي على التثقيف

وصوّب أبو اسحق، الى ابن حنبل، نظرة حاقدة، صافعة، وقد أحاق به ابن الزيات ، وابن أبي دواد ، وعجيف بن عنبسة. وشهر عجيف حسامه ،

يتوعد به هذا الكاشف عن جبينه ، في مصادمة الخلفاء ، وما يرجو غير الذود عن دين يأبى أن تشوبه كدرة . وتكلم أمير المؤمنين بصوت قاطع ، حاول به ان يسطو على ابن حنبل ، وينشر في جوانحه الهلع . فصاح به : إيه أيها المكابر في الافن ، ألا تزال ممسكاً على قائل المعتقد ؟

فكبّر ابن حنبل ، وبسمل ، وخرّ فقبّل الأرض في حضرة الخليفة ، وقال : أبقى الله لأمير المؤمنين واسع جنابه ، وعالي سدرته . وأنقذنا وإياه من كيد الشيطان الرجيم ، ومن أعدائه . إني لأنزّه نفسي عن الافتئات بالحق ، ومسايرة الباطل . ما كان القرآن الا أزلياً ، وقد أوحى به الله الى نبيه ، فأذاعه في العالمين !

فصرخ به أبو اسحق : أما اختار ربك سوى لغة قريش ينزله بها ، وهي لغة النبي ؟... ألا اعتدل أيها التائه في حكمك على الحق ، ولا تكن خدين المحال . لقد أوحى الله الى النبي بالكتاب ، فصاغه الرسول بلغة قومه ، فاستوى على سنّة البلاغة والاعجاز ، قرآناً عربياً ، نأتمّ به . فلماذا الغلو في الواقع ، يا أحمد ؟

فمانع ابن حنبل في الجهر بهذه القولة الناضحة ، في مذهبه ، بالكفر النقيع . ورفع عينيه الى السماء مستغفراً ، هاتفاً : تبارك الله ربي ، اني لأجلّ كتابه عن ممسوخ التأويل . قالت الآية : « ولقد أنزلناه عليك قرآناً عربياً » . صدق العليُّ العظيم !

فاشتعلت الحفائظ في أحناء أبي إسحق ، وزعق : أتجد في مقالي ممسوخ التأويل ، يا لُكَع ؟... ألا اضربوه !

وما تمالك ، هو نفسه ، عن لطم ابن حنبل . ووخزه عُجيف برأس السيف .

فتألم الامام، واهتز. بيد انه أطرق لا يشكو، ولا يتأفف . مرحباً بالألم والقهر، في سبيل الله. وصاح به المعتصم ، وقد استطار نقمة : إن لم تعلن ان الكتاب مخلوق ، فلأطعمنّك حمامك !

وغلا في المعتصم الكره لهذا الصعلوك، الناطح صخرة. وشزره باحتقار. فأي قدر يستوي فيه، كي يجرؤ على دحض رأي أذاعه خليفة، ناضج النهية ، حصيف البصيرة ، لم يركب مسند الخلافة من يضارعه دراية وحكمة ؟... وهل في الخلفاء، من بلغ شأو المأمون، في المعرفة، واختمار الفكر؟... غير أن الامام أحمد ، ما انثنى عما أبدى من يقين ، قائلاً : لك أن تسفك دمي، يا أمير المؤمنين ، وروحي ملك يدك . ولكن ليس لك ان تبدد ملكة الايمان في ضميري ، وضميري لله !

فوثب عليه المعتصم يمعن فيه لكماً ، ور كلاً. وصاح بعجيف بن عنبسة: السيف ، يا عُجَيف !

وعجيف ما اشتهى غير هذه الصيحة . فليضربنّ عنق الامام ، ولتشتعل الثورة، وليكن المعتصم وقودها . ولكن احمد بن أبي دواد وقف بين عجيف ، الشاهر نصلته ، وابن حنبل ، المستسلم الى حكم ربه ، مذيعاً بملء فمه : لا تقتله يا أمير المؤمنين . فخيرٌ لنا استبقاؤه ليوافقنا على الرغبة . فليس لنا أن ندفعه الى القبر شهيداً ، وإلا سما مقامه ، وتحدثت الأجيال عن إقدامه وورعه . لنجلده بالسياط، فنحمله على اجابتنا الى الطلبة ، وليس له أن يحتمل لاذع المضض !

فاستحكمت الحيرة من المعتصم . وجمد لا يدري بما يدعو اليه . على أنه ، لم يلبث أن أيّد القاضي ابن ابي دواد ، في مشورته ، وقد بدت له

ترشح بالصواب : وهتف بابن عنبسة : اغمد سيفك ، يا عجيف !

فكادت تصيح نوران من وراء الستار : « بل اضرب عنقه ، يا أبي . أقطع عنق المستطيل على أمير المؤمنين ! » . بيد انها خشيت أن تثير ضجة فاضحة ، تقلقل مكانة العباس في نفوس الناقمين على المعتصم بالله . أتهيب بالكاشحين ، الى الاستماتة في النضال عن الامام ، ثم تحضّ الخليفة على نحر رجل الدين، وقد جعلت منه رمحاً ردينياً، تشكّ سنانه في كبد المعتصم؟... واكتفت بأن تذيع في عليّة، ابنة الخليفة ، قولتها المخضبة بزعاف السم: أيعفو أبوك عمن نادى بتكفيره ، ونال من ثقته بربه وبنبيّه ، يا علية ؟... انه لاسترخاء ، لا حلم ، يا ابنة أمير المؤمنين !

ونفثت كلماتها بصوت ينفذ الى مسمع أبي اسحق . وأذن المعتصم بقولة نوران ، وتملّل.ما به يكبو أبداً في ما تدعوه ابنة عجيف الى انجازه؟... وانتابه ارتباك هادم . أيعمل بمشيئة نوران ، فيعود الى تحريض عجيف على اطاحة ابن حنبل ، أم يسترسل الى مشورة ابن ابي دواد، فيحجب دم الامام المعاند، ويفزع الى التعذيب ، حتى يبوح اللسان بالمنشود؟

وخطر له ما أسعفه في تحقيق الأمنيتين. سيرضى ابن أبي دواد ، وترضى نوران . وأطربه ما عنّ له . وشعر بأنه ليس بعيداً عن مطارح الحكمة ، يتوكأ عليها في بلوغ القصد . وزعق يدمدم على الامام ، المرفوع الرأس: والله ، إن لم تستنم الى طلبتي ، فلأرضرضن أضالعك . إن أنت إلا ابن مشؤومة . أين الجلاّد ، بل أين رجال حرسي؟...ليحملوا بايديهم السياط ، وليجلدوا بها هذا المتشدق بالافك ، الطالع علينا بنعيب الغراب ، في يوم ابلج أغرّ !

فامتلأ الايوان برجال الحرس ، وقد قبض كل منهم على سوط طويل ، لسّاع . وابصرهم إبن حنبل يتحلّقون عليه كالابالسة ، فما ارتعد ، ولا تهيّب . إنه ليلقي روحه في راحته ، فليقبضها من يشاء، على أن يسلم الدين من قضقضة بوانيه . وصرخ المعتصم ، وقد فار دمه ، وتشنّجت عروقه ، واحمرّ وجهه غيظاً : على مَ عوّلت ، ايها المكابر في الباطل ؟... ألا تزال تشمخ بانفك ، على بهتان وزور ؟

فأجاب ابن حنبل بتؤدة : إني أسلم امري الى الله، يا أمير المؤمنين، ولا إله الا هو . اهتصر أيامي . إقصف عودي . فليس لي أن أتمرد عليك في لحمي ودمي ، وأنت سيد عمري . أما في ضميري ، فليس لقوة أن تستولي عليّ . استغفر الله، ربي ، ما أتطاول فيه عليه، وهو القهّار العليّ، مالك يوم الدين . إلا أني أنشر، في سبيله ، هذه القولة المتجبرة ، كي أدرأ عن الدين المسخ ، وأحارب كل من يميل بالشريعة السمحة عن مهيعها المستقيم !

فزعق المعتصم، من أعماقه ، وقد طفح الكيل ، واستشرى النفار : ألا اجلدوه !

فتساقطت عليه لسعات السياط ، كأنها ألسنة من نار تنهشه ، وتخلخل عظمه ونياطه . فاحتمل وهو يردد : الله أكبر . الله أكبر . لا إله الا انت ، يا الله !

فاشفق عليه ابن أبي دواد من ناهك الجلد، وهو الامام المفضال، والعالم البصير . وهتف به يقيه الشدة : ألا ما يكفك الجهر بالمنشود ، يا أحمد ، وقد انطوى مقال ربك على ما يدعوك إلى إعلانه امير المؤمنين ؟ ... أما قال ربك : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » ، وهو ما ابديت ؟ ... والمجعول

مخلوق . فأنى تناقض دينك ، وأنت تنادي بخلق الكتاب ؟

فأبان ابن حنبل ، وقد طبعت السياط جسده بخيوط حمر ، مديدة ، ترشح بالدم : القرآن نفحة الازل ، وقد فاق الزمن . وليس لانبثاقه اجل ، وهو سنّة الله ، ما له بدء ، ولا انتهاء !

فعاد ابن ابي دواد الى مناظرته ، علّه يميل به عن صلابته ، فيدرأ عنه العذاب المهيض . قال يجنح به الى المواءمة : ألا انعم النظر في الملموس يا أحمد ، ولا يذهبنّ بك الخيال الى ابعد ما نطقت به القدرة ، جلّ جلالها . فما دام الله ، سبحانه تعالى ، يعلن انه جعله قرآناً عربياً ، فهو الدليل الأبلج على كونه خلقه . تبارك الخلاّق ، ربي !

فما كان للين ، أن يأخذ سبيله الى نياط ابن حنبل ، المستمسك بكون الكتاب شرعة الرحمن ، منذ الازل . وتعجب من حماسة في غير موضعها ، ومن بدعة مضى أوانها . فأبدى ، وهو يجاهد آلامه ، وجراحه : ليس القول بخلق القرآن ابن اليوم ، يا أمير المؤمنين ، ولا من مواليد عهد أخيك المأمون ، وعهد أبيك الرشيد ، رحمات الله عليهما . إنه لمن عطايا الامويين . وهو شكّ في المقدسات ، نشره الجعد بن درهم ، في زمن هشام بن عبد الملك . فدعا هشام إلى قتل المبتدع ، وكلف خالداً القسري ، عامله على العراق ، أن يودي به . وأودى خالد ، بعد لأي ، بالجعد . فذبحه . وبوجع روحي ، ان تنعكس الوقفات . فيبيت من يقول بخلق الكتاب ، بمأمن من التلف ، ويصبح من يذيع كونه فوح الازل ، كافراً ، عقابه الموت . لنرفق بديننا ، وبربنا . ولنكن حراصاً على الشرعة المصطفاة !

فصرخ المعتصم صرخة ماد لها الايوان ، وأنزلت الهلع بقلوب سامعيها :

أوَ ترمينا بالالحاد ، يا ابن البلهاء، وترفع نفسك الوبيئة عنا ؟ ... ما أنت الا عظمة عفّ عنها جائع الناب . أقتلوه بسياطكم. وليس لهذا المتفخ على ضعف نظر ، ورثاثة بدن ، حق بالبقاء !

فاهتزت نوران فرحة ، وصاحت : عاش أمير المؤمنين !

فالواقعة وقعت . وتراءى لابنة عجيف ان الدنيا ، كلها ، تألبت على المعتصم، تمحقه. غير أن ابن أبي دواد ، الشبعان من حكمة الدهر، ما زال ينافح عن سميّه ابن حنبل . فهبّ يقول : صبراً يا أمير المؤمنين. قد يفيء الى الهدى . إني لاستأذن مرة أخرى في امتحانه ، واقناعه. هبه لي، لبضع هنيهات ، وانت السيد الحليم !

فتأفف أبو اسحق. زاد القاضي ابن أبي دواد في أجل المماحك، وليس ما يحفز الى الارجاء . وصاح بوليّ قضائه : حسبك روية ، يا ابن أبي دواد . أما دعوتني الى قتله ، ودمه في عنقك ؟

فأجاب قاضي القضاة ، بوقاره المهيب ، وبيانه الخالب : عفوك عني، يا أمير المؤمنين . ما أردت الا أن أدلّ الحفل على مدى المكابرة في المحسوس ، حتى إذا ما حذف المعتصم بالله ، من يتصدى لجميل مذهبه ، أيقن الناس انه يضرب عن حق ، ويحذف عن رغبة في خنق هضيمة . لا بأس أن أعود الى مناظرة الصلد الاصمّ ، فقد يدمغه البرهان ، فيطأمن ظهره للقول الأثيل !

وتململت نوران . ما بال قاضي القضاة يقف ابداً بين الخليفة والامام المعاند ، كأنه السقم في العافية ؟ ... ولبطت برجلها الارض متبرمة ، متذمرة . ليعجل أمير المؤمنين في اختلاس روح المتشامخ، الحرون . على

أن المعتصم ، مع مفرط عنجهيته ، لم يكن يصدم ابن أبي دواد في رجاء ، وهو مستشاره ، وصاحب الرأي الملحوظ في دولته . فقال بحانق الزفير : أحرجت مضائي يا ابن أبي دواد . ولكن لا عليك . إفعل ، ليعلم هذا المختال أني لا أضيق بالحلم !

فالتفت قاضي القضاة الى ابن حنبل يقول : طال حديثنا عما نحن في صدده ، يا احمد . فرددنا ما امسى ترديده وقراً . على أن في الاعادة ما لا يخلو من نفع . أما قال ربك في كتابه: «نحن نقصّ عليك احسن القصص، بما اوحينا اليك هذا القرآن » ؟ ... إن إعلانه الايحاء ، لناصع الدليل على كون الكتاب مخلوقاً ، وقد أوحاه . وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه » . فجعل له أولاً ، وآخراً . وأوضح أنه محدود ، مخلوق . فلماذا الحجاج في الجليّ ، والغلو في الراهن ؟

فما جاوز ابن حنبل الاعلان : القرآن كلام الله . وكلام الله لا تحدّه ساعة ، ولا يشمله ابتداء !

— ألا تراه مخلوقاً ؟

فأمسك عن التأييد . وتعب ابن ابي دواد في استدراجه الى الجهر بخلق الكتاب ، فما أجداه سعيه . فشخص ببصره الى المعتصم يقول بفيض من إخفاق : إني لأتبرأ منه ، يا أمير المؤمنين . لجاجته في الاستكبار تقوده إلى هوانه !

فغمغم ابن حنبل ، وقد وهنت قواه ، واعتلّت لهجته : بل تقودني الى نعيمي ، يا ابن أبي داود !

فهدر المعتصم ، يخاطب قاضي قضاته بسخط اندلعت ناره ، كأنه الشرارة

في يابس الهشيم : أرأيت ان الرفق به ضائع فيه؟... استصفوا دمه. اجلدوه!

فعادت السياط الى اللسع ، بعنف الاضطغان الشرس . ولم يحتمل ابن حنبل ، وقد نزلت به ثمانية عشر سوطاً ، فسقط الى الارض مغشياً عليه . واضطرب الايوان بصرخات حادة : مات ، مات!

فاثلجت صدور ، واربدّت وجوه . ففي الايوان قادة من خراسان ، حزّ في أكبادهم ان يصاب إمام ورع ، بمثل هذا النكال . وجالت فيهم عين المعتصم ، فتبين الشر في الأسارير . فتهيّب وجنح الى التؤدة ، هاتفاً : لا ، لم يمت . هو مغمى عليه . رشّوا وجهه بالماء!

وتولى الامر بنفسه . ولما استفاق ابن حنبل ، من غيبوبته ، التفت الى قادة خراسان ، وفيهم عمه ، وقال : لعلّ هذا الماء ، الذي رُشّ على وجهي ، غُصب عليه صاحبه!

فلم يتمالك ابو اسحق . أتبلغ الاستهانة به هذا المبلغ الحاطم؟... وصرخ بمن حوله : ويحكم ، أما ترون ما يتهجم به عليّ ، مع قرابتي من رسول الله؟... لا رفعت عنه السوط حتى يقول بخلق القرآن!

ولكن ابن حنبل لم ينخلع عن صلابته . فيئس منه الخليفة ، وهمّ بقتله . إلا أن هذه الوجوه المتوعدة ، المحيطة به ، نزعت من نفسه نزوة النقمة ، ومالت به الى التأني . فانفجر صدره بقولة الملتوي الساعد ، وقد أقرّ بخذلانه : اسحبوه ، اخلعوه!

فسحبوه ، وشدوا يديه فتخلّعتا . فهدر أبو اسحق : السياط!

وكأن شهوة التفوّق ، على أخيه المأمون ، عادت فاستيقظت فيه ،

فاعتكف على تذليل العَنود ، مخاطباً ابن حنبل بقوله : لا تقتل نفسك يا احمد . أجبني حتى اطلق غلّك بيدي !

فبخل عليه بالرجاء . فوا خجلته من نوران !... وانكسرت فيه سورة الهوى . لم يكن عند حسن ظن ابنة عجيف ، وما رجح أخاه ، ودحض مزاعم العباس . وصاح بعض من في المجلس ، وقد سئموا عقم الحوار : اقتله يا أمير المؤمنين ، واجعل دمه في أعناقنا !

وطربت للصيحة نوران . فجلجل ابو اسحق : وهبته للنار !

وأباح للجلاد ان ينهش جلد المناكر . فلم يحتمل ابن حنبل، وهوى مرة أخرى تحت اللذع ، وقد اشتد به الاغماء ، وابو اسحق يدفع الزفرة ، تلو الزفرة ، حاقداً ، متململاً . لم يكن مطمئناً الى هذا التماسك في الامام، وقد ودّ لو جاراه في الشهوة ، ونعِم باليُمن . ورقبت نوران أن تنطفىء روح ابن حنبل ، تحت لسعات السوط غير الراحمة ، لتصيح برجال الدين : هبّوا الى الذود عن حياضكم ، يا طغمة الله !

فلقد أعدّتهم صفاً واحداً ، للساعة الحاصدة . ولكن ابن حنبل لم يمت ، مع ثخونة جراحه . فاستعصى على المنية ، كما استعصى على البدعة . فكادت نوران تجنّ حنقاً . الى متى تكابد عنت الاقدار ؟... ووثبت الى المعتصم هاتفة به بفيض من غيظ : اقتله ، اقتله . أيستطيل عليك ، كأنك دونه ، وتسكت على وقاحته ؟

فأطرق،وفي محياه قنوط، وخجل من كلاله. أيقتله ويستوقدها في الأمصار والاطراف ؟... انه لعاجز عنها ، إن يستفحل شبوبها . ولما سدّد عينيه

الى نوران ، تبينت فيهما ابنة عجيف خمود الوميض . وهمهم ابو اسحق ، بلهجة مرتعشة ، تحفل بوافر التأوه ، وبجزيل الاخفاق : لا حول ولا قوة الا بالله !

اثنان استعصت عليه مقاليدهما ، ابن حنبل ونوران

٤

أطبقت الشفاه ، في دار عجيف بن عنبسة ، على جزع قاصم . فارتمى العباس بن المأمون في زاوية ، ونوران في زاوية ، وثوى عجيف بجانب الباب ، وقد غاروا في مجاثمهم ، كأنهم أعمدة قوّضها الزلزال .

وهمدت فيهم كل حركة ، كالأموات . غير أن أعينهم الغائرة ، القاسية اللحاظ ، المزمومة الحواجب ، دلت على ان الحياة لا تزال تنتفض فيهم ؛ ولكن على موجدة ودغل . وأطلّ خادم يقول : الأفشين بالباب !

فاستوت الهياكل الثلاثة في جلستها ، متأهبة للترحيب بالمقبل . وبدا خيذر بن كاوس بقامته الفارعة ، وعمامته السوداء العالية ، ولحيته الشمطاء ، وعباءته الدكناء ، يجرّ سيفه وتيهه . بيد انه تيهٌ مرضوض ، وقد شاعت فيه الغضبة الاسيانة . ونهض له الثلاثة إكراماً . فدنا من العباس يطأمن ظهره . وصافح عجيفاً ونوران . وجلس وهو يتنحنح ، كأنه يجلو صوته . وقال يسوق الحديث الى المليحة الموتورة : باء كل مجهود بالاخفاق ، يا ذات النضارة . والله ، إن الدهر لمعدن لؤم ، وما يظاهرنا على مرتجى . فكل خطوة من خطواتنا كابية ، مع سداد مرمانا . إنها لمحنة غشوم ، ما أدري كيف ننفض منا وطأتها . نحن نمشي والنحس يمسك بأقدامنا !

فنبرت نوران بحقد طروح : اننا لغرقى النكد ، يا أبا الحسن . كل محاولة يدهمنا فيها الاخفاق ، كأننا لا ننصر حقاً . فمن أقام من الحوائل ما أقمتَ ؟... ومن دفع الغاصب الى المتالف، كما فعلتَ ؟... أزجيته بيميني عشرات المرات الى حتفه ، فعاد من المهلكة منصوراً ، غانماً ، كأن السعد

معوانٌ له . حفزته الى بابك فقهره . والى الزطّ فأبادهم . والى العلويين فأقصاهم الى خراسان يقاتلونه فيها ، ولكن على هزال . وأغريته بأحمد بن حنبل ، وفي يقيني أنه قاتله . فخاشنه و كسر أضالعه ، وما دقّ عنقه . مع أني اعددت رجال الدين للمطالبة بالدم المسفوك . ألا تباً للايام الذميمة ، وقد كتبت علينا الخذلان !

والتاعت ذات الرواء الطريف . لكأن العثرة تؤاكلها . فقال الأفشين يضع عنها : على هونكِ . ما زال في الكأس بقية . كنت قد حدثتني عن الروم تقذفينه بجمرتهم ، فلا تتقاعدي عن التحريش بينه وبينهم ، وما بودي به سواهم . فهم دولة مجهزة بالعدد والعدة . وأراه سينقصف في مجاولتهم ، وليس له أن يثبت في النزال ، وقد تضاءلت فيه العزمة ، بعد كل ما خاض من واقعة !

قالت وما زالت على حردها : أخاف أن يصيبنا في الروم ، ما أصابنا في بابك ، وفي العلويين والزطّ ، يا أبا الحسن . فننهار في كل ميدان . لسنا نقاتل المعتصم ، وأبيك ، بل نقاتل الحظ القاهر . ولا حيلة لنا في مغالبة المقدور . إن الخيبة لترصدنا في كل سبيل !

واستنسر فيها التشاؤم ، وتجهم محياها . إن الزمن لجادّ في العداء . فقال العباس ، وقد أحسّ بضؤولة شأوه : لنحاول يا نوران !

فشزرته بنظرة ثائرة ، فيّاضة بالاحتقار . بيد أن الشفقة تغلبت عليها فأمست لينة ، عطوفاً ، وكأن هذا الكابي الهمة ، أجدر بالرحمة منه بالازدراء . قالت ابنة عجيف بن عنبسة : لأجلك سأحاول يا ابن المأمون . فليس عليَّ ، وقد طويت ، نعمى عينك ، هذه المراحل الفساح ، أن أتقهقر عن المرحلة

الأخيرة . سيحارب عمك الروم ، على أن لا تهون في التوطيد لنفسك ، فيما يركب ابو إسحق الى الوغى . وسيفعل ، وما كان بالجبان . ولكن لا تجبن أنت ، يوم يبتعد عن الحمى !

فزعق يعترض على ما ترميه به من مذمة : وهل رأيتني ذلك الرعديد ، يا نوران ؟

وفشا فيه الغيظ . ونوران تعمدت إثارة غيظه ، كي تحيي فيه القدرة على اقتحام العقبات . قالت تزيد في احراجه : إن لم تكن رعديداً ، فلستَ ذلك الصنديد ، وما أحسنتَ انتهاز الفرص. فالسوانح كانت تمرّ بك فاتحة لك أذرعها ، وأنت تصدّها عنك كأنك على استخفاف بها . ثم أسمعك تطالب بحقك بالخلافة . وليس لمن يطالب بهذا الحق ، ان ينام على الفرص يستعديها على رغبته ، كيفما توافرت له !

فصاح وقد اشتعل ألماً وحنقاً : لا أراني ذلك الضعيف كي تستجيزي لنفسك وخزي بالمهماز ، يا ابنة عجيف . فلست من يقعد عن البذل ، في إدراك المشتهى.إنك لتنفثين في روعي النار،وأنت تعيّرينني الجمود،والغفلة!

واكتأب شديداً ابن المأمون . فانبرى الأفشين وعجيف يخففان عنه ، ويعتذران عن نوران ، قائلين : معاذ الله ان تكون ابتغت الاساءة الى مولانا . فما رامت سوى إذكاء حميته . ان نوران لأبعد من ان تغمز بابن أمير المؤمنين ، وبمن سيكون أمير المؤمنين !

وابتسمت نوران، وهي توقن انها أدمت مهجته ، وقالت : ما أردت إلا ان أضرم فيك الهمة . والحمد لله وقد بلغت القصد . تهادت اليك الأوازف في متعدد الاحايين ، فما استمسكت بها . ولم يبق أمامنا غير واحدة. فاذا

أفلتت من قبضتك ، فالسلام علينا جميعاً . فلن تطويك المنية وحدك ، بل ستأتي على جميع اخوانك ، وأنصارك . ونحن في الطليعة. فاستعن باقدامك وحكمتك ، وانقذ نفسك ، ولا تبحنا لمن يدعسنا !

فما زال غاضباً . ما بال نوران تسدد اليه النبال الرهاف ، فلا تتئد ، ولا تحتشم؟.. قال وقد جاشت فيه كوامن الجفاء : لست بمن يطيق هذه الحوادش ، يا نوران . هلاّ اعتدلت في بيانك؟... أذكري في حضرة من أنت . أنا ما جمعتكم حولي كي أضحي بكم . معاذ الله . إني لأسبقكم الى حيني إذا مسّكم ضرّ . وما كان لي أن أشعلها في المطمئن العربي ، لأجل الخلافة . فالحكمة في بقاء العباسيين في الأريكة ، لا في هدمهم ، كي يتولى الأمر ماقط بن لاقط . إلا ان سعيكم لتوطيد حقي ، حفزني الى المنافرة ، وإني لراسخ فيها . على أني لست أدين بها كي تنشب في أنفتي الأظفار !

والتمع فيه نبل المحتد . هذا ابن خليفة يتكلم . وهفت اليه نوران تستغفر : ما كنت لأبتغي إيلام روح سيدي ، وابن سيدي. الله عليّ شهيد. الا ان مفرط الغيرة نزع بي الى حيث جمح لساني ، فعفواً يا ابن الميامين . ان نوران لتبصر من الوجود كله وجهاً واحداً ، هو وجهك . وتشيح عن بدائع الكون أجمع ، لاستبقائك لها سيداً . واذا ما لمستَ فيها الشرود ، فما حملها على التخطي سوى حبها لك ، وايمانها بحقك، وليست تجد سواك خليقاً بالامامة . وسوف تراها تسخو عليك بروحها كي تسود . وما ضنّت بأيامها ، الا لتبصرك في المستوى المنيف !

وأزالت عنه حرده ، وليس له أن يغاضبها ، وهي منه في ممتلىء الحس .

قال يسوق الكلام اليهم جميعاً : ألا تدعونني الى وثبة حاسمة ؟... سأثبها حتى ولو سقطت فيها على أم رأسي . ما ان تتقد ، على التخوم ، حتى أوقدها في صميم الدولة العباسية ، وأنادي بنفسي خليفة . ومرتجاي ان أجد حولي الامة تبايعني . فإما ان أزحزحه ، وإما ان يطويني . لم يبقَ للرجرجة عندي متسع !

فقال الافشين بكلام رفيق ، هنيء ، يخفي ما وراءه من أرب : أجل ، يا ابن مولانا ، ليس لنا أن نتأنى بعد طول روية . أمست الضربة مفروضة علينا . فما إن ننطلق ، إلى محاربة الروم ، حتى تخلع عمك ، وتهيب بقومنا إلى مبايعتك ، وسيفعلون . فليس للمختلس أن يفتئت طويلاً بحقك الصراح !

وقال عجيف : ما ان تدعونا الى نصرتك ، حتى نبدو بجانبك . ولا بأس أن نهجر لاجلك ، ونحن القادة ، ميادين القتال !

فابدى العباس مزمعاً أن يخطو الخطوة الفاصلة : أسرعوا اذن في ايغار صدره على الروم . أما اهتديتم الى الوسيلة ؟

فأعلنت نوران : لن يعوزنا التدبير ، وقد أعددناه . فكل ما علينا أن نبادر الى إقراره ، وتحقيقه !

فاستفهم : وما هو التدبير يا نوران ؟

وشاقه أن يلمّ بما شحذت من نصلة ، تنحر بها عمه ، بعد كل ما تحطم في قبضتها من نصال . قالت : هو ما تعلم من ايفاد ابنة عم ابيك ، ريحانة ، الى أطراف الدولة ، تتعرّض فيها للروم ، وتلقى منهم ما يؤلم كرامتها . فتصيح : « وامعتصماه ! » ، مستنجدة بالغاضب . فلا يتقاعد أبو اسحق عن النجدة ، وتقع الوقيعة !

– آما من أحبولة اخرى ؟ ... عرفتك بارعة في نصب الفخاخ !

وابتسم لها يطري قبا الدهاء ، ويجاهد في معالنتها بأن حفيظته عليها تلاشت ، وليس ممن يحملون الحقد . فردت له ابتسامته بأحسن منها ، وأجابت : أجهدت ذهني في الاستنباط ، فلم أوفق لحيلة أمضى . فإن يكن لديكم ما هو أنجع ، فهاتوه نخضد به عنق الجبّير !

قالوا : بل نجري في ما وطّأت ، يا نوران . وليس ما أعددتِ بالتدبير الزريّ . فلا قبل لنا بالقضاء على المستأثر بالامر بغياً ، الا وهو ذلك اللاهث ، الدامي !

فأعلنت بثقة المطمئن الى حسن المسعى : اذن سادعو اليكم ريحانة ، ونعهد اليها في الانطلاق الى التخوم . وريحانة بجانبنا ، وليست تطيق ظل أبي اسحق . ففي عرفها ألا تعدو الخلافة اثنين ، العباس ، وأباها ابرهيم بن المهدي . وليست تؤثر منهما أحداً على الآخر . فإذا لم يكن ابرهيم ، فليكن العباس . على أن ينقشع ظل المختلس القاهر . أألجيتكم بها ؟

فاستوضح الأفشين : والى أي ناحية تدفعينها ، يا ابنة عجيف ؟

– الى حيث يطيب لك يا أبا الحسن . فاين تجدنا على يسر ؟

فأطرق هنيهة ثم قال: اطلقيها الى زبطرة. فالروم هناك أشداقٌ فاغرة، وأنيابٌ كاشرة . وما ان يلوح لهم بعضنا حتى ينالوه باذى . وان هم سكتوا عنها، فلتتحكك بهم، ولتفجر صيحة تهتز لدويّها الآفاق. وسنكون بجانب المعتصم ، لاغرائه بالروم ، وقد تصدوا لابنة عمه . فننكر عليه السكوت عن الأعلاج المستهينين بالأقدار . وإني لأعرفه على نزق ، وهو التيّاه . فلا يتأنى ، ولا يتهيّب . ولا بد أن يلقى في الصراع حتفه ، بعد

كل ما اثخنته الجراح . فقد لاح لي تعباً ، وان يكن ملك النصر في كل ميدان . وما رضّ روحه ، كعناد ابن حنبل . فهان حيال صلابة الامام . وشعرتُ بأن قد دبّ الى نفسه الموت . ولو استطاع أن يخطف أنفاس رجل الدين ، لفعل ، غير حافل بروح تزهق . إلا انه خشي فورة انصار الحنبلي ، ولن تحمد مغبتها . ولمست فيه للمرة الاولى الرويّة ، وخشية العاقبة . وما كان غير نار تضطرم في أوانها ، وفي غير أوانها ، وقد ركب غروره. على أني لا أعزو سعة صدره الى وفور حلمه ، بل الى الحظ الموالي ، الممهد له الى الاستعلاء !

فاستوضحت نوران: وهل يواليه هذا الحظ، ويقهر الروم، يا ابا الحسن؟

وخافت الحظ المعرض عنها ، الممعن في تهشيم مناها . أيظل يفرّ منها ، كأنها منجم الوباء ؟ ... أفلا يبسم لها مرة ، وهي من لا تجد حولها غير من يزجي اليها البسمات ؟ ... فما يميل به إلى كعمها ، وكسر أملها ، ومثلها ذات حق بأن تعيش لقلبها ، ولاخضلال زمنها ؟ ... أيضيق به ان تتنفس بأمان ؟ ... وأظلمت مهجتها ، وزهدت في دنياها . إلا ان الشوق الى الكفاح لم يخمد فيها . فاستعادت رباطة جأشها ، وأرهفت أذنيها تصغي الى الأفشين . فقال خيذر بن كاوس : ليس للحظ وجه معروف ، يا نوران . فما ان يوالي،حتى يخون. ومن الصعب ان يوالي ابداً. على أن له فلتات تحيّر الالباب . واني لاخشى أن يكون نفح المعتصم باحداها . وما كان لهذا الواثب عفواً الى القمة ، بلا سلاح ، أن يفلح حيث أخفق الشراة الاعلام. ولكن جهادنا ما انتهى . فعلينا ، وقد بدأنا ، أن نمضي في النهج ، حتى يضيق بنا المدى . اين إبنة ابرهيم ؟

ونفس الأفشين تحنّ الى الاستئصال . ولكن بما يكتب له الغلبة ، لا للعباس . فإنه ليزدري هؤلاء المتشوّفين الى الخلافة من العباسيين ، بعد انطواء المأمون ، وليس فيهم من يصلح للمركب العالي الذروة . ومن يكون المعتصم في عرف الأفشين ، غير جاهل ، أغلف القلب ، ينبو عنه صدق المشورة ؟ ... انه يصلح لركوب الجياد ، ولضرب الجريد ، وامتشاق السيف ، وتسديد السهم الى المرمى . ولكنه غير حقيق باعتلاء الامامة ، ولا علم يشفع فيه ، ولا رأي ينجده ، ولا طول أناة يحدّ من أشره . ومن ضرب بابك في قلبه ، ولحا عوده ، وشرّده في الفلوات ، كليلاً ، ذليلاً ؟... ليس المعتصم رب المعجزة ، بل الأفشين ، الأفشين عماد الدولة العباسية في عهد أبي اسحق . ولماذا لا تلقى المقاليد الى من يصونها ، وإمارة المؤمنين ليست ارثاً للذراري ، كما سنّ لها معاوية ؟

وطمع أبو الحسن في الأكلة الطيبة . له الأريكة ، لا لهؤلاء الصعاليك ، الناهدين اليها على عرج . وليس لهم من عدّتها غير الاسم العريق . ولكن الاسم لا يكفي ، وما يردّ محظوراً . فإن لم ينجده حسن المسعى ، فهو الهباء . وحسن المسعى عطل منه المعتصم ، والعباس ، وابرهيم بن المهدي . فما يملكه غير الافشين ، دون سواه . مما يحفز أبا الحسن الى اقصاء جميع هؤلاء المتحلّقين على قرص الحلوى ، ليتلذذ به وحده . ووطد النية على هذه الشهوة يدركها . له إمارة المؤمنين ، وغير المؤمنين . وما تقوم به نوران ، من جهد ، ان هو الا توطئة لركوبه السدة . فتتهالك ابنة عجيف على خدمته ، دون أن تدري

على أنها ستدري في الموقف الفصل . فكل ما على أبي الحسن ، الآن ،

ان يساير ، ويؤيد ، ويعين . وما ان تأزف الآزفة ، ويوشك العباس أن يعتلي الدكة ، حتى يمسك به الأفشين عن الارتقاء اليها ، وقد ابتغى ما ليس له أهلا . وأطربه أن يجد هؤلاء الماثلين إزاءه ، يفنون أنفسهم في إحقاق أربه. ورغب في رؤية ريحانة بنت ابرهيم، كي يسمع، بأذنيه، ما تعتزم. قالت نوران : سأوفد اليها من يدعوها !

وقامت تدفع أحد خدمها الى ابنة إبرهيم بن المهدي، قائلة له: كن رفيقها في مجيئها الينا. فإننا لفي مجلس يدعو الى مثولها فيه. لا ترجع بسوى معيتها!

وأبت عليه أن يعود في سوى ظل ريحانة . فأذعن الخادم للأمر العالي، وهو يعلم من مضاء نوران في شهواتها ، ما لا يبيح الزوغان عنه ، في مدى شعرة . وما انقضت بضع عشرة دقيقة ، حتى أطلت ابنة ابرهيم ، بوجه يشرق حبوراً . فوثبت اليها نوران تعانقها ، وتبالغ في الترحيب بها . وأدركت ريحانة ، من مرأى العباس ، والأفشين ، وعجيف ، الباعث على الدعوة . وجبت الى ابن المأمون تقول بارتياح ، وجذل : السلام على ابن عمي . والله ، إني لتعبة الضمير بما ألقاك فيه من غبن . ولكننا لن نغفو على الضيم ، وتربة أبيك . فما أجدر بها منك . وإذا خلعتها عنك ، فليس أحق بها من عم أبيك ، إبرهيم !

وسلمت على الأفشين، وعالنته قولها: ما يغيب عني انك منا، يا أبا الحسن، وأنت من الأوفياء للمأمون ، وسلالته المباركة . عرفتك في غضبة نهر البديدون ، وقد غاظك أن يتوسد الأمر من ليس وليّه !

فقال الأفشين ببسمته الغائرة اللون : كنا في نصرة الحق ، يا ريحانة . ما كنت أودّ إلا ان أسمع المأمون يبايع ابنه ، وهو يجود بالروح . إذن

لنجونا من هذه المدلهمات. ولكن عيوننا لن تغمض على الأذى، يا ابنة ابرهيم!

وحيّت ريحانة عُجيفاً، وجلست بجانب نوران. فضمتها اليها صفيّة العبّاس، وقالت تطريها: لن نكبو ما دمت بجانبنا، يا ابنة الاكرمين. أجل، حاولنا ولم نوفق. إلا انك لم تكوني فينا. أما وقد ألقيت الينا يدك، تنجدينا، فلن نخيب!

فوضح لها المبتغى. هم يريدونها على الانطلاق الى الروم تتصدى لهم، ويغمزون بها. قالت تستفهم: وعلى مَ عوّلتم؟

فاجابت نوران: على ما اتفقت وإياك عليه، يا ريحانة. فهل بقي في الكنانة غير هذا السهم، يا ابنة أمير المؤمنين؟

فتورّدت وجنتا ريحانة خجلاً، وهي تسمع نوران تنفحها بهذا اللقب. وقالت: عفو العباس، ابن عمي. فليس لنا أن نطمح باعيننا الى امارة باتت من حق سليل المأمون!

فقال العباس يؤيد نوران في ما ذهبت اليه: ولكن أباك ابرهيم ظل على متعدد السنوات ذلك الخليفة، يا ابنة عمي، وإن يكن نازع أبي في المرتبة، وقام في الوسعة العربية خليفتان. وليس لنا، وقد حملها أبوك، أن نبخل عليكم بعطاياها!

فأبدت، وقد تعاظم خجلها: ما كان لابرهيم أن يصادم إبن أخيه المأمون، يا ابن عمي، لولا تلك البادرة من أبيك في الخروج بالخلافة عن مستقرها. أما وأبوك قد عفا، فحسبنا ما نعمنا به من عطف السيد الكريم. وإذا كنت لا تنفك ترى، في أبي، ذلك المستطيل عليكم، فستتولى ابنته التكفير عن الاساءة، ولن تتقاعد عن مظاهرة الفتى النجيب!

فأعلن بخضيب الاستبشار : شكراً ، يا ريحانة . ما كنت إلا ذلك المؤمن بمستفيض الأريحية ، يا ابنة عمي . نحن متحالفون على المستوري بنا !

وقالت نوران : إن لم تمدّي لنا يد المعونة ، فليس لنا ان نفوز بالطلبة. حياتنا في راحتيكِ . فهل لك أن تشخصي الى الحدود ، تتعرّضين فيها للروم ، وتطلقين صيحتك ، وقد نالوك بالاذية : « وامعتصماه ! » ، وعليّ بلوغ المشتهى ؟

فابتسمت وأفصحت عن الميل الى الاجابة : وما يثنيني عن التلبية، يا نوران، وقد صارحتك بكرهي لهذا المستحلّ ما لا تملك عينه ؟... ففي نفسي ، من النقمة عليه ، ما يهيب بي الى تدويخه ، بما يجيز لي الوسع !

فهتف الأفشين : إنك لذات نفس سُقيت الانصاف والكرم يا ريحانة. فما يجلو الغمامة عن الصدور سواك. أنت وحدك لها. وكانا بانتظار يدك علينا ؟

قالت بحماسة شفّت عنها نظرتها ، ونبرتها : ولكني على أهبة ، فمتى يشوقكم أن أنطلق ؟

فنظر بعضهم الى بعض . متى ؟... قال الأفشين : لا بأس بالعجلة. فاذا ما استراح الخصم ، خاب الجهد !

وقال عجيف : على الفور ، يا ابنة أمير المؤمنين !

وقال العباس : في العاجل الوشيك ، يا ابنة عمي !

والتفتت اليها نوران ، وقد أشرقت في ثغرها البسمة الممراع ، وقالت : خير البرّ عاجله ، يا ريحانة . فاذا ما أقدمت حثيثاً ، على النجدة ، أنقذتنا من الظل الثقيل !

فلم تمانع ابنة ابرهيم ، وفي صميمها على المعتصم بالله حفائظ تمور . قالت :

لن يدهمكم في التجائكم اليّ الاخفاق ، فاطمئنوا . سأكون في هذا الاسبوع ، في زبطرة ، وشقيقتي أدماء متزوجة فيها . وستسمعون من أخباري ما تغتبطون به . وسأطلب الى أبي أن يواليكم . وليس يقرّ عيناً بركوب الصلف ، الذميم ، المقعد الأسمى . فما زال ابرهيم بن المهدي يذكر فضل المأمون عليه ، مما يجنح به الى تأييد ذرية أبي العباس ، في الخلافة . وإذا رأيتم أن تخصوه ببعض ما يرتاح اليه وكده ، فانكم لتجدونه على شكر مستفيض للمنّة ، وما كان ممن يجحدون المبرة !

فهتفوا معاً : سننادي به ولياً للعهد !

فراعها ما يستقر بوعيها من غضير المقال ، وأبانت : اذن وقعتم على الطلبة . كلنا على مواءمة . ستتفتح مسامعكم ، ذات صباح ، على صرخة : « وامعتصماه ! » . فتأهبوا لها . وحضوا أبا اسحق على الاغاثة . فيتحطم على دروع الروم . ما كنت أشتهي أن نفزع الى الأعداء ، في كسر شوكته ، ومحق دولته ، إلا أن اخفاقنا في كل ما نصبنا له من اشراك ، أكرهنا على ما ليس منه بد . ولكن هؤلاء الروم ، اذا ما هزموه ، فهل يقعون فينا على من يغرز في نحورهم سنانه ? ... حذار أن نوشق نصلتنا لترتدّ الينا ، فتصمينا !

وأجالت فيهم عينيها النجلاوين . وما كان للصباحة أن تبخل بمواهبها على ابنة ابرهيم . وران عليهم الاطراق ، وقد سقط اليهم تحذيرها اياهم من الغفلة . ورقب كل منهم أن يتولى الآخر الابانة . وهال السكوت المنشور نوران بنت عجيف ، فهتفت وقد خشيت فتور الهمم : ولكننا لن نجيز لهم غزونا ، يا ريحانة ، اذا ما خضدوا ذرع أبي اسحق . فالأفشين لا يطيق هذه

الصولة المستذئبة . وأبي لن يغضي عليها . أما العباس ، ابن عمك ، فلن يرتضي ضياع الأمر من يده ، بزحف الروم الى دياره ، يسلبونه سيادتها . أعددنا للساعة الفاصلة عدتها ، فلا يروعنك الخطب . لتنفجر صيحتك ، ونحن بامان !

ولم يسع العباس ، والأفشين ، وابن عنبسة ، الا ان يؤيدوا قولة نوران ، قائدة الحملة على راكب السدة . والتفت خيذر بن كاوس الى نفسه ، فأعجبه ما اتفقوا عليه . انهم ليشتغلون له أكثر منهم لانفسهم ، وليس فيهم فتى ركين الدعامة ، يحتمل العبء . فهو القابض على الزمام ، وكتفاه وحدهما لا ترزحان بالبغية . قالت ريحانة : اذن ، وارحمتاه لأبي اسحق !

وسخرت من نفسها ، وهي تشفق عليه . وما لمثله أن يرتقي الى حيث يعيا عن البقاء . فإن يكن المأمون بايعه بالخلافة ، فما أزجاها اليه ، الا والنفس في رجرجتها ، وقد أوشكت ان تندلع من جثمان يتوعده الاندثار . وهو لو أبصر أياً كان ، بجانبه ، لجاد عليه بالامامة . والدولة ليست مجبرة على طاعة من انتهز سانحة البحران ، في الوليّ ، ليخلفه في الحل والربط . فما ثمة غير افتئات بحق لا يزال العباس بن المأمون أجمل الناس به . واذا تحوّل عن العباس ، فإن له في ابرهيم بن المهدي أمنع موئل ، وما برح ذلك الخليفة ، وبغداد ، على بكرة ابيها ، نادت به امير المؤمنين

هـذا رأي ريحانة . وإنها لممسكة به . وما أخذته عن سوى أبيها ابرهيم . فالمعتصم خليفة الحشرجة . وفي الحشرجة ما ينأى بالرشد عن مكمنه . فلا ينطق اللسان بسوى الخليط . وضحك العباس ، والافشين ، وعجيف ، وهم يسمعونها تندب أبا اسحق . وعكفت عليها نوران تقبلها ،

وتقول : عشت يا ريحانة . فما يعصمنا من لدغة العقرب سواكِ !

قالت تزيد في الهزء براكب السدة : ولكني لن أستنجد به ، إلا وأنا أندبه . وكأني أنعاه الى نفسه . فإذا ما أغاثني ، فانه ليشمّر الى حتفه ، والموت مكتوب له في صرختي . هنيئاً للعباس ، ابن عمي !

وفطنوا الى ما تعني . ليس في صيحتها : « وامعتصماه ! » غير ندبة . وسرّهم أن تجيء الصيحة الناعية في موضعها ، وما يرمون الى سوى كسر عود المعتصم بالله ، في اغرائه بالروم الأشداء . وإن لم يكونوا من الشدة ، بما يساعدهم على قهر العرب ، فسيصادمهم أبو إسحق وهو على إصفاء ، فينهار ، والعزم تداعى فيه ، وما أبقى في صلبه بابك على فضلة من قدرة . وقادته أنفسهم سيخذلونه ، ويبيحونه لنصال الروم تنقب صدره ، وتقطع نياطه . وما ان ينطوي ، حتى يغير العباس ، وإخوانه ، على الأعلاج ويحطموهم ، وتبيت الدولة العربية إزاء وجه آخر من وجوه المسيطرين

ولكن هذا الهادي المسيطر ، من يكون ؟... فالخمسة الرابعون بقر عجيف بن عنبسة ، ليسوا على اتفاق في الصبوة . نوران لا ترضى بسوى العباس بن المأمون سيداً . والعباس يريد الامامة لنفسه ، ويجاري نوران في الشهوة . وعجيف يحبو في ولائهما ، وثقة ابنته . أما ريحانة ، فلمن تبتغي امارة المؤمنين ؟... مهما بلغ بها الرفق بابن عمها ، فلن تفضله على أبيها . وأما الأفشين ، فان منازعه لجليّة الهدف ، وما يروم غير الفوز لنفسه بالخطوة الفاصلة بينه وبين السدة . فيقبض بيمينه على أعنة العرب والعجم ، ومن وما اليهم ، من خَوَل ، وعبيد ، وأموال ، وأمصار

٥

خانت الجرأة أبا إسحق . فما جبهه به ابن حنبل ، من صليب الصدام ، مـال به الى الانزواء . فما كان ليعتقد أن في دولته من يمطّ عليه خده ، ويزدري فتكته . وروّعه في ابن حنبل احتمال جلد السياط . فما هذه الضلاعة في مكابدة الشدّة ، والجلمود نفسه ، يكاد يلين ، لو نزل به ما انهال على رجل الدين ، القوي الشكيمة ، من لسع ؟ ... ولكنه الايمان . ولقد اكبر المعتصم ، في ابن حنبل ، الصبر على الملمة . فما نفحه به دينه من اعتزاز ، جنح به الى الاستخفاف بالغواشي ، مهما استشرى جماحها

وزوى الخليفة ما بين عينيه . ومانع في الجلوس للمستأذنين عليه . فلن يلج ايوانه احد ، حتى الأصفياء . وأطرق في سدته . وألقى رأسه إلى راحته ، وتاه في عالم بعيد ضاعت تخومه ، وامحّت رسومه . فهو يجهل أين أمسى ، وقد جثم بصدره جزعٌ كاسح ، وحنق جُراف . أيهون بعد شموخ ؟

فرى لمّة بابك الخرّمي ، واستأصل سويداءه ، وعجز عن شيخ رثّ ، لا يملك من الهمة ، سوى إيمانه وتقواه . مع أن بابك أعيا المأمون ، على مدى ثماني عشرة سنة . فمات أبو العباس ، وفي نفسه من المتمرد المستطيل ، سخائم محرقات . غير أن المعتصم اقبل ، وهصر عود الوقح ، المقحام . وإذا جبروته يتداعى في إكراه مؤمن ، متعبد ، لا يملك سهماً ، ولا رمحاً ، حتى ولا شفرة كليلة ، على القول بخلق القرآن

إنها لكارثة تدمغ الصولة المترامية العرام . بيد ان المعتصم ، شعر بكونه مضطراً إلى الانحناء ، تحت نيرها . فإذا ما شدخ هامة ابن حنبل ، فلقد أشعلها

في صفوف الجيش ، وفي بواني الأمة . فيتألب عليه رجال الدين ، منادين بتكفيره ، ويظاهرهم عليه العلويون ، وبقايا الزطّ ، وأنصار العباس ابن أخيه ، والفرس من أعوان بابك ، وربما الروم . وليس يملك البأس في معاناة هذه الويلات المتربصة به . إذن ، فاللين اولى . ولكن ما يقول فيه الحانقون عليه ، وقد توانى عن إبن حنبل ، أما يزدرونه ، ويعيّرونه التواكل ؟

وصرف باسنانه . وتصاعدت من صدره زمجرة الحنق والحقد . إنه لمغلول اليد ، خجول من قومه . آه من ابن حنبـل . هو الوجه الفرد ، المنادي بالعصيان ، في دولة ابي إسحق . فالجباه باجمعها تصاغرت إزاء المعتصم ، الا هذا الجبين المرفوع ، المستخفّ بالضيمة . وما سها عن نوران أن أبا إسحق ، إذا هان في كبح جماح الامام الحنبلي ، فسيغلو في مصاولة اعدائه ، حتى يمحو اللطخة المطبوعة في الناصية . فلا غنية عن طمس وصمة انتهاك الحرمة ، في مواقع تنطق بالعزة ، مع كل ما يلمّ بالجيش من عياء

ونهض أبو إسحق إلى صيانة ماء وجهه . لا محيد عن القتال ليغسل بالدم خوره ، وانهزامه . فهو يحسّ بكونه ذلك المهزوم ، تجاه مكابرة ابن حنبل . ولكن من يقاتل من الاقوام ، لسد ثغرة الفشل ، وجبر العثرة ؟ .... لم يجد إزاءه غير الروم . وتذّكر نوران . فهي من حدثه عن مناجزتهم ، وقد غمز به العباس ، إبن أخيه ، لقعوده عنهم . فإذا ما رجع المأمون ، في إبادة الخرّمي ، فلا يزال دونه في تشتيت الروم . وصاح أبو إسحق ، من قلب يتلظى شوقاً الى فتنتين ، الى مرأى ابنة عجيف ، والى استئصال المعرّة اللاصقة بالاحدوثة : اين نوران ؟

وسمعه حاجبه وصيف ، فشاقه أن يتكلم مولاه بعـد طول إطراق ،

وأن يفكر في ذات السنى الأنور ، وهي الذاهبة بالأتراح.وهبّ الى الاجابة منحنياً بين يدي سيده الأثير ، ومعلناً بخشوع المطواع : ها أنذا، يا أمير المؤمنين !

فاتسعت عينا أبي إسحق ذهولاً.هل تكلم بصوت عالٍ ،فسمعه حاجبه؟... فضحته ذات السلطان المنيف . وعاد فاعترى محياه القطوب . ودمدم على الحاجب : من دعاك إليّ يا وصيف ؟. .. دعني في وحدتي . لا تدخل إلا وقد ناديتك. فهل سمعتني اناديك ؟

– ولكن... يا مولاي !

وتعتع وصيف في القولة ، وقد أدركته الرهبة والحيرة . فصرخ به أبو إسحق : ولكن ماذا ، لا أم لك ؟

– نوران ، يا أمير المؤمنين !

فأذهله .أجل، نوران . ومن سواها لجلاء الكدرة، وتوفير الأنس؟... وما ابتغى أمير المؤمنين وجهاً آخر . سمعه وصيف . وابتسم للحاجب اليقظان ، الفطين. وقال ببعض الاستخذاء : ألا جئني بالمليحة ، يا ذا الأذن السمعة !

والمليحة لقبٌ لا تنافس فيه ، ذات مواهة ، نوران . فما في دنيا أمير المؤمنين مليحة سوى ابنة عجيف . فقال وصيف باغتباط رحيب : أمرك الأمر ، يا سيدي وأميري !

وارتدّ الى الحصيان ينادي أدهام ، قائلا له : إسرع يا ميسور ، وانتهج طريقك الى دار عجيف بن عنبسة . وخاطب نوران ، على خلوة ، باجابة دعوة الخليفة. كن على رجاحة حنكة، وتدبير، فلا يدري أحد بما تسعى له !

واطمأن الى ذكاء الخصيّ . وأنجز ميسور المهمة بحصافة الحكيم. فتألقت حثيثاً نوران في القصر بمنشور صباحتها . وسألت : أين عليّة ، إبنة أمير المؤمنين ؟

ولكن وصيفاً دفعها الى إيوان المعتصم بالله . ما لها ولعليّة ، فتحرج الخليفة بابنته ، وكل ما في نفس ابي إسحق ينهد الى الانفراد بابنة عجيف . والتمعت في اسارير المعتصم فرحة متئدة، حبيّة . كان يود لو تنبسط وتفور وقد أطلت ذات اللألاء . بيد انه ما زال يذكر التواءه في مصادمة ابن حنبل ، مع معاهدته نوران على تذليل رجل الدين لرأيه في خلق القرآن . فيعدو أخاه المأمون في الضلاعة، ويخرس في العباس ما يعيّره إياه من عياء . واقتربت منه نوران على ثقة بالنفس ، ودلال في المهزة . وانحنت وهي تبتسم وتقول : السلام على أمير المؤمنين ؟

فهشّ لها وبشّ . واستنشق ريحها وقد زخرت بالطيب ، حتى امتلأ الايوان بشذاها . وانتشت نفسه بعد كمدة ، وهو يملأ عينيه بهذا النور الوهّاج ، كأنّ الشمس بين يديه . وردّ لنوران السلام، وقد ماجت ابنة عجيف في ثوب من الحرير الازرق ، علا له حفيف زاد في الفتنة . وعقدت على شعرها منديلاً من اللون نفسه ، مرصعاً بالجوهر . وطوّقت جيدها بقلادة من صافي اللؤلؤ . وما أشرق في معصميها غير سوارين لطيفين ، من الذهب . وفي لدونة هذين المعصمين ، ونصاعتهما ،ما يغني عن بريق الحلى

ورفّ الجفن الكحيل ، فتعاظمت الخلجة في لب المعتصم . وشاء أبو اسحق الاعتذار عن الونية في قهر الامام المعاند ، فقال : عفواً عن الوهن يا نوران . ما حسبت ذلك المعاند من حجر، فتتحطم عليه نصالي. وخشيت،

وأنا أدعو الى جلده بالسياط، أن أذهب به. فأضرمها في دولتي ناراً لا تخبو. وهو ما أتقي. فليس ابن حنبل، في حد نفسه، غير شرارة كابية. فكيف أعدله بلهب نهم، لا يبقي في المطمئن العباسي على أخضر، ولا يبيس ؟... ولكني إذا كبوت فيه، فلن أحترس من مواثبة الروم، نعمى عينيك، كي تثقي بأن من يهواك لا يعلوه ذو اقتدار وحلم !

فسرّها ان يحدّثها، من تلقاء نفسه، عمّا ودّت تذكيره به. وقالت تستجلي: ولكن متى يا أمير المؤمنين ؟

فتبرم باعلان الأجل. ما هذا الالحاح في العجلة، كأنها تأبى عليه أن يهدأ ؟... غير أنه أجاب يعد باحراز المطلب: سنختلس الآزفة، يا نوران !

وهو جوابٌ مبهم، لم ترضَ عنه إبنة عجيف، فقالت: ليس لنا أن نضيع الوقت يا أمير المؤمنين. وإلا سبقك اليّ ابن أخيك. فهو يريد ان أزوجه وشيكاً نفسي. وأنا أعلله بالأمل، وأسرف في الارجاء. وليس لي أن اغلو في المماطلة، ولا بد من يوم أستسلم فيه، اذا طال نومك عن العباس. ويرمض روحي أن أكون لمن لا يلتفت اليه بالي. إلا انه العهد، يا أمير المؤمنين. وأنا من ذوات الحفاظ. فحرّرني من قيد كبلت به خاطري، وأخشى أن يفصلني عنك ما دام العباس، ابن أخيك، حياً. ليسرع مولاي في إضرام الشعلة، ولنكن بها في نجوة ممن يسدّ علينا مهيع الوصال !

فتلظى حنقاً ووعيداً. وما أرادته غير ذلك الحانق، المتوعد. وجلجل: والله، ما اشتهيت الا أن اطيع فيه صوت أشواقي، يا نوران !

فاستفهمت بلهجة غير سليمة من مسحة الهزء، والخبث: والى مَ تحفز

هذه الشهوة أمير المؤمنين ؟

فنبر يتشفّى: الى اطاحة السدّ الحائل ، والشبح المقيت !

فضحكت متهكمة ، وقالت : أتفرّ من دم ابن حنبل لتغوص في دم ابن المأمون ؟ . . . ولكن الدهاء يقدر عليك أن تبرأ من دم هذا ، كما أمسكت عن تلطيخ يديك بدم ذاك . وليس أتباع العباس دون أعوان الامام . علينا ان نميل بالامة ، جمعاء ، الى الاعتقاد أن العباس ، ابن أخيك ، سقط قتيلاً ، بل شهيداً ، في مناجزة الروم . وأنك لن ترتدّ عنهم ، إلا وقد انتقمت له ، وخذلتهم . ولا بأس أن تبكيه ، وإن تكن قاتله . فالسعي لاخفاء الجريمة يهيب بك الى الرثاء . وحينذاك لن تجد نوران ما يقعد بها عنك . فتحبو اليك على اطمئنان !

فزفر . ليست تريد حبهما الا مضرجاً بزكيّ الدماء . كان ازهاق الأرواح دون عبثها بميثاق لا يأتلف وميولها . فتؤثر المجزرة الحمراء على لفظة بيضاء ، تطلقها عفواً ، بلا مشقة ، وتوجع بها نفساً ، إلا انها تحجب سيلاً من نجيع . ألا كم تغلو في بدل الهيام . على أنه أيقن أن قولتها مبرمة ، لا تحتمل نقاشاً . فكل جهد في ثنيها عنها ، لا طائل منه . وقد حاول قدماً ان يطويها عن الرغبة الجموح ، فما استطاع . قال بلهجة المغلوب على امره : أنت وابن حنبل لا تلوى لهما في دولتي مشيئة ، يا نوران . فلا حول ولا قوة إلا بالله !

فرمته بما بالغ في إحراجه ، قائلة : أراك نسيت العباس !

ففار وصرخ : أيظل لديك لذلك الدعيّ وزنٌ ، وحساب ؟

فابتسمت بمفرط السخر . وقالت تزيد في الايلام : وزنه كونه ابن أخيك . وحسابه ما يستمسك به من حق بالخلافة . وإلا فلم يكن ذلك

القرم العنيد ، وفي رجالك له أشباه !

فوثب كالشرارة وهتف : أين هم هؤلاء الروم كي أضرب أعناقهم بلا هوادة ؟... إنك لتحملينني على المسير اليهم وحدي يا نوران !

واستقرّت يمناه بمقبض حسامه . ونظرت اليه ابنة عجيف فاذا به يجيش ، ويودّ لو يطير الى أعلاج الروم ينازلهم بنفسه ، وقد ضاق ذرعاً بما يسمع ، ونفد صبره حيال غلوّ نوران في امتداح العباس . وبات لا يرقب سوى موعد القتال . فأعلنت المليحة ، المحتالة ، بمكر دفاق ، تزجي بـه المعتصم الى حتفه : نادِهم فيجيبوا ، وهم رهاف الآذان !

فانفجر بصيحة اهتز لها الايوان : والله ، لاندفعن اليهم بنفسي ، فأمزقهم بأظفاري وأنيابي ، كي تطربي أيتها الصلبة كالنازلة ، الرهيبة كالقضاء . أمن صخر أنت ، ام من لحم ودم ؟

فاجابت لا ترهب سخطه : أنا من وفاء !

فجنح الى ايذائها ، وقد باعدت في اثارة نقمته ، وفي الاعتداد بنفسها . الا أنه كظم فورته ، وقال : رفقاً بأرواح من يهيمون بك ، يا نوران . والله ، لن تكلفيني ما يرجع وثبة وضمة . ولكني أتقي فيك الله ، بينا لا تتقين ربك في العاني ، الولهان !

وربع باريكته . وغارت هامتـه بين يديه وهو يتوجع . فدنت منه نوران تخفف عنه . وألقت رأسها الى رأسه ، وليس لها أن تغلو في إقلاق روحه . وأحسّ بأنفاسها تلهب خده ، وبجسدها النديّ ، الفوّاح الشذا ، يلتصق به ، فيبعث فيه الدفء ، ويؤجج الشوق . وتراءى له أنه سعيد بقربها ، وأنه سيكون وافر الهناء ، وقد تزوجها . فتناسى أشجانه . ومال

على هذه الدمية ، المستكملة المفاتن ، يطوّقها ، ويقبلها . فلم تبخل عليه بشفتيها . والاسترضاء يفرض البذل . فان هي سعت لحمله على منيته ، فعليها ان تسلك الى أمنيتها الطرق الآمنة ، المعبّدة . لا الخطرة ، الوعرة. ليظل أمير المؤمنين واثقاً بها . فلا ينفر عنها ، ويفجعها بما تسعى للظفر به من فتيق المنى

وللمرة الاولى يقبلها المعتصم بالله . فأسكرته القبلة المخمورة ، وصاح : والله ، ليس للهائم بك إلا ان يجري في أثر مرضاتك ، حتى وانت تدفعينه الى الهلكة . سأقاتل لاجلك الروم ، بل سأقاتل ، كرمى مقلتيك، الكون على مداه !

فقالت بصوتها الخفيّ ، الممعن في استدراج سامعيها اليها ، وقد تبطّن المخمل : ولكني لا أبتغي سوى تقريب الأجل ، يا أمير المؤمنين . فلا خلاص من الحائل، بسوى إهلاكه في الوغى. وليس لي أن أرقب، طويلاً، موعد الانسلاخ من الزريّ. أما الروم،فلا يخيل اليك أنهم يملكون رجاحة القوى، إذا ما انقضضت عليهم بنفسك. فما ان يبصروك حتى ينخذلوا، وقد عرفوك في لؤلؤة ، وطرسوس ، صاعقة ماحقة . فامش اليهم ، ودوّخهم، وانصب للعبّاس ، ابن أخيك، كميناً يرمّده. ولنستسلم الى هوانا ، والحب منتهى اللذات . وليس لمن تخرّ الدول، على عتوّها ، صاغرة بين يديه ، أن يخشى هزيل العود ، الوهنان !

فأبان وهو المنتشي بالخمرة الصافية : إبشري بالمتعة ، يا نوران !

فهتفت بلجاجة : ولكن متى ، متى يا أمير المؤمنين ؟

وهو هو السؤال المحرج يتكرر ، ثم يتكرر . قال أبو اسحق وقد نهد

الى النجاة من الالحاح : عندما يروقك ، يا ابنة عجيف ، أن أدرج في دروب الروم ، سأشمّر لها لا أنكص ، ولا أتداعى !

فتذكرت ريحانة ابنة عمه ، وقالت : كنت أريد ان تنطلق اليهم على الفور . ولكن صبراً . فلا بأس أن ترقب الأوازف ، ولست أراها بعيدة الاجل !

وأيقنت بقرب الساعة . وستتطاير وشيكاً شظايا القذيفة . فإن ريحانة لعلى أهبة . وجنحت الى براح الايوان ، وقد أعلنت : أصبحت من رأيك في ضرورة التأني. فالروم لا تسكت لهم نأمة، وستبصرهم في الموعد الحثيث يتصدّون لنا . واذا رجوتُ السرعة ، فما أبتغيتها لسوى الاقبال فوراً على نهل البهجة . فدتك نفسي من سيد مشمخرّ العزة ، مكين الالفة !

فتلجلج في الكشف عن منازعه . واكتفى بالقول البليغ ، الجامع على اقتضابه وعيّه : آه ، يا نوران !

وتأوه المعتصم بالله . قالت ابنة عُجَيْف تسوق اليه النفاق طفاحاً : لست وحدك بمن يتعذب، وفي كبدي ، من سعير الشوق، ما يحرق مني كل جارحة . ولكنها الاقدار ، وستزحزح عنا كابوسها . فما هو ، إلا القليل ، حتى نذوق الشهد خالصاً من اللذعة !

فغمغم : نعيمي في عنقك ، يا ريحانة نفسي !

فأعلنت تتباهى بصفاء دخلتها : ما وقعتَ على سوى نقي الولاء ، يا أمير المؤمنين !

واستأذنت في الانصراف ، وهي تخاف ان يدري العباس بجلوسها على خلوة ، الى المعتصم بالله ، فيرتاب بها . فقال أبو اسحق : ما اشتهي الا

ان تقيمي بجانبي على المدى، يا كاسفة القمر!

فأوضحت ببسمة مغناج : وهو ما تطمع فيه نفسي ، يا أمير المؤمنين ، على ان تأزف السانحة!

وابتعدت ، وعينا المعتصم في أثرها . وغابت عنه، فاستمتع بطيبها المنشور في الايوان ، بل المالىء القصر ، كأن العطر بعض أنفاسها . فيرفرف حيث يخفق جناحاها ، ويبقى بعد احتجابها . وما زال أبو إسحق يترنح بطعم شفتيها، وقد نعم بتقبيلها . فأية غادة فريدة ، هي نوران بنت عجيف ، وكأن العالم بأسره في كفة ، وهي وحدها في كفة ، وإنها للراجحة

وأزمع المصاولة . لا عليه أن يضيف ركاماً آخر الى مشارف المجد . وسيغتال العباس في الواقعة . فإن لم يوفق رجاله للتقويض فسيتولى بنفسه مهمة الحذف . ولن يصعب عليه، في زحمة النصال ، ووفرة الأسنة، أن يسدد الى كبد ابن أخيه سهماً قاتلاً. حان لهذه الشائبة ، في صفحة الرفاه ، أن تمحى خطوطها

وشعر بأنه في سعة من حبور وما زالت القبلة المقطوفة ، من مبسم نوران ، تسيل على جراحه بلسماً شافياً . فلا حرقة بعد اليوم ، ولا خيبة ، وقد أمست إبنة عجيف لقمة سهلة . ألا كم بذل من عناء في ترطيب شفتيه بنداوة ثغرها، وما يبرح بحاجة الى الكدح. ولكن نوران أضحت مأمونة الجنى ، والقبلة طريق سديد الى المرأة . فمن تعرض خدها فلن تضنّ بقدها

وجهل أبو إسحق طوية نوران ، وما لمس فيها غير الملاطفة . فان ذاك المحيا الفاتن ، لم يكشف عن البواطن ، وقد أجاد التمويه . فما كانت القبلة الممنوحة ، غير ستار صفيق ، لاخفاء النية . هي بادرة تضليل ، لا دليل

مودة . وضحكت نوران ملياً ، في مجلسها ، وهي تقص ّعلى مسمع العباس ، وعجيف أبيها ، والأفشين ، ما كان منها في أبي إسحق . قالت : سقته الى العطب . سيشن ّ الحرب على الروم ، لدن تذرّ الخلسة . ويخوض بنفسه الميدان ، فنجتثّ جذعه . تخلوا عنه في احتدام المعمعة ، وأبيحوه لأعدائنا ، حتى اذا ما قنصوه ، تحفزتم للغارة الفاتكة !

فاستوضح الأفشين : وهل عالنك بأنه سيندفع بنفسه الى اللهيب ، يا نوران ؟

– بنفسه ، يا أبا الحسن . وأطنبتُ في امتداح جرأته ، وصولته . فشاقه أن يكون فارس النزال . دعوه يقتحم الصفوف ، على عنجهيته ، وليكن زاداً لحراب الروم . فلن ننجو منه ، بسوى التخلي عنه !

فقال العباس : إذن ، حان موعد سعي ريحانة !

فأعلنت نوران : وستسعى . ريحانة لا تنقلب على عهدها . فما بايعت عليه ، ستنجزه . وعليّ ضمان صدقها في النصرة . فما تزال تلتفت الى أمسها ، نائحة على ما صارت اليه من كسرة . فالمعتصم ما ظاهر أباها ، على جفاف العيش ، بما تقدر كرامة ابن المهدي ، ومكانة أمير من أمراء المؤمنين !

فأذاع الأفشين القول المطمئن : ثقوا بابنة ابرهيم ، وما عرفتها مائعة ماكرة . لندفعها الى التخوم ، وعليّ دركها !

قالت نوران : غداً ستسلك طريقها إلى زبطرة ، ولن يطول بها الحين لتهزّ بصيحتها مسامعنا . فالأوان بات قريب السطوع ، ايها الاعزاء !

فأعلن أبو الحسن : اتفقي وإياها على ما يعود اليه الرأي النصوح ، يا نوران ، ونحن بانتظار الصرخة المؤذنة في القضاء على الطغاة . ما أبتغي إلا أن أبصر ،

بعيني ، الحق يستوي ، والأغرار ينخذلون!

وما اكتفى خيذر بن كاوس بطاغية غرّ واحد ، بل أجمل . غير أن سامعيه ما ارتابوا بنيته. وابتعد وقد واطأ على النجدة . فالمعتصم سيتوارى. ومثله العباس . وليس للوجهين أن يبقيا في القمة ، وغروبهما بات لزاماً . وأوفدت نوران ، الى ريحانة ، من يستقدمها . وهفت اليها تعانقها مديداً ، وهي تبدو ازاءها، وتقول بمتسع الجذل : وقع في الفخ المنصوب، يا أخيّة. فما فتئت أزيّن له الانقضاض على الروم، حتى وافق على البغية . وجهل أني أسوقه الى حينه . فهل لك في ان تشخصي ، الى زبطرة ، وتحكمي نسج الأحبولة ؟ ... هتفة واحدة ، تطلقينها ، تهوي به في لجة العدم !

فابتسمت ريحانة ، وقالت : وهل كنت غير تلك المطواع، يا نوران؟... لنذيقنّه الموت الأحمر ، وقد غالى في المطمع . ليس للدولة العباسية أن تصاب بغلاظة جاهل ، سخيف الرأي . أنا البوق المؤذن في الغائلة!

فاستطلعت ابنة عجيف موعد النزوح الى زبطرة . فقالت ريحانة : في مساء غد . فاركب اليها الهودج تصحبني ثلّة من الجواري، وننزل بضيافة أختي . ولن أحدث صواحبي بما أعتزم ، بل أسعى له بالاتكال على همتي . ولن نخيب، باذن الله !

– أتقتحمين وحدك على الروم ابوابهم ؟

فأبانت ابنة ابرهيم : لا ندحة لي عن أمة ترافقني، دون ان تلمّ بما وطنت عليه النفس . والا كانت العثرة مشؤومة !

وضحكتا معاً ضحكة عالية .فقالت نوران: أجمعنا على مسيرك الى الروم. وعليك باطلاق الصرخة ، سواء نالوك بساءة أو عفوا عنك . فالمنشود أن

يقع، في مسمع المعتصم، ان هاشمية لقيت من البغي ما حفزها الى الاستظهار بأمير المؤمنين. وسيهفو الى الاغاثة، ما دمت بقربه أنشط به اليها. وفي اندلاع صيحتك اندلاع روحه، وأنتِ بوفاء!

فنفرت بها الى الركون الحصافتها. وقعت على من لا تطيش لها رمية. بوسع نوران، منذ الساعة، ان تبكي ابا إسحق، اذا ما راقها ان تسكب عليه دمعة. قالت ريحانة: وهل لي أن امدّ في اجله، ولست اجد في وكره غير انتفاخ، وصلف؟... إني لاربأ بمسند الخلافة أن يتوسده جلف، مغرور!

وجلست الى مائدة نوران تتعشى. وبسطت إبنة عجيف يد الكرم الفضفاض. ودعت بالراقصات، والمنشدات. فهي في وداع صديقة ذات نبل وحفاظ. وما تمالكت نوران أن رقصت. فارتجّ النهدان المتبران، وتمايلت القامة اللدنة، الزاخرة بالانسجام. فالحسن النضيد يميس، وينتزع من الصدر هتفات الاكبار

وفي الليل، الليل الوسنان، المضمّخ بالطيب، وقد فاح فيه عبير البساتين المثقلة بازهارها، أطبق فمٌ رخص فماً رخصاً. وهمست الشفاه، في الآذان، بكلمات الدعاء بالنجح. ابنة عجيف تودع ابنة ابرهيم. وغارت ريحانة في حلولك الظلمة، وقد وطنت الهمة على الارتحال عن سرّ من رأى، ووجهها زبطرة، لطرح المعتصم في اشداق الاعلاج

إن اباها ليرقب اعتلاء السدة، وقد ذاق حلاوة الامامة. ومن استنشق فوح الطيب، فلن يصبر على نتن الحرمان. وفي عرف ريحانة، أن العباس والمعتصم سيصطدمان، فتجرفهما المنيــة، ولا يبقى للامر سوى ابرهيم بن المهدي، أبيها. وهي ترى ابرهيم درة العقد، وفارس الميدان

٦

لم تخفت دمدمات الروم، على التخوم العليا ، من الدولة العربية . فان هؤلاء النائين ، على رغمهم ، عن القدس ودمشق ، ما برحوا في لهبة الحنين الى استعادة ما انتثر من حبات العقد . بيد أن العرب ما لانوا لهم ، بل هزموهم في كل غارة . وأقصوهم مراراً الى ضفاف البوسفور ، يلوذون بها من الغضبة المضرية،الحمراء.وما عزّت على القاهرين الشوس غير القسطنطينية. وقد كبوا في وثبات ثلاث عليها . وارتدّوا عنها بلا جداء

وأحس الروم بالنصلة العربية تسقط في آكبادهم ، فتمزقها نثاراً ، وما يئسوا . فالملك التليد هاجهم الى لملمة أطرافه بكل فدية . وأنى لهم أن يطمئنوا الى قيام دولة منيعة ، بجانبهم ، وكانوا بالأمس سادة المشرق على متنائي جوانبه ، ورحـــابه ، لهم الحول والطول ، وما ترتفع هامة في البوادي ، إلا وقد أباحوا لها الظهور والاستعلاء ؟

وهالهم ما تسمو اليه الدولة العربية من شأو ، وما تكتنز به من عزة. وهم كلما ناوأوها لوت فيهم الطماح . وما تناسوا كيف نشأت ، وكيف نمت . كانت خيالاً ، في مجاهـل الصحراء ، تكاد تضيع رسومه ، فزهت ، وأزهرت ، وباتت طوداً سيّاراً ، يجرف في طريقـه كل مناعة، ويهدم كل ركن . ورهبوا مضاءها ، وقـد استفحل أمرها ، فسعوا لنتف ريشها ، وقصّ جناحيها . فصعب عليهم المراد ، وما كانوا لينالوا منها مـــا يعدو القلامة . على حين تقوّض فيهم كل صلابة ، وتنزل بهم كل خسران

غير أن ما نـدبوا له أنفسهم من سعي ، ما استرخوا فيه ، مع تمادي

الحبة . فما ان تسنح النهزة ، حتى يقبلوا عليهـا مستدرّين ضرعها . فلا تجود عليهم بما يروي الهَبوف ، والعرب لا تكلّ لهم جارحة . وطمعوا في المعتصم، كما طمعوا من قبلـه في أبيه الرشيد ، وأخيـه المأمون ، فأزمعوا المناكرة . ولا سيما بعد ذلك التطاحن الماصر ، في جبـال البذّ ، وقهر الخرّمي . فما خرج أبو إسحق من معركة الظفر سمين الذرع ، وقـد هدّ حيله بابك ، قبل أن يسقط بين يديه ، مكسور الهمة ، مسحوق الخطر

وأطلقوا جيوشهم الى الحدود تتحفز للوثبة . حانت زحزحة العرب عن مكامن استقرّوا بها برهافة الأسنة . وتصدّوا ، في ضواحي زبطرة ، للرعاة يسلبونهم قطعانهم ، بغية إضرام النار.فقابلتهم الطلائع العربية بالضيم نفسه، وقد أغارت على الرعاة الروم ، السارحين بمواشيهم على التخوم، تنزع منهم سوائمهم ، وتشبعهم ضرباً.فزمجرت قوات الروم زمجرة الضواري،وخرقت الحمى العربي ، فارتفعت صيحات النقمـة في صدور العرب : يا للأجلاف الأنكاد !

واندفعوا الى مكافحة الويل ، شيباً وشباناً ، نساءً ورجالاً . وبدت في النظيرة فتاة على نبل في الخطوة ، وعـلى ثواء في القسامة ، صائحة بمن وراءها : عليهم ، يا أمة الله !

وجاشت فيها الغضبة . وودت لو تذلّ جميع هاتيك النواصي. وتحدت جحافل الروم تمتهن فيهم الكرامة: يا للسفلة، أتفاجئوننا وليس في الحصون حامية ، ولا في المدينة جيش؟... ولكننا سنكفي البسيطة شركم . فان في صدورنا ، من العزمات ، ما تخلو منه ضلوعكم النخرة !

وهتفت بمن معها : أوضحوا لهؤلاء الأدعياء أي فئة من الانكاس هم .

أرواحنا فدى أبي اسحق !

ولم تكن هذه الغضبى، الطالعة على الروم في ندوة الناقمين من الاخلاط، سوى ريحانة بنت ابرهيم بن المهدي . بلغت زبطرة تنبري للروم تحريضاً لهم على أبي اسحق . فاذا القوم بغنى عمن يستدرجهم الى المطاولة ، وما زالوا يحرجون العرب في الدعة والطمأنينة . فنفرت اليهم ، في موكبها الخانق ، تزيد في ضرم الحفائظ المشبوبة

وأبصرها الروم في جماعتها ، فحمدوا الله على فائزة انقدت في حينها . ووثبوا على النساء يسبونهن . وعلى الشيخان والغلمان يأسرونهم ، وهم يدمدمون عليهم بقبيح الألفاظ . ووافت ريحانة قائداً ، من قادة الروم ، فحبا اليها يقبض على معصمها ، هاتفاً بفيّاح الجذل : ولكني ما اشتهيت غير هذا الحسن أملأ به نفسي . تعالي اليّ . انك لفي روعة مخصاب !

فأجفلت منه ريحانة، والذعر يجتاح جوانحها. فطفر في أثرها . وأوشك ان يقبض عليها . فزعقت تستنجد : وامعتصماه !

وعلت ، في رفاقها الاسرى ، صرخات التظلم والاستغاثة. ورددوا من بعدها زعقتها : وامعتصماه !

وركن بعضهم الى الفرار يذيعون في اخوانهم ، في زبطرة ، ما كابدوا من علاظة الروم ، وما نال ريحانة من ضيم . فاحتشد العرب في صفوف متراصّة ، زحفت الى نصرة المغلوبين على امرهم . ولكن الروم ، وقد انتظموا في كتائب موّارة ، تعدو مئة الف مقاتل ، اقتحموا المدينة واحتلوها ، يمعنون فيها نهباً وتقتيلاً

وطار حمام الزاجل الى سرّ من رأى ، ينعى الى المعتصم المضيمة :

« احتل الروم مدينة زبطرة، وشنعوا فيها . النجدة !... نكاد نفنى!» .

وما لبث الرسل أن بدوا في فناء أبي اسحق ، يلهثون ويستحثون على الاستنقاذ : طغى علينا الأعلاج ، يا أمير المؤمنين، واحتلوا دورنا ، وسبوا نساءنا ، وأزهقوا أرواحنا . فالغوث ، الغوث !

فوجم أبو اسحق . ولم يكن يرتجي اندلاع الشرارة ، وما يزال ، بعد جامح فتكاته ، ركيك الضلع . فاذا ما وعد نوران باقتحام دروب الروم، فما انفك يحاذر العجلة . لا عليه إذا تريث ، حتى تندمل الجراح . والتفت الى من حوله ، يسأل النصح . أين ذوو المشورة ؟... وأفاض أحد اولئك الرسل بالقول اللاطم ،وقد أذاع : وفي من سبوا من نسائنا ، يا أمير المؤمنين، ريحانة ابنة عمك ابرهيم . أغار عليها احد العلوج الاشراس. فافلتت منه . فطاردها . فاستعانت بك صارخة : « وامعتصماه ! » !

فهتف المعتصم ولم يتمالك : لبيكِ ، لبيكِ !

فالحمية الصادقة لا ترتضي النوم على الهضيمة ، حتى في خور العزمة . ونفض منه كل تردد . وصاح : أين قادتي ؟... أين اهل الرأي من رجالي ؟

وأطلق من يدعو اليه محمد بن عبد الملك الزيات ، وزيره ، واحمد بن أبي دواد ، قاضي قضاته ، والأفشين ، قائد جيوشه ، وابرهيم بن المهدي ، عمه ، والعباس ، ابن أخيه ، وعجيف بن عنبسة ، واشناس ، وإيتاخ ، وبغا ، ونوران . فلا محيد عن نوران في الموقف الفصل . وخطب في هذا الحفل الاريب وهو يتقلى على سعير . فنبر ، وقد وقفت به حدته عن السيطرة على أعصابه : لست أعالنكم بالنبإ العجيب ، وأنا أنشر عليكم ما قذفنا به الروم من نفاثاتهم الوبيئة. فانتهكوا حرمتنا بالانقضاض على تخومنا،

وتقويض ديارنا . وغزوا زبطرة ، وبطشوا برجالها ، وسبوا نساءها . وممن سبوهن ريحانة ابنة عمي . كريمتك يا ابرهيم . ولقد استصرختني ، وعليّ الاجابة . أترونني خرجت عن حلمي ، وانا ألبيها ؟

وجالت عيناه فيهم جميعاً ، لتستقرا على وزيره ، فقاضي قضاته ، فقائد جيوشه . فقال محمد بن عبد الملك الزيات : صائب الرأي رأيك ، يا امير المؤمنين . من غمز بك ، فابطش به !

وقال أحمد بن ابي دواد، ذو البيان الوقور ، والفكر النضيج : أضحى السكوت عبثاً ، ايها المعتصم بالله . فمن لم يذد عن حوضه تهدّم !

وأبدى الأفشين ، وما طمع في سوى هذه المناوأة ، لاعتلاء السنام : كلنا يجبو في مشيئة أمير المؤمنين . فالجيش لا تنبو له عزيمة في إطاحة الادنياء . لتكن ضربة حاسمة ، يا أبا اسحق ، ولنحصد الأعناق . قاعدتنا القسطنطينية ، لا سرّ من رأى !

وخضع المنطق للحماسة ، يزري باللب الحصيف . وصاح كل من في المجلس يؤيد الأفشين : ما أفضيت بسوى الغوالي ، يا أبا الحسن !

وقال العباس بن المأمون ، وعجيف بن عنبسة ، ونوران : ليس في التأني حكمة ، يا أمير المؤمنين . اذا أبحنا لهم زبطرة ، فسوف نبيح لهم الدولة ، على متسع أمصارها !

فزعق : لهم الويل . اني لراكب اليهم ، بنفسي ، متن الهول الصادع . عمي ، إضرم الغلّ في النفوس !

فوقف ابرهيم بن المهدي ، وهو يتأجج نقمة ، وإبنته ريحانة باتت من السبايا ، وأنشد، وكل ما فيه على وعيد :

يا غارة الله ، قد عاينتِ فانتهكي   هتك النساء ، وما منهن يرتكبُ
هبَ الرجال، على أجرامها، قُتلت   ما بال اطفالها بالذبح تنتهب ؟

فما كان من المعتصم، وقد هاجت فيه عنجهيته، إلا أن خرج على الفور من قصره نافراً، وعليه درّاعة من الصوف، وعلى رأسه عمامة الغزاة، صارخاً برجاله : ألا هبّوا !

وعسكر غربي دجلة. ونُصبت الاعلام على الجسر. ونودي في الامصار بالنفير . فاندفعت الجنود والمطوّعة ، في جيش لجّ ، اقتسمه المعتصم بينه وبين الأفشين . فتسلم قيادة شطر منه ، وتولى أبو الحسن الشطر الآخر . وزخرت هذه القوات الجرّارة، وما كانت تقلّ عن مئتي الف، بخيار القادة. فضمت أشناس ، وبغا ، وعجيفاً ، وابن دينار ، ومحمد بن ابرهيم نفسه ، والعباس بن المأمون

ولا معدل لنوران عن وداع أمير المؤمنين، في طفرته الى مقاتلة الروم، بل في حبوه الى حتفه . وهو ما تتوق اليه نفس ابنة عجيف . ولن يسلم، في ظنها ، المعتصم في هذه الغارة الشاقة ، الناسفة ، وقد وهنت أعصابه في مجاهدة بابك الخرّمي. فزحفت الى دجلة، في موكب من الحسان يتوهج بشراً، ويوحي مرآه باليمن . وطرب المعتصم وهو يعرض هذا الفوج من الملاح ، المتدفقات نضارة، الباسمات عن فتنة، المائسات عن دلال. وهتف بنوران، وقد درجت اليه بفيض نداوتها : أنتِ واسطة عقدهن ، يا زينة محافل الوسامة . فما يموج في عيني البهاء ، إلا وانت إنسانه . مرحى ، مرحى . لاجلكِ سأخوض هذه الغمرة ، وأغنم فيها الصبوة . والله ، لأحملن اليك نواصي الانذال في أكياس لا يحصى لها عديد . فما اكتفى اللئام بالهجوم

على ديارنا ، بل اعتدوا على نسائنا وسبوهن. وفي الرعيل الاول ريحانة، إبنة عمي . وإني للوغد في سكوتي عنهم ، وقـد أوغلوا في امتهاننا . سأنازلهم، ولن أعود إلا وقـد دوّختهم ، وجعلتُ من رقابهم عتبات الى سؤددي . وريحانـة استظهرت بي ، يا نوران . ولست المعتصم إن لم أظاهرها عـلى العلوج الطغام . أما أنت ، فلا تزايلك الطمأنينة . سأبريه بري الشفرة للقلم. أعددت له ، في أرض الروم ، مرقده الأخير !

فقالت بهمس : حبذا التنكيل بـه ، يا أمير المؤمنين ، وقد فجعنـا بالمواتع . أيظل للباغي في دولتك أثر ؟. . . بـدأت أشعر بظلمه الكريه . كلما قلت : « حان موعدنا ! » ، لقيتُ الغليظ سداً في الطريق !

فأبهجته قولتها . ورنا اليها بنظرة يحتبكها الوله المكين. وابدى بصوت أنوس ، وئيد : سنقيكِ مرآه ، ولم يبقَ له في الشوط متسع . ما إن تدلهمّ، حتى تحمل اليك المطوّقات نعيه . فما أضرمتها ، إلا لأحرقـه بضرمها . إني لأتلهف ، مثلك ، على الزمن الدفين !

وأبقى يدها في يده . وامتدت نواظرهما الى الغد الطالع ، إلى مـــا سيرقبهما بعد منازلة الروم . وكم اختلفت النظرات ، وتباعدت الاهداف. فلو استعار أبو إسحق ، عين نوران ، لجنّ . فما يتبين فيهـا من مكر ، وحقد ، وحسد ، يذهب بثقته بالاخلاص ، وبإيمانه بالصدق . فليست نوران غير عقرب لاسبة ، تميت . ولقد فسح لها إلى ما بين جنبيه ، وما درى أنها تجازف به . فتعتصر لبه ، وتهتصر عوده ، لتزجيه أكلةً سهلـة إلى طواحن مناوئيه .

ولكن المعتصم ما فتىء ينظر، إلى ذات الطرف الأدعج، بعينه العمشاء،

وما أوتي القدرة على شقّ مطاوي القلوب . وبدت له نوران على وفر من فنون ، وعلى جمام من وفاء . فهي لا تخادعه ، في معتقده ، في دعوتها إياه الى الخلاص من العباس بن المأمون ، وبموته يلتئم الشمل ، ويطيب الهيام. ولا تضحي به في حنّه على مناجزة الخرّمي ، والعلويين ، والزطّ ، والروم، بل تروم علاءه ، والقضاء على منافسه فيها . وليس لمن تلتهب بهذا الولاء، أن تتهم بالقلى والنفاق .

وصانها أبو إسحق من كل ظنة . بل لم تتطرق ، إلى نفسه ، خلجة من ريبة تنزع من نوران إعجابه بسلامة طويتها ، ونبل حفاظها . فهي له على متفاقم الحنين . وما يمسك بها عنه غير الانكد ، وقد رماهما معاً بالضرّاء، حاجباً عنهما طيب الهناءة . بيد أن المعتصم بالله سيحذف ، في هذه الجولة ، الخيال الهزيل ، والموجع على هزاله . ويعدّ له ، ولنوران ، الى غد سنيّ ، رضيّ ، تجري فيه الأشواق على استفاضة ، وسيصفو أفقه ، لا تعكره أنفاس سمج ، زريّ . قال ، وهو يحس بزكيّ المتعة ويده تضغط يد نوران : حسبه أويقات خواطف يعيش فيها ، وبعد ذاك العفاء . فالحفرة ترقبه ليثوي بها حتى أبد الأبيد !

وقهقه ضاحكاً . فليس يبتغي ، من مناهضة الروم ، إلا التسهيل لنفسه إلى نوران . قالت ابنة عجيف تهيب به الى الحذر ، كأنها تخشى عليه من الدواهي : إشفق على روحك من غائلة المخاطرة ، يا أمير المؤمنين ، ولا تعرّض صدرك لطعنات الحراب . إن لك من صلابة ألواحك ، ومن إقدامك ، ما تدرأ به عنك الشدة . ولكن للمباغتات حساباً ؛ وليس من يدري من اي ناحية تنقضّ النصلة الفارية . فالاعداء على يقظة ، مثلنا ،

فتجنّب الافراط في المغامرة !

فازدرى المحاذير . ليس لمثله أن يرهب المنايا . قال : إن لم أحطم بيدي زهو هؤلاء المتشامخين أبداً علينا ، كأننا دونهم في الطينة ، فمن لها ؟...لا يكسر عظم التياهين غير المعتصم بالله . سوف تبصرينني في أشداق اللهيب، تحت وابل الحمم ، ثبت الجنان ، كأني في سريري . فالموت يخشى كل عابث به ، ويستطيل على متقيه !

وأبدى لها من الاعتزاز ما طربت له في صميمها ، وإن تكن أظهرت اللهفة وهي تأذن به ، خوفاً على المعتصم بالله . قال أبو إسحق : إنتظريني . سأرجع اليك وفي يميني النصر ، وفي يساري النضار . وسأزجي اليك ملك الروم وقادته، من نواصيهم، كذوات الارسان. فلا يستطيرنّ بهجة ذلك الرابع بعرش عمورية ، وسأدحرج به سدته . فهو وبطارقته ضيوفٌ على سرادينا !

فهتفت ، وفي زاوية عينها ، تترقرق دمعة شبه أسيانة : نصرك الله ، وأعادك الينا على نجح مسعى ، يا أمير المؤمنين !

فقالَ وكل ما فيه ، وما حوله، يحدوه على الايمان بالغلبة ، وعلى اليقين بدره الهلكة : حسبي أن أنتصر ، وأن أسلم ، لارتدّ اليك مرصع الجبين باكاليل الغار . فأزين بها مفرقك ، ونعيش سعيدين بهنيء مودتنا . ساقاتل كي امسي جديراً بقلبك ، يا نوران !

فخرّت ساجدة بين يديه ، وشفتاها تختلجان بقولتها : عفو أمير المؤمنين عن عبدته . فمن تكون نوران ، كي يخاطبها سيد البدو والحضر ، من لا تغيب الشمس عن بسطة ملكه، بهذا القول الجليل، الخليق ببنات الاقيال؟... لست غير أمة حقيرة ، في طاعة مولاي العظيم !

فرفعها اليه . وما استطاع إلا أن يقبلها ، وهي الرائعة في أوفى صباحة . فألقى رأسها إلى صدره ، واقتطف من شفتيها قبلة ندّية ، أطيب من تفاح لبنان ، وأشهى من كوثر الجنة . فأنّت نوران . وفي الأشواق زفرات تنهد الى الاشتفاء . على أن ابنة عجيف ، كانت تمثل دوراً ، لم تعطل فيه من سعة الحيلة . وصاحت برفيقاتها ، تبتغي النجاة من الموقف الحائر ، لئلا تفتضح فيه مصانعتها : إقبلن إلى وداع أمير المؤمنين ، ايتها اللدات المباركات !

فهفون الى خيمة المعتصم ، يقبلن الارض بين يديه ، وقد فاح الطيب من أجسادهن ، وأشرق الحسن في معارفهن الفواتن . وكادت الطنفسة المنشورة في كبد الخيمة ، وقد انحنين عليها ، تمسي بساط الريح ، لفرط ما خلعن عليها من رشاقة ، وملاحة ، وعبير . وأوشك أبو إسحق أن يضيع عن نفسه ، حيال هذه الفرائد الماثلة خيمته حتى ليتراكم الدرّ على الدرّ . فاذاع فيهن ، وهو يتعتع في القولة : والله ، إنكن لبشير سعد . أصبحت لا أخاف الروم ، وأنتن تحملن اليّ طالع الخير !

وصاح بوزيره محمد بن عبد الملك الزيات : لكل واحدة منهن ملء راحتيها دنانير !

فعاد الموكب على تسابيح . وظل المعتصم يرهف أذنيه للأناشيد المؤنسة ، المسكرة ، حتى ضاعت عنه رناتها في مطاوي النهر العريض . والتمس الرسوخ في عزلته ، ليستعيد بصفاء ذهن ، ما حسب فيه نفسه في حلم . ماذا لاح له الساعة من بدائع ؟ ... هل هبطت اليه السماء بمباهجها ؟ ... وما انفك اللحن يتردد في أذنيه ، وقد استقر بسمعه كالقرط . وما وني

العطر منشوراً في الخيمة ، كأن اطياف الغيد لا تبرح تموج في الوكر الخطيّ

وشغله عنهن جميعاً طيف نوران . آه ، من مالكة سرّ الوهج ، والسيطرة. لقد سبت روحه، وما جادت بما يروي الظمأ. فصرف ابو اسحق باسنانه ، وجمجم بحنق : لن يطول قيام الحائل بيني وبينها . على رسلك ، يا عباس ، يا ابن اخي . فلست في دنياك من الخالدين !

وجسّ مقبض سيفه يبتغي الشدخ ، والحذف . ان امير المؤمنين لفي حنق ، وحقد ، وقد ضاقت به المسالك . بات لا يحفل بالروم بمقدار التفاته الى قلبه . فهو كفيء للاعلاج يستأصلهم ، وعاجز عن فتاة تشتهيها نفسه ، وتحجبها عنه قصبة مرضوضة ، ما كان في اجتثاثها من الموفقين

٧

سقطت الى المعتصم أنباء الروم زاخرة بالخزي ، طافحة بالشين . فاحتل الاعلاج زبطرة وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها ، وجدعوا الانوف ، وسملوا العيون ، وصلموا الآذان

وما اكتفوا بزبطرة فأغاروا منها على ملطية وتولوا مقاليدها . وما نجت من عبثهم بالكرامات وبالأرواح . فهم سيلٌ جامح ، وويل كاسح . وما كان من أبي إسحق ، وهذه الأنباء تقع في مسمعه ، الا أن التفت الى قادته مجلجلاً : يا لثارات العباسيين !

واقتحمت قواته الفلوات طافرة الى الروم تخذلهم ، وتردّهم على اعقابهم خاسرين . ففزعوا إلى أنقرة يلوذون بحصونها ، ويصدّون بها عنهم السخط المندلع الشرر . بيد أن المعتصم لم يبح لهم متسعاً للثواء بمعاقلها ، وقد ضيّق عليهم الخناق . فانكفأوا الى عمورية يثبتون فيها للغارة العباسية ، الجيّاشة عزم ، الحمراء اللهيب

وعسكرت كتائب أبي إسحق في أنقرة ، تتأهب للتدويخ الساحق . وحشد الخليفة حوله المنجّمين يسألهم عما يبطن الفلك الدوّار من القضاء المكتوب . فشخصوا بابصارهم الى الدراري ، واجمعوا على القول : لن تلين أبواب عمورية لأمير المؤمنين الا يوم ينضج العنب والتين !

فما شاقه الانتظار حتى الصيف ، وهو في بحبوحة الشتاء . وبدا فيه الغمّ . قال بنفرة : ويحكم ، هل لي أن أصبر حتى ذلك الحين ؟

وشمّر اليها يتحدى القدر . سيحتلها قبل الموعد ، على رغم الحظ الممعن في

التطويل . وطوّقها بجيوشه ، والزمهرير على طغيان . فالثلج كسا الطرق والاسوار ، وهزّ القوات العباسية في لبها، فضاقت الأيدي بالسيوف تنتضيها، وبالسهام تسدد نبالها الى الروم المعتصمين باوكارهم بامان

وأبصر أبو إسحق ، بعينيه الاثنتين ، رجاله يرتجفون تحت وطأة القرّ ، ولم يألفوا البرد القارس. فالثلج يكاد يكون مجهولا لديهم، وهم أبناء الأمصار الحارّة ، البعيدة عن الصقيع. ولجّ الخليفة في الخلاص من المحنة، لئلا يكبو جنده حيال صولة البرد المذلّ. فينتصر على العدو ، وينقهقر إزاء الشتاء

وجال في المضارب متنكراً ، يصغي الى ما تفيض به الالسن . فماذا يقول أتباعه ، وقد دهمتهم رزيئة الزمهرير ؟... وسمع التأفف . كلهم يشكو القرّ، ويبالغ في الاصطلاء . ومن لم يوفق للحطب والفحم، عمد الى اوتاد الخيام يضرم فيها النار . فشقّ الامر على ابي إسحق . انه إذن لمقهور . فما دام الجو يحالف الروم ، فلم يبق عن الرحيل غناء . فالغلبة للأعلاج بعد كل ما عانوا من شدة ، وقد انطووا على انفسهم مخذولين

ولكن المعتصم ابى ان يعود مكسور الذرع، طعين الكرامة . فسيكتب لنفسه إما الفوز ، وإما الموت. لتكن هذه الثلوج له كفناً، إن لم تكن بساط العز . واذا تراجع عنه جنوده ، فسيقتحم وحده حوض المنايا . وللمقادير ان ترى فيه رأيها ، ولن يتوانى عن ابتغاء المعالي ، راكباً اليها الوعر . وليس لمن يتشوّف الى المجد أن يبالي الكؤود

ومما أهاب به الى اللجاج، في المصادمة، ما طلع به عليه رواة الاخبار . فقد عالنوه أن ابنة عمه، ريحانة، أضحت في غياهب سجون عمورية، اسيرة مخضودة الانفة . وأنى يلتوي عنها وقد عاهدها على المظاهرة ، وجاهرها

بالقولة القاطعة : « لبيكِ ، لبيك ! »، وعليه انتشالها من وهدة الظلم ؟

وساءل نفسه عن حيلة يحيي بها، في نفوس رجاله، القدرة على جبه المتالف. وكل ما اهتدى اليه أن يكون لهم قدوة في المناجزة. فيسبقهم الى النزال، ويجّجل فيهم الوهن. ولكن من أي وجه يغير على أسوار عمورية العراض، العوالي ؟ ... أليس لها منفذ عائب ، ضعيف ؟

وتابع جولته في الخيام ، وهو يرتدي ثوب جندي من المغاربة . وأنى رسا مازح ، وأحيا المسرة . وتجاهل أمر هؤلاء الجالسين الى الشراب يناضلون به صبرات القرّ . فلا حرج عليهم في قهر القرقفة بالخمرة الحرام ، وما هم ببوادي العراق ، ومنبطح الحجاز ، يكتوون بجمراتهما

وتذكر في المأزق القانط نوران . ففي سبيلها يجاهـد الاعلاج ، لا في سبيل ابنة عمه . وما كان يعجز عن فدية يبذلها في انقاذ ريحانة، ويتحامى بها ضير حرب شرهة ، حاصدة، ليس من يدري على من سوف تدور. ولكن نوران أرادته على المناوأة، فانبرى لها . وإنه ليشعر بالهوان اذا رجع خائباً الى ابنة عجيف ، وعليه أن يفتك لاجلها بالروم، وبابن اخيه، ليدرك الغبطة على متناهي الامد

وتماوج في عروقه الجذل وهو ينظر الى الغد الطافح بالمباهج . كم سيقرّ عيناً بحبه الانوس ، وبمجده المنيف، وسيتملى بهجة القلب، وروعة الاحدوثة. ورسم في خاطره مكيدة القضاء على العباس ، فيما يقرّ خطة الانقضاض على عمورية . غير أنه اذا لمس التوفيق في استئصال العباس ، فما لاح له وفور اليسر في افتتاح المدينـة الحصينة ، وكيفما جاءها بدت له تتحرّز من انتهاك الحرمة

وفي المضارب من الصنّاع جمهرة استعان بهم الجيش على شؤونه. فمنهم الحدادون ، وبراة السهام ، والبياطرة . ومعظم هؤلاء من الروم ، وقد ساقهم الجند في غاراته ، يلتقطهم من كل ناحية ينزلها . ووقف المعتصم بباب خيمة حداد يضرب نعال الخيل. وبين يديه غلامٌ أقرع، قبيح الصورة، يساعده في الضرب. وكلما اهوى بالمطرقة على النعلة، هتف من كبد تنضح بالغلّ : في رأس المعتصم !

فتبرم به معلمه وصاح : ما لك وللمعتصم يا ابن الفاعلة ؟ ... دعنا منه وانصرف الى عملك. أتكون بمنزلته كي تستطيل عليه ؟...ما انت الا حثالة تأنف من وطئها نعله !

فاجاب لا يحفل بالشتيمة: ولكنهُ غبيّ . وما أندد به لسوى جهله . له في حصار عمورية ما يرجح الشهر، ولا ينفك يبحث عن منفذ يفاجئها منه ، وما يهتدي. ولو وكل اليّ الامر لكفيته مؤونة السعي . والله ، ليعتمدني ، وهو غداً فيها !

فتعجب المعتصم مما يأذن بـه . وتبين المكان وتوارى ، دون أن يظهر منه أنه سمع أو رأى . وقال في نفسه ، وهو يأوي الى خيمته : أيكون للزريّ ، من المعرفة بالخفايا ، ما يغيب عني ؟ ... لأقتلعن سره من بوانيه. أراني وقعت على الضالة ، اذا صدق المتباهي بعريض الدعوى !

وطرب . وتقلب على الاماني الرحاب. ستدين له عمورية ، ويقلقل دعائم الروم ، ويطير الى القسطنطينية ، فيرسخ في أريكتها سيداً مطلق الرأي ، سامق الشأو ، جسيم الخطر . فما هان فيـه معاوية ، وهشام ، والرشيد ، سوف يملك عنانه ، ويقوّض مناعته . وللتأريخ أن يكتب . وللمعتصم أن

يرفل في أبراد العز الجرّارة الاذيال

وما أصبح إلا وقد صاح بحاجبه : إلحق بي ، يا وصيف !

ووصيف غارق في اللبّاد ، ملتصق بالنار وما تفتأ أسنانه تصطك، وهو المقرور . واخفى رأسه في كوفيتـه . وتحامل على نفسه إجابة لنداء أمير المؤمنين . فمشى أمامه المعتصم حتى بلغا خيمـة ضارب النعال . وأشار أبو اسحق إلى خادم الحداد قائلاً : إقبض على هـذا الغلام ، وسرْ به الى مضربي !

فارتعد الخادم ، وهتف مسترحماً مرعوباً : ولكني بريء يا مولاي . والله ، ما كنت في المهنة غير المعتكف الامين !

فأعلن المعتصم بصوت اجشّ ، غليظ : سوف نرى مبلغ امانتـك ، والامتحان يرصدك . اننا لسائران بك الى امير المؤمنين !

فكاد يصعقه ما يسمع . وخيل اليه ان ثمة من وشى به ، وهو يذيع عند كل ضربة ينقضّ بها على النعال : « في رأس المعتصم ! » . واشتهى الموت، وقد أيقن أن السلامة نبت عنه . والتفت الى هذا الربعة ، البدين، المنشور اللحية ، وعرفه . فاشتد به الشحوب ، وتداعت فيه العزمة . فهو في حضرة امير المؤمنين . فسجد عـلى ركبتيه بين يدي أبي إسحق مستشفعاً لنفسه : عفو مولاي عني . ما كنت غير الحريص على رضى الخليفة الجليل !

فابتسم المعتصم ، وقال يلقي الطمأنينة في القلب المرتاع : لا عليك . لم نحملك الينا كي نقتصّ منك . بل كي نجزل لك العطاء اذا صدقتنا الخبر . فهل للصدق مرتع بين حوانيك ؟

فأبان ، وقد التمع في باصرتيه نزرٌ من رجاء : ولكني ما تعوّدت غير

الصدق ، يا مولاي العظيم !

فأبدى الخليفة الصلب الشكيمة ، المجدول العصب : وهو جلّ ما نطمع فيه منك . فانطق بالواقع الجليّ ، ولك منصب ورزق . فانت تعلم أننا لسنا بالاشخاء المقترّين . سمعتك أمس ، وانت تضرب النعال ، تقول كلما طرقت نعلة : « في رأس المعتصم ! » . فعاب عليك معلمك قحتك ، فقلت : « ولكنه يجهل مكمن الضعف في اسوار عمورية ، وإنه لغبيّ . فلو عهد إليّ في التدبير ، لكان غداً في معاقل اعدائه ! » . واني لاتسامح في ما نالني من هُجرك . فقلْ في المعتصم ما شئت ، على أن تجلو له سرك . فماذا تعرف من ألغاز الاسوار المضروبة على عمورية ؟ ... صارحني بالواقع ، ولك الجعالة والعفو !

فتعاظم في الغلام الهلع ، حيال ما بوغت فيه من لاسع ، شادخ . أمير المؤمنين سمعه يشتمه ويهينه . إذن دنا الموت الخطّاف ، ولم يبق في دفعه علالة من امل . واكفهر خادم الحداد ، كأن المنية حلّت به . فأي نار ستحرقه ، وقد سمعه الخليفة يقول ، كلما طرق النعلة : « ليتها نزلت برأس المعتصم ! » ؟ . . . وما اكتفى بالتنديد . فجمح به لسانه وقال في الخليفة العباسي إنه غبي . وهي مذمات دوامغ ، وقعت في مسمع أبي اسحق ، ولن يسكت عنها ، وليس لفتى حقير ، كالذرارة ، ان يتطاول على السيد الضخم

على أن الرهبة سكنت بعض السكون ، وقد خلع امير المؤمنين على الغلام الامان . فهو بنجوة من درك بذاءته . وتكلم مستنيماً الى وعد المعتصم بالصفح ، وبالرفع من شأنه ، فقال : أدام الله نصرة سيد العباد ، ما تجرأت على التنديد لسوى مفرط الولاء . فانا اليوم من رجال الخليفة . وحزّ في

اضلاعي، أن يقف المولى المعظم من أسوار عمورية وقفة الكليل، فتفوّهت بما تجيش به حرقتي ، وأنا أعلم أن في هذه الاسوار ثغرة ، يسهل منها على أمير المؤمنين النفاذ الى صدر المدينة المطوّقة . ولن أحرص على سري ، وليس ثمة من هو أحق بمعرفته من أبي اسحق !

فهتف الخليفة جذلان: ألا هات ما عندك، وخذ جائزتك حلالاً ، زلالاً!

فارتاح الى صفح السيد العباسي، ونشط في الاعلان قائلًا: أعزّ الله أمير المؤمنين، مولاي. تلك الثلمة تقوم في الناحية الشرقية من الأسوار. انهارت فما بناها الولاة، بل سدّوها بالخشب، وطلوها بلون الحجارة. فاذا ما أشعل فيها مولانا النار ، فسحتٌ له الى مقاتليه !

فصرخ أبو إسحق ، وهو يترجح على وارف الاستبشار : أتذيع حقاً ؟

– ما أذيع الا الصدق ، يا أمير المؤمنين . وإن أكن كاذباً ، فاضرب عنقي !

فزأر المعتصم : وهو ما سيقع اذا غرّرت بنا . إنك لرهينٌ بما نشرت!

وزعق يدعو رجاله الى الوثبة : هلموا . سيقودنا الغلام الى حيث ندرك الارب !

فهفا خادم الحداد الى الثغرة المحجوبة عن الابصار ، ودلّ عليها يفضح مصونها ، قائلًا : هذه هي . هنا الصدع في الاسوار !

فقال أبو اسحق ، وقد غمر مهجته المرح المستطير : ألا أين النار تضرمونها أيها الانجاد ؟ ... أحموا فيها نبالكم ، وأرشقوا بالنصال اللهاب هذا الخشب الخادع. فإذا احترق، فالحياة والنعمى لخادم الحداد، والنصر لنا !

واندلعت ألسنة النيران على رغم العواصف المتلاطمة، والثلوج المنهمرة.

وألقيت النبال في الشعلة الكاوية، فامست جمراً. فتناولها رجال المعتصم بالله، من عرب ، وفرس ، وأتراك ، وسددوها حمر الانياب الى سور الخشب . فغرزت فيه حتى كادت تغور . وانبعث منها دخان دلّ على صدق غلام الحداد ، مذيع السر . وتراكمت النصول على النصول ، فاتقد السور . وعلت صرخات الروم : خيانة ، خيانة !

لقد انكشفت العورة . ولم يكشف غير خبير سترها . لا ريب أن رومياً تكلم . وخرج الروم من قلاعهم يسدون بصدورهم الثغرة الفاضحة . فقذفوا بسهامهم العباسيين ، وعانوا هول النبال العباسية . فماجت ضواحي عمورية بمعركة صافرة ، حاقدة ، معولة ، اختلطت فيها صيحات النقمة بأنّات الاحتضار . وامتزج صليل السيوف بصهيل الجياد . واكتست الارض بالجثث . فما هي غير رؤوس تبدو ، ورؤوس تغيب ، وما كانت حفرة الابد لتغصّ بالمتدحرجين فيها

وزحفت الجيوش العباسية على هتاف المعتصم : توغلوا في السور . إدفعوا الاعداء الى كبد المدينة . لا تتأخروا مدى أنملة . هذا هو الموقف الحاسم . فاحذروا فيه الخذلان . اليوم يوم الغلبة . فاذكروا أنكم ترفعون على مناكبكم مجد أمة ، ومصير دولة . عارٌ على العباسيين أن يتجرعوا مرارة الانكسار !

فطغت جحافل العرب على السور ، تمشي على صدور القتلى والجرحى ، وتزلزل الارض بالروم. وجاهد الروم، في النضال عن السور المفلول، جهاد الميامين . بيد أنهم أحسوا بالهلكة تنشب فيهم أظفارها ، ولا تبقي في جوانحهم على روع . فما عرفوا وثبة هاصرة ، كوثبة هؤلاء العرب الباذلين

ارواحهم بسماح. وشاء الاعلاج الثبات في الطعان، غير ان الطفرة العباسية ما أباحت لهم الرسوخ في مطارحهم ، وقد زحزحتهم عنها بصلابة عنود . فالتووا كالسنديانة الشامخة وقد صاولت جذعها الفأس القاطعة

وتغلغل العباسيون في الثلمة بوجوه صال فيها العزم ، وبعروق جالت فيها الحمية ، وبأفواه صرخ فيها الايمان : الله أكبر ، الله أكبر !

واعتلى المعتصم السور يعرّض صدره لنبال الروم الحانقين ، ولاسنتهم الرهاف ، ولزوابع الثلج اللاطمة ، المنسابة الى العظام تقرضها بانياب فتاكة ، كأسنان المنشار . وتأججت النخوة في دم أبي اسحق الفائر ، مع كل ما ينتشر حوله من صقيع ، وصياح ، وموت . فما زال عن مكانه إلا وقد رمى الاعلاج باربعة آلاف نبلة . مع ان معظم الجنود خانهم الوسع في تذليل سهامهم لنقمتهم ، والبرد اجتثّ فيهم الهمة ، وقضى على أعصابهم بالشلل

وفزع الروم الى حصونهم يوطدون فيها أقدامهم . إلا ان الجيوش العباسية كانت قد جثمت بصدر عمورية ، تقبض على زمام المدينة ، وتلوي ناصيتها . واذا مضت الحصون في المغالبة ، فلن يجيز لها أبو اسحق الاستطالة في المناكرة ، وقد سدّ عليها السبل الى المؤونة والعتاد

وجيء بخادم الحداد ، فأنصفه الخليفة . وقد أجرى عليه سنيّ الرزق . وكتب له في سفر النعيم . فبات من ذوي السعد الرويّ ، ومن ارباب الطول والمنعة . وفحص أبو اسحق عن العباس إبن اخيه . هذا موعد الحذف . فأين يثوي ذلك المنافس في أغلى طلبتين، في الخلافة وفي نوران؟

ونادى المعتصم اليه حاجبه : إسرع ، يا وصيف !

فهتف الحاجب يعلن الطاعة النصوح : لبيك ، يا امير المؤمنين !

فابدى الخليفة ببيان عجلان : عليّ بثلاثة من خيرة رجالنا ، لا يرعون لسيد حرمة ، ولا يحرصون على دين !

وهؤلاء في الجيش على وفرة . فأعلن وصيف : سيكونون على الفور بين يدي أمير المؤمنين !

وهفا إلى الاشروسية ، وهم فئة من الجند شرسٌ ، شُكس ، أنكرت ربها ، وما التفتت إلى سوى ملذاتها ، تلتمسها في النهب والقتل . ولم تلتفّ على المعتصم إلا طامعة في ما وقف عليها من عطاء ، وفي ما أباح لها من غنيمة ، وكل ما تقع عليه أيديها في الغزو حلالٌ لها ، لا تلقى فيه معارضاً .

ووصيف لا يجهل هؤلاء التائهين عن خالقهم ، المنغمسين في شهواتهم ، الكافرين بالآخرة وبالثواب . فإنه ليصغي إلى تجديفهم ، وينهاهم عنه ببسمة العاتب المتئد ، لا الزاجر القاسي . وما أمسك عن مجالستهم ، وعن صبّ الخمرة في كؤوسهم استرضاء لهم . وحمل اليهم بنفسه جعائلهم ، يبلغهم ، وهو يؤديها اليهم ، رضى أمير المؤمنين عنهم . فهم في حلّ من جميع الموبقات ، إلا الغمز على أمير المؤمنين ، ونشر الفوضى في الدولة . فما داموا يتجنبون الاقلاق ، فالنظام يتقاعد عن الضرب على أيديهم ، تأديباً وعبرة .

وما بدا فيهم وصيف حتى أقبلوا عليه يطوّقونه ، هاتفين : عاش حاجب الخليفة . مرحباً بظل المولى الاثيل !

وتلألأ البشر في وجوههم جميعاً . فما يجيء اليهم وصيف ، إلا حاملاً ما ترضى عنه نفوسهم الجائعة سرمداً . قال وصيف بلهجة الرصانة ، وقد عقد ناصيته : عليّ بثلاثة منكم يجدون في ضرب الاعناق تسابيح !

فصاحوا : كلنا من هؤلاء ، يا وصيف . فخذنا جميعاً . على مَ يريدنا مولانا العظيم ، الكريم ؟

قال ، وما زال يجدّ في بيانه : أريد أشرسكم ، ، وأشرّكم ، وأمضاكم!

فهتفوا بلا استثناء : ليس فينا من يرجح الآخر شراسة ، وكيداً ، ونكراً . فعليك أن تختار !

فما توانى في الاصطفاء . ووقع على أغلظهم عنقاً ، واجدلهم ساعداً ، وأقبحهم صورة . هؤلاء يكمن في أساريرهم إبليس ، فلا يرهبون غائلة . وهتف بهم آمراً : إجروا في أثري !

فأطاعوا والوعيد يتطاير من نظراتهم ، كأنهم من زبانية جهنم . ووقف بهم وصيف عند خيمة الخليفة ، يعلن فيهم : قليلاً وأعود !

وبدا في حضرة مولاه يقول بمستكين الخضوع : أقبل الثلاثة ، يا أمير المؤمنين !

فقال أبو إسحق ، وقد هفا الى التنكيل بالخصم اللدود : أيكونون ممن يستطيعون سفك الدم بلا تؤدة ، يا وصيف ؟

فأبان الحاجب بحماسة الموفق السعي ، وهو لا يزال حيال مولاه في وقفة المسترخي : هم ممن يشربون الدم غير مكتفين بسفكه ، يا أمير المؤمنين ، ولهم منه أطيب سلافة ، واشهى عصير !

فاطربته بلاغة حاجبه . سقط فيه على الهمام الندب . قال بوضح وجهه : أتدري ما حداني على مناداتهم اليّ ، يا وصيف ؟... أحسبك تعلم ما بيني وبين العباس ، ابن أخي ، من إحن . وما حفزتك إلى انتخاب هؤلاء ، من أظلم خلق الله روحاً ، إلا لتغريهم بالمناكد . فادفعهم على خفية إلى كتائبه ،

وليبطشوا به وهم في حلّ من دمه . أنا بحاجة إلى من يريحني من الشانىء اللئيم . ليتوغلوا في صفوفه ، ولينسفوه ، ولينقذوني من خطره . فما فتح عمورية عندي ، بأوزن كفة من القضاء على ابن المأمون !

فأدرك الحاجب مرمى سيده . أمير المؤمنين عيل الى محو ابن أخيه . فليس للاحياء أن يعدّوا فيهم العباس . وعاد وصيف يبدي الطاعة : سيرضى أمير المؤمنين عن خادمه الوفيّ . لن يطلع صباح غد على المنكود !

فنبر المعتصم بالله : اريد ، غداً صباحاً ، رأسه بين يديّ ، يا وصيف . أتسمع ما أبدي ؟... كن براً في عهدك لخليفة المسلمين !

فانحنى وصيف حتى بات قوساً مشدودة الوتر . وقال بحاسم التوكيد : سيلهو في الصباح الباكر سيدي الاثيل بجمجمة الاخرق . فالى غد يا مولاي الجليل !

وتراجع مذعناً للطلبة الاثيرة . لن يتقهقر عن تفريج غمة أمير المؤمنين . وبدا في الجنود الأشروسية الثلاثة يعالنهم بما تصبو اليه نفسه . قال : دحرجوا رأسه ، وانعموا بأجزل عطاء !

وما ضنّ عليهم ببعض المال قبل أن يتحركوا الى كتائب العباس بن المأمون . والدرهم يقودهم إلى اجتراح كل موبقة ، ويستسهلون في غنمه اختلاس الروح . وتسربوا في قوات العباس على غبطة ، وستمتلىء جيوبهم بالأصفر الغرّار . فكل قطعة منه أنفس لديهم من ابن المأمون ، وأخي المأمون ، ومن اتصل بهما بصلة الرحم ، ومن لهما من الاعوان ، والاحلاف ، والخدم ، والحشم ، والعبيد

٨

قضى المعتصم ليلته ساهر الاجفان . كل ما حوله يفيض بدفاق المسرة ، ويرفيه الانس . فاستبشر وثمل خاطره بالتوفيق الوثاب . فالنصر بماله . والمتعة تهرع اليه منشورة الجناح ، لتحبوه منها ما تقرّ به عينه ، وتتلفت اليه شهوته . فلقد قهر الروم في اعزّ موئل . وانزوى مليكهم «تيوفيل» في حصونه ، يرتعش حبال الغزو العربي القهّار . ولن يلبث أن يركن إلى أبي إسحق ناكساً ، مستغفراً . والعباس بن المأمون وشيك الزوال ، وهو المعاند الباقي ، ولن يطلع عليه نور

ورضي المعتصم عن حاجبه . سنّى له الى البغية . وظل يغالب في عينيه النعاس ، كي يأذن بالصيحة المعلنة أن العباس قضى . ولكن الفجر دلف إلى الانبثاق ، وما انشقت الظلمة عن الصرخة البليلة ، المنشودة. فتقلّب أبو إسحق على مضض . هل باء التدبير بالاخفاق ؟

وهتف بوصيف ، وقد ملأ قلبه الغيظ : ماذا ؟ .. لا أم لك !

ووصيف يرقد بباب خيمة مولاه . فأجاب بخشية : لا أدري ما عاقهم عن الانجاز ، يا أمير المؤمنين . مع اني وكلت به ذئاباً خواطف . فهل درى بهم ، واتقى غدرهم به ؟ ... سأطوف بمضاربه للوقوف على ما حال دون التلبية !

وهفا الى مضارب العباس ، ولم تكن بعيدة عن خيام المعتصم . وجال فيها يسأل عن ابن المأمون ، زاعماً ان الخليفة ينادي اليه العباس ابن اخيه . وشقّ الصفوف لا يلقى معارضاً ، وهو حاجب أمير المؤمنين . ودنا من مقر

العباس . واذا بالاشروسية الثلاثة يقفون في طريقه مستوضحين، بهمس حادّ كالصفير : ألا أين الرجل، يا وصيف، وما كنا لنهتدي اليه ؟... فحصنا عنه في مضربه ، وبين رجاله ، وما عرفنا له مثوى !

فلاحت الرهبة في وصيف . هل درى العباس بما بيّت له ، فتبطن الليل محتجباً به عن الأبصار ؟... ومع قسوة الزمهرير ، شعر حاجب الخليفة بالحمّى تدبّ الى جبينه ، وتنتشر في جميع أطرافه . سيرميه أمير المؤمنين بالبله ، ويجزّ فيه مكمن الأمان ولم يحسن نسج الأحبولة . قال يسأل الأشروسية الثلاثة : أما بدا لأعينكم ؟... أما اختلج له في نواظركم خيال ؟

ولمسوا في صوته الفزع ، فأجابوا : إننا من أمره لفي ريبة . هو ليس في جنده ، مع إفراط رجاله في الكتمان !

فاستفهم وصيف ، وقد اشتدت به الوهلة : وهل برح المعسكر ؟... ألا ماذا أوضح لكم عنه حارسه ؟

— منعنا من الدنو منه . فتغفّلناه ، وانسلّ أحدنا الى الخيمة ، فما لقي فيها بشراً . فالوسائد مكانها ، الا أن العباس ، وسيفه ، ورمحه ، وعباءته ، نأوا عن المقر !

فماع وصيف . أي غضبة ستتأجج في المعتصم عندما يسقط اليه النبأ الجائح ؟... وأي نقمة ستنهال على الحاجب ، فتدقّ عظامه ؟... قال : أما اطلعكم أحد على ناحية قراره ؟

فأجابوا : أبينا أن نلحّ في التظاهر ، تجنباً للفضيحة . فما يصيبنا ، وقد ظن بنا القوم ، أننا مقبلون في ضرّاء ؟

فقلق حاجب المعتصم . على مَ تدل هذه اليقظة في ابن المأمون ، وهو ليس

من اهلها ؟... ومشى الى خيمة العباس هاتفاً بالحارس : استأذن لي على سيدك . أمير المؤمنين ساقني اليه في حاجة عجلى ، وإني لاتحرّز من التردد في تلبية مولاي !

فجرض الحارس بريقه . وشاع فيه الشحوب . ماذا له ان يعلن كي يسكت لجاجة وصيف ؟ ... ووضح لحاجب الخليفة أن حارس الخيمة يتلكأ عن التمهيد له إلى المضرب ، فصاح به حانقاً : ما بك ترتبك ؟ ... أين مولاك ؟

فاشتد بالحارس الاكفهرار . وقال بلجلجة : مولاي العباس نأى عن المعسكر في مصاولة العدو . فنفر الى حصون الروم في فئة من خيار رجاله ، ينصره عجيف بن عنبسة ، ولم يرجع حتى الآن . ولو لم تكن حاجب الخليفة ، لامتنعت من أن أجلو لك السر ، وقد استحلفني على كتمانه سيدي العباس !

فاستكبر وصيف ما يطرق أذنيه . هل للعباس أن ينقضّ على الروم دون استشارة عمه ، وهو قائد القوات العربية جمعاء ؟... وتراءى لحاجب المعتصم ان ثمة مكايدة نزع بها العباس ، وعجيف بن عنبسة ، الى التحريض على الخليفة . فهل ركبا الى الروم يستعديانهم على أبي إسحق ؟

وأمسك بخناق الحارس ، مجلجلاً : ألا إفصح عما في ضميرك من خفيّ ، أيها المراوغ . أين مولاك ؟... والى أي وجه شخص يصحبه عجيف ؟... ومتى نأى عن المعسكر ؟

فأجاب الحارس بجمجمة قضت فيه على فضالات العزم : اندفعا قبيل منتصف الليل الى الاعداء !

فتضعضع وصيف . أيزحف العباس بن المأمون ، قبيل منتصف الليل ، الى الروم ، ولا تعلو له في مصاولتهم نأمة ؟... ولكن الروم هنا ، على رمية سهم وهون ، فكيف لا يتصاعد للغزوة ضجيج ؟ ... وظنّ وصيف بابن المأمون سوءاً . ما طفر الى الروم لسوى الغدر بعمه . سيبيح لهم المجال الى تهديم النصر العربي ، على أن يظاهروه على أبي إسحق

ومارت الشكوك في احناء وصيف . ودخل الخيمة ليلمّ بالواقع ، وليرجع الى المعتصم فيقصّ عليه ما شاهدت عيناه . وإذا المضرب ينكشف عن خلاء فاجع . فخفت فيه كل حس ، وامّحى كل خيـال ، كأنه الطلل الباكي . فهرول الحاجب الى سيده ، والهول يعصف بجوارحه . وخشي ألا يبلغ مثوى الخليفة ، وركبتاه ترتجفان ، ورجلاه تعاندان في الحراك . ومثل في حضرة المعتصم مرعوب الخاطر ، مضطرب الشفتين ، جافّ الحلق ، مغمغماً بخجل كسير : ليس العباس في خيمته ، يا أمير المؤمنين !

وأبو إسحق استبطأ حاجبه . فما يقع في معسكر ابن أخيه من غريب؟... وجال في ذهنه ان العباس فطن الى الدسيسة ، ونضا عنها الستر ، فبطش بمن حاولوا اغتياله . وقد يكون استلّ سرهم من جوانحهم ، فباحوا له بما كان من تغرير وصيف بهم . فأصلاهم من ضروب التشفي مـا أوجع فيهم سلامة الروح . وحنق الخليفة على نفسه . وتحفز للانطلاق الى ابن أخيه يبتر عنقه ، وليقع ما لا بد منه . وماذا سوف يقال فيه غير أنه انتقم لنفسه ممن يسدّ عليه كوى الطمأنينة ؟... وليكتب التأريخ!... وما هو التأريخ؟... أف لهذا الهزيل المسخّر ، وهو الرهين بأقلام تصوغه على هواها ، لا على لونه ووجهه . على أن ما سمع أبو إسحق من وصيف ، وما قرأ في طلعة الحاجب

الحشيان من أمائر الذعر ، مال به الى اليقين أن الحدثان جالت جولتها الهادمة ، وقوّضت ما أحكم من تدبير . وزعق ، وبين أضلاعه سخط ناخع ، هلوع ، يفور : هل غادر المعسكر ؟ ... والى أين ، لا أبا لك ؟

وتطاير الحنق شواظاً لهوماً من ناظري أبي اسحق . ألا يكون العباس في مضربه ؟ ... إذن أين هو ؟ ... في أي وجار؟ ... ووائب الخليفة ما واثب حاجبه من سوء الظن . ما انساب ابن اخيه، من المعسكر ، الى سوى الروم يستظهر بهم على عمه المعتصم . فتغداه قبل ان يتعشى به . وما ارتفعت باصرتا أبي اسحق عن الحاجب ، وكادتا تحرقانه . فاجاب وصيف متعتعاً في القولة : برح المضارب الى الروم يباغتهم في معاقلهم ، ورفيقه اليهم عجيف بن عنبسة !

فوثب أمير المؤمنين عن مقعده. ومشى الى حاجبه يكاد يبتلعه، صارخاً به : ماذا ؟ ... ومعه عجيف ؟ ... هل اتفق المسخان على هدمي ؟

وتخيّل ما يرقبه من نكد ، إذا مدّ العباس يده الى الروم يصافحهم ، ويستعديهم على عمه. ولم يطق الاصغاء الى رواية وصيف،فهبّ إلى مضارب ابن اخيه يستجلي . ماذا بدر من الغَدور ؟

وماجت مضارب العباس رهبة والمعتصم يقتحمها . وولج خيمة ابن المأمون يسأل عن ابن اخيه . وصرخ بالحارس : أين العباس ؟... أيكون فرّ من المعسكر ؟

فكاد الحارس يسقط الى الارض وجلاً. فهو في حضرة أمير المؤمنين . فأعاد الخليفة صرخته بالحارس المشدوه : أين العباس ؟ ... ثكلتك أمك ! ففرض الحارس على نفسه النطق، وليس يجهل ما يدهمه اذا ران عليه

الحرس . قال وفي وجهه صفرة الموت: ركب العباس الى الروم، يا أمير المؤمنين ، يقصيهم عن حصونهم ، ورفيقه عجيف بن عنبسة !

على أن الروم ليسوا في الشاحط النائي. فاذا فاجأهم العباس في منعاتهم، فلا محيد عن الجلبة والضوضاء . فمن جلجلة المتقاتلين ، الى قرقعة الخشب والحديد، الى الصليل، والصهيل، والصرير. على حين ليس في معسكر الروم نأمة، ولا أنة ، وقد سكن كالقبور . واذا ما غزاه العباس، وابن عنبسة ، فلن يهاجماه دون جيوشهما. فما بال هذه الجيوش ثاوية بخيامها، لا تنتضي سهماً، ولا تجرد حساماً ؟

ما ثمة غير دسيسة ابتغى بها المشاكسان نسف دعائم النصر . وأبو إسحق، مع إيمانه بما يغلي في صدر ابن أخيه ، الموتور ، من حفائظ تهيب به الى مماكرته ، واجتثاثه ، شاقه أن يعلم ما يدفع ابن عنبسة الى تأييد العباس في جماحه . فهل تجاهل عجيف أي شوق الى نوران يلهب المعتصم ؟ .. ألا بمن يعتزم عجيف أن يزوّج ابنته ؟... أيريدها للعباس ، أم يجهزها للمعتصم بالله ؟... وما ندّ عن أبي اسحق ماضي عجيف . بلغ من موالاته للمأمون، وابنه العباس، ما أقامه في نظيرة المنتصرين لابن الرشيد. ولما قضى المأمون، عند عين البديدون، في ضواحي طرسوس، جدّ ابن عنبسة في ممالأة العباس كي يوصي له أبوه بالخلافة. وفاته الارب فبذر الفتنة في الجيش ، يحثّ الجند على مبايعة ابن المأمون ، وخلع ربقة المعتصم

إن أبا اسحق لملمّ بهذه المنازع في عجيف . فإن والد نوران ليتجه في ميوله الى أبي العباس وذراريه ، وقد نشأ على طاعتهم ، ونهل من نعمائهم . بيد أن أفول دولتهم ، وشغف المعتصم بنوران ، كفيلان بان يزحزحاه

عنهم. أما أحس بكلف الخليفة بنوران ، وقد أضحت ذات الطلعة الغراء، لدى أبي اسحق ، خفقة الجأش ، وبلجة الرجاء ؟

وهال المعتصم ما ينتابه من محنة . على أنه ، مع التفاته الى نوران ، أبى أن يغضي عن أمره . وهو في التفاته الى نفسه ينقذ دولته ، وقلبه من عوادي القضاء . لن يظفر بنوران ، وقد أفلت منه السؤدد . ولن يطيب له السؤدد ، وقد خلا من بهجة نوران

وصاح برجاله ناشطاً في إفساد خدعة إبن أخيه : ويحكم ، هبوا !

وأجمع على تصديع صروح الروم على حصانتها. سيحتلها الليلة بأجمعها، ويقبض على العباس ، وعجيف ، وعاهل الروم معاً، ويقتصّ من جرائمهم عليه . اما العباس وعجيف فلن يشفع فيهما رفق ، والموت على شوق الى تفتيت اضالعهما . وأما « تيوفيل » ، ملك الروم ، فسيتدبره بما يطوي فيه الشموخ ، والنزوع الى مزمن التصدي

ولن يقف في طفرته عند عمورية، بل سيعدوها الى القسطنطينية يضرب فيها أوتاده ، ويشدّ أطنابه . فما ذهبت فيه عن أسلافه الطاقة ، لن يتقاعد عن إدراكه ، وفي خاطره الى الفتح حنينٌ طروح

وقاد قواته، الى حصون عمورية، في مفاجأة مؤاتية، لم يحسب لها الروم قيام موعد . فدبت اليهم الرهبة ، وقد باغتتهم الجيوش العباسية في وثبة تعبث بعنيد الكفاح. وجلوا عن الحصون مدحورين . يتسابقون في النجاة. والجيوشُ العباسية تضرب في اقفيتهم رهيف النصال

وروّعتهم زعقات المعتصم ، وفتكاته ، وما كانت له شفرة ، وما نبت لساعده ضربة . فكان يغير على الكتيبة مجتمعة يبددها بحنق المستبسل ،

وجرأة المستميت . وقبض على جماعة من الأسرى يستطلعهم امر العباس ، وعجيف . فأنكروا معرفتهم بهما . لم يفزع الى صروح الروم عربي . فأقلقوه بما جبهوه به من نفي . إذن ابن العباس ، ووالد نوران ؟ ... أي فلاة يتبطنان ، وأي شر يضمران ؟ ... فما رحلا خفية عن المضارب لهوى نصيع

وطلع عليه الصباح وفلول الروم تلتوي أمامه، كأنها السنابل المنبطحة في يوم عالي الريح . فما ترفع رأساً ، وما يلوح منها غير ظهور مقوّسة ، كأن الحدبة انتقلت عدواها الى جميع هؤلاء المدبرين

وبذل وكده في السقوط على العباس ، وعجيف . فما التمع لهما في عينيه خيال . ألا يظهران له ، ليخضب بدمهما شفرته العطشى الى النجيع ، على وفرة ما سُقيت منه ؟

واشتاق أن يتمايلا لباصرتيه في لمحة عارضة، كالشرارة الضلول . ولكنه لم يقع على ما ينقع الظمأ ، فتحرّق يأساً ، واشتد به القلق . ماذا يبتغيان من براحهما المعسكر ؟ ... هل رجعا الى سرّ من رأى ليعقد عجيف للعباس على نوران ؟

وخطر له أن يرجع الى قاعدته . حسبه ما أحرز من مجد . وما له وللقسطنطينية يذل ناصيتها . أقام على عمورية خمسة وخمسين يوماً ، فدانت لسلطانه . أما القسطنطينية فستكلفه الايام الفساح . ومن سبقه الى غزوها دله على صلابة مكسرها . وليس له أن يذيب العمر بعيداً عن مستقر حكمه . فهو في مثوى عزه يستشرف أطراف دنياه جمعاء . فاذا ما اندلعت النار في احدى النواحي، طار الى إطفائها بهمة أيّدة، حاسمة . على حين لا يكاد

يهفو اليها ، وهو يتناى عن ربوعه ، حتى تتأجج كأنها في هشيم

ولن يصلب عود العباس وعجيف وهو يقتعد قصره . فما أن يرنّ لهما سهم، في ايقاظ الفتنة الهاجعة، حتى يحوشهما، ويخضد فيهما ضلاعة الشكيمة. وما انفك يقاتل وذهنه في بلبال. ما حدا العباس وابن عنبسة على الفرار؟... أي دسيسة جنحت بهما عن المعسكر ؟

وقبض رجاله على رهط من قادة الروم ، جرّوهم اليه يسألونه الامان. إلا ان باله لم يكن في الاستمتاع بلذة النصر ، وتصعير خده على الاعداء المخذولين، بل في تخمين ما انصرف اليه إبن اخيه، ووالد نوران. هل انطلقا ليحرماه نداوة ذات الرواء الكميل ؟

وهمّ بالرجوع إلى سرّ من رأى . لقد اكتفى بما أدرك من حول . ولكنه تذكر ابنة عمه ريحانة . فليس من أصالة الرأي أن يبقيها في قبضة الاعلاج . استنجدت به من الروم وبايعها على الانقاذ . والشرف والاباء يقدران عليه دوء البلية عنها. فلن تذهب هدراً صيحته: « لبيكِ، لبيكِ!»، فيما تستصرخه ريحانة : وامعتصماه !

وقضت عليه نخوته بالنجدة. لن يبرح عمورية الا وإبنة عمه إبرهيم بجانبه، في هودجها المنيف . فهي دليله على قهر أعدائه . وصرخ بالقادة الروم الواقفين بين يديه ، في ضراعة المستغيث : ولكن لم تدفعوا اليّ ابنة عمي، وقد لطمها في زبطرة أحد أعلاجكم وأسرتموها . فأين هي ريحانة ؟... إني لأريدها سليمة من الخدش . إحملوها اليّ الساعة ، إذا كنتم تحرصون على هاماتكم !

وما ندّ عن قادة الروم أمر ريحانة ، الفتاة الهاشمية الثاوية بالاسر ،

وهي اول من سقط في أيمانهم من العرب ، في طفرة التحدي . وما تجرأوا في حضرة المعتصم على الالتفات بعضهم إلى بعض ، لفرط الهيبة . وجمجم أحدهم ، بلهجة مفلولة الغرب ، ينقذ بها نفسه وإخوانه من نقمة أبي إسحق : هي في أعماق حصن الملك ، يا أمير المؤمنين !

فأرهف المعتصم بالله أذنيه. واستدارت عيناه. وجلجل : أهي في حصن الملك ، لا أبا لك ؟ ... ولكني دمرته بيدي ، وما أبقيت فيه مدماكاً . أأكون دفنتها في غياهبه ؟

وهاله ما يسمع . وأوجعه ما أقدم عليه . وصاح بوهط من رجاله : دونكم هذا الأسير . إنطلقوا به الى حصن الملك . ونقبوا في الانقاض عن ريحانة، إبنة عمي ابرهيم. غوروا في المطاوي في الفحص عن المستجيرة بنا. فما خضنا ، لولاها ، هذه الحرب الطحون !

وانتفض جزعاً . هل قضى بيده على إبنة عمه بالموت ؟ ... هفا الى انقاذها فمحاها ؟ ... وأجال عينيه في قادة الروم الماثلين ، على مهيض الوجل، بين يديه، زاعقاً : إن لم أوفق لانقاذ ابنة عمي ، فما أنتم غير أشلاء ترعى فيها الديدان. والله، لست أعدل بأرفع هامة فيكم قلامة ظفر ريحانة. لطمتموها ، وأسرعوها. وسألطم فيكم كل أصيد ، وأجزّ ناصية كل علج ، إذا يئست من الاهتداء الى من تعلوكم نسباً ، ولا يدانيها حتى مليككم في بسطة الشرف !

فارتعدوا ، وما يجهلون في أبي إسحق فورة الغضب، وليس يصدّها أحد ، ولا تلتوي عن إجهاز . وأحسوا بهاماتهم تتدحرج ، وتصبغ التراب بالحمرة القانية ، ويعبث بها الهوان . وتكاثف في وجوههم الشحوب .

وتهدلت اكتافهم . وتضاءلت صدورهم العراض ، وقد خمدت فيها مهزة الاستعلاء.

وأغار رجال المعتصم على أنقاض حصن الملك يرفعونها . واتسع لهم فيها الى سلالم من حجر ، تشق كبد الارض ، وتنتهي الى دهاليز وسراديب إنتصبت دونها أبواب ضخام ، من صفيق الحديد . فحطموا أقفالها بالمطارق. وفتحوها وتغلّلوا في أنفاقها ، يبحثون فيها عن أعشاش الأسر . وانتهى الى مسامعهم أنين الاحتضار ، كأنهم في أرماس لا تزال الحياة تصاول فيها شراسة الموت. وهفوا إلى هؤلاء المحشرجين يرفعونهم بين أيديهم، ويتبينون على ضوء المشاعل أساريرهم، مستوضحين كل من يقعون عليه: أأنتِ ريحانة بنت ابرهيم ؟

وأنقذوا العشرات من هؤلاء المحكوم عليهم بالاختناق في بطون الداميس. ولكنهم ما اهتدوا الى ريحانة . ورهبوا نقمة الخليفة. فأمسكوا بخناق القائد الاسير ، صائحين به : أين إبنة عم امير المؤمنين ؟ ... أين هي ، والا بات هذا الغور لك جدثاً ؟

فأبان بارتعاش المصدوع اللب : أعرف أنها هنا . أنا قائد هذا الحصن . وقد توليت بنفسي رعاية الفتاة الهاشمية . وكنت أمنع عنها صولة التعدي ، وأنعش فيها ذاوي الرجاء !

وجدّ في البحث عن مقرها . وإذا به يصيح وقد وقف تجاه باب من الحديد أكله الصدأ : إفتحوا هذا الباب !

فحطموا القفل مستنبئين بزمجرة الحنق : أهي في هذا الدياس ؟

فأعلن بثقة وطيدة بما يبدي : هي فيه !

فدخلوا ، وعلى شفاههم يطفو زبد الجهد والوعيد ، صاهلين : إذا لم تسقط علينا فسنكبلك بالقيود ، ونبقيك في هذا السجن حتى تجف فيك مواهة الروح !

وأنارت مشاعلهم الكهف . وأداروا أبصارهم في كل ناحية ، فما لاح لهم مخلوق . بلى . تبينوا ، في احدى الزوايا ، يداً هزيلة ، تجتهد في أن تستر نفسها بحصير متعدد الثقوب ، منسول الخيوط . فمشوا اليها ورفعوا عنها الحصير . فعلا صوت امرأة ينوح ، ويسترحم بلسان عربي لا رطانة فيه : عفوكم ، أصبحت لا أطيق !

فأيقنوا انها ريحانة . وهتفوا بها : أريحانة أنتِ ؟ ... ألابنة عم أمير المؤمنين ؟

فاستنشقت عرف الطمأنينة ، وقد سمعتهم ينادونها باسمها ، ويخاطبونها بلغة قومها . واستطلعتهم أمرهم بشوق وبشر : من تكونون ؟ ... أأنتم من رجال المعتصم بالله ؟ ... هل جئتم لانقاذي ، وانتصر أبو إسحق ؟

وودت أن تسمعهم يجاهرونها بكونهم من رجال العباس، لا من رجال المعتصم. وما بذلت من نفسها لسوى هلاك أبي اسحق، ونصرة ابن المأمون، بل نصرة أبيها . فيستعيد ابرهيم بن المهدي ما فقد من سؤدد وفواق. وارتعشت رعشة الموت ، لما عالنوها أن الخليفة المعتصم بالله دفعهم اليها ، وقد أبى إلا أن ينقذها من شرّ آسريها العتاة ، وهي المستظهرة به . واستنبأت بمرارة : وماذا أصاب العباس بن المأمون ؟

فقلبوا شفاههم . ليسوا يدرون . ورفعوها قائلين بطاغي الجذل : تعالي الى أمير المؤمنين !

فتراءى لها أن تانع ، وما جازفت بحياتها في سبيل أبي إسحق، بل لاجل ابيها ، وإن تكن زعمت أنها تظاهر العباس . غير أن جنود المعتصم كانوا قدخرجوا بها من الوجار المسدود عليها ، وأزجوها الى النور ، على استبشار بلقائها . سيرضى عنهم الخليفة المصور

وحدجوها بابصارهم، وقد أضحوا في السابلة . فإذا أكفهرار الضنى يفشو فيها ، كأنها بمن تلوكهم المنون . فالوسامة المتألقة في معارفها انطفأت جذوتها . والشباب أصفى. وما بقي، من ذلك الرونق القشيب ، غير كتلة من عروق وعظام

وعادت ريحانة تسأل عن العباس بن المأمون . على مَ أقدم في المعارك الظافرة؟... قالوا : سيقصّ عليك أمير المؤمنين كل ما ترغبين في استجلائه . فالأخبار في نادي أبي إسحق !

فاشتدّ بها الأسى . يا ضياع ما أسرفت فيه من عطاء، وقد لقيت الاهانة والضيم ، وكادت تفنى ذلاً وإرهاقاً . سعت لاضرام اللهبة كي تقضي على المعتصم بالله ، لا لتزيده نصراً على نصر ، ومنعة على منعة . وتفاقم فيها خور العزيمة ، وتأوهت . وما أحست بكونها تلج باب خيمة المعتصم ، حتى أغمضت عينيها ، كيلا ترى . فما يشوقها أن تبصر ، في أوج النعمى ، من أرادته في الهالكين

ولاحت لأبي إسحق ، فجمدت عليها عيناه بذهول . أهي هي ريحانة ، ذات النضارة الريّا ، والصباحة الخضلة؟... وأنكر أنها هي. وصاح بالتياع: ألا من أنت ؟... أأنت ريحانة ... ابنة عمي؟

فخشعت وقد أمست بين يديه . وزفرت . وقالت بصوت عليل ،

تشبع فيه الحسرة : أنا هي ريحانة ، يا أمير المؤمنين . ريحانة ابنة عمك ، وقد أذاقها العلوج ، من ضروب القهر ، ما كادت تشرف به على المنية . إنها لجثة يلوكها القبر ، ويوشك أن يبتلعها . ولكن رحمة الله لا تزال نديّة، واسعة ، يا أبا إسحق !

وانتحبت وولولت : وامعتصماه !

فصاح : لبيكِ ، لبيكِ !

ومال عليها يعانقها . وضمها الى صدره على مرأى من جميع من نظمهم المكان. هذه إبنة عمه ، وإنه ليحنو عليها كما يحنو على أخته وابنته . وقال، وقد هزّ كبده ما يبين في ابنة ابرهيم من هزال وإصفاء : هل جاروا عليك حتى كادوا يزهقون روحك ، وما صانهم عن ايلامك كونك ابنة عم الخليفة العباسي ؟

فأجابت ، وقد دمعت عيناها ، لا أسفاً على نفسها ، بل تفجعاً على إخفاق مجهودها : لم يرعوا لي حرمة ، يا أمير المؤمنين !

فزأر تهيجه ظلامتها: ولكني ما أبقيت فيهم على عزة لاستنقاذك . فانتقمت لك بما كلفهم ماء الوجه ، وخضد فيهم الكرامة ، وقد ركبهم العار حتى الأبد. أنظري اليهم ، في صغارهم، فتعلمي ما انزلت بهم من تنكيد وتنكيل. هؤلاء هم قادتهم، وقد أضحوا باجمعهم في أسري ، عبداناً مرذولين. زرعوا اللؤم ، فحصدوا الخزي . إنهم لأنجاس ، وقد تصدوا لك . وأوضحت لهم أنهم أنكاس، وقد أخذت منهم بثأرك. فطيبي قلباً، واخلعي عنك أوصابك. فما اخفقت في نجدتك !

فغمغمت وهي تجاهد في كتمان ضغينتها : عاش أمير المؤمنين سنداً لكل ملهوف،

ومجيراً لكل منكوب . أذاقوني من هول الطغيان ما تمنيت به الموت الف مرة . وكنت ، كلما دخلوا محبسي ، أختبيء منهم ببقية من حصير . هي كل ما جادوا به عليّ من غطاء وبساط وفراش ، مما اصبحت به كتلة من عظام نخرة ، تتماسك بحشاشة واهية ، يا أمير المؤمنين !

فتعاظمت فيه الحرقة . ما كان يرغب في سماع هذه الشكوى اللاطمة، تفيض بها إبنة عمه ، وهي من تحمل مثله الاسم العباسي الضخم . فكأن الروم تعمدوا الغمز به ، وقد جبهوها بالمساءة الصافعة . وما تمالك عن لطم أحد قادتهم ، وهو أقربهم اليه ، صارخاً به : أتشهرون سلاحكم على امرأة ، يا ملأمان؟... ألا تبدون أبطالاً في سوى مطاولة النساء؟... ألا أين كانت نخوتكم ، ونحن ننقضّ عليكم ، فنفلّ صوارمكم ، وندكّ منعاتكم ، ونذلّ جباهكم ؟... والله ، ما عرفت قوماً يضاهونكم في الانتفاخ على الضعيف . لاكسرنّ شوكة عرامكم ، بما تبيت به نواصيكم ، أحقر من النعال !

وهدر : خذي منهم لنفسك يا ريحانة . إلطمي من أرباب الامر فيهم من شئت ، يا ابنة عمي ، وجميعهم لك خدم أرقاء !

فاستنكفت عن لطم من لطموها، كأن في صدرها ينبوع سماح. فما تزال من قبل، ومن بعد ، إبنة أقيال. والاقيال يعفون، في المقدرة ، عمن أساء اليهم . ويصفحون عمن استطال على الكرامة ، ليدلوا على كونهم أسمى من الأحقاد . فزعق المعتصم : ما بك تترددين في مغالظتهم ، وقد خاشنوك ؟... أتعتصمين بالندى في يوم الانتصار للاباء ؟

فأجابت بصوت حميّ ، نصيع ، كأنها تتعالى عن الرغام : إني لاهبهم لمبرّتك، يا أمير المؤمنين، وأتشفع اليك فيهم. فما كان عفو الكريم مذمة ،

ولا هضيمة !

ففارت فيه أوتاره . إن ابنة عمه لترجحه في رحبة المكارم . فتغفر للاعلاج ، مع جرأتهم عليها ، وائتمارهم بها . وتمتم وهو يغلي ارتماضاً: آه من الدم الشريف ، كم يسمو في مواضع الاحسان !

وود لو أبصر ريحانة تلطم هؤلاء المتجاسرين عليها ، وهي الهاشمية الخالصة، وابنة عمه لحاً . فيلقى الذميم جزاء بغيه وفحشه . ولكن ابنة ابرهيم ، ترفعت عن هذا الاشر ، متشامخة على الاسفاف. ولم تكن على طرب ، لنهاية ارادتها ، على غير ما جلاها كيد الزمان

٩

بغداد تنشط في بثّ الدعوة للعباس بن المأمون . فوقفت بأجمعها تبايعه بالخلافة . هو هو أمير المؤمنين. وأجمعت على كون المعتصم غاصباً. ولم يتبدل فيه رأيها . اختلس من اخيه الامامة ، في ساعة دهياء ضاع فيها المأمون عن نفسه ، فنثر الكلام الجزاف ، دون أن يقوم له عليه درك ، وقد استحكمت منه حشرجة المدّنفين

ولقد عاد اليها العباس ، من جبهة القتال ، على صهوة جواده السبوح . يخترق اليها الأنجاد، والاغوار، والبطاح . ويصحبه عجيف بن عنبسة، وقوة من الجند أخلصت له ، وآثرته على عمه الصلب الشكيمة ، الجافي الطبع . ونوران دعته الى الزوراء ، وقد سقط اليها أن المعتصم أنزل بالروم أقسى عبرة . فهزمهم وشتت فلولهم . وهاجم عمورية وهدّ اسوارها . ويوشك ان يزحف الى القسطنطينية فيغزوها ، ويثلم مناعتها

وهذا النصر الموالي أبداً، هال ابنة عجيف، فنهدت الى مصادمة القدر. وأهابت بالعباس الى الرجوع ، فيما يشتبك عمه وقوات الروم . وسهّلت له إلى مرتبة الخلافة بأن نفخت في بغداد الميل الى الكشف عن النية، وخلع أبي اسحق، وإقرار العباس بن المأمون . وبغداد بحاجة الى همسة، بل الى غمزة لا تعدو رفّة جفن ، كي تتحفز للمناوأة . فما انفكت تتسخّط على أبي إسحق ، وقد أهملها ، وأزرى بها . فنشر رايته على سرّ من رأى . وتجاهل العاصمة ، الحاملة المجد العباسي على منكبيها العريضين ، والبانية للسلالة العباسية الحوض الحريز

ونوران لم تكن ترقب فوز المعتصم ، في منازلة الروم . فحسبته سينوء بحمله عليهم ، فيتداعى شأنه ، وتكلفه هزيمته حياته . وإذا ردّ عنه القضاء، فلا بد أن تهي عزمته ، فينقوّض به سرير الخلافة ، ليعيد العباس تشييده ، ويستوي عليه ، وتعطى القوس باريها . على أن الزمن المكابر ذهب برجاوة نوران . فظفر المعتصم بالأعلاج ، ودحرهم . واستولى على حصونهم واحداً، واحداً ، متنقلاً في الموائبة من علاء ، الى علاء

وخشيت ابنة عجيف أن ينجز المعتصم ، وقد انتصر ، ما وعدها به . فيودي بالعباس ، كي يستتب اليها لنفسه . فأوفدت الى ابن المأمون أخاه جعفراً ، يقول له: ألا ارجع. عمك ، وقد شاقه الخلاص منك ، بعد كسر شوكة الخرّمي والعلوج ، بوغر عليك الصدور . وسوف يرميك بزبانيته لبحطموك . فعدْ الى بغداد المقيمة لك على حفاظ ، وارفع فيها بندك . فتخلع عمك ، وتنصبك خليفة على المسلمين . وليس لأبي اسحق أن يستعيد مقامه فيها ، وقد نبذته وعدلتك به. إن الفرصة لموفورة ، فلا تغفل عنها ولن تعود . ويزيد في وفورها ، وفي ضرورة التهالك على انتهازها ، جنوح المعتصم الى غزو القسطنطينية . فقد يحفر هناك ضريحه ، وما كان للعرب أن يفلحوا في تلك الغارة الممتنعة عليهم. فتصدعت فيها دروع أمتهم على ثلاث، وأسوار القسطنطينية على حصانة أيّدة . إرجع ، وأمامك الطفرة المؤاتية . فإذا تقاعدت عنها ، فما أنت بمن كتب لهم حظهم النجح على وسعة الامد !

ومالت بجعفر الى محادثة أبيها في حرج الساعة ، وإقناعه بالعودة. قالت: إن أبي لبحسن التدبير ، وليس لنا عنه غنية . والجند يودّه ، ويثق به !

وجعفر انسلّ الى عمورية ، متخفياً ، لا يبيح لمن حوله أن ينقلوا

الى عمه أخباره . ولقي أخاه العباس . وقصّ عليه ما تلحّ فيه نوران . وحفزه الى القهقرى. ميدانه بغداد ، لا عمورية ، والقوم في الزوراء يعقدون عليه الرجاء الامثل . ويرقبون ، على نار ، طلوعه عليهم ، ليشفوا ما في جوانحهم من حزازات مستعرة ، ومن حفائظ على أبي إسحق ، العابث بكراماتهم بازدراء المستهين

وهفا العباس الى عجيف يتآمران، ويتداولان الرأي. قال عجيف: نوران لم تضلّ الهدى. علينا ان نزحزح عمك عن جادتنا، قبل أن يمسي ذلك الحائل العنيد. اتكلنا فيه على الاعداء تتخطفه أسيافهم، فأذوى فيهم ضلاعة النخوة. وإذا لم نتحكك به بأنفسنا ، فنضربه اليوم الضربة الطاحنة ، كانت عنه غداً أيدينا . هذا أوان التقويض . فلنستأصل الجذع ، قبل أن يصلب على فؤوسنا !

فقال العباس ، ولم يكن يجهل ما يجود به الزمن من آزفة مماثلة : إذن فلنرجع يا عجيف. خيل الينا أنه سيكبو في مناكدة الروم، فاذا به يتفوّق عليهم . وأخشى، وقد خلع أكبادهم ، ان يشرإب ببصره اليّ . بل هو ما يفتأ يترصدني كي يغدر بي . فلنسبقه في تسديد النصلة . إلى من تستند في المظاهرة ؟

فأوضح عجيف : إني لأعتمد على سيفي وساعدي ، وعلى دهاء نوران ، وعلى جموع أنصارنا ، وما هم بالقليل ، وعلى بغداد الكارهة لعمك كرهها للوباء النهيم ، وعلى السعد ، ولا بد أن يبسم لنا مرة ، مع شديد بخله علينا بالبسمة ، وعلى بعد عمك عن قاعدة دولته ، والقوم في كل مستقر عبيد السيد المرفوع اللواء ، الشاهر عليهم فيصله ، لا المطويّ في الابعاد !

فأطرق العباس كي يروز مبلغ همته، ومدى موالاة القدر. وقال وما خلت قولته من وهن الارتباك: ولكن ماذا يكون من عمي وقد درى بتراجعنا عنه، يا عجيف، ألا يرتدّ الينا، ويحسمنا ؟

– سيحسمنا في كل حال، يا ابن سيدي. سواء مشينا في الركب، أو تنكبنا عنه. أيشخص لك أنه سيبقيك بعدما دوّخ الخرّمي والروم ؟... إنك لتجري في وهم شاحط، اذا ساورك هذا الظن الهشّ. كل ما يطمع فيه عمك، بعد نجاته من أعدائه الأشداء، أن ينجو منك، وأنت الخصم اللدود. ولكن ما أن تخلعه الأمصار، وتنادي بك سيداً، حتى يتضاءل بأسه، ويهون جده، فيصدف عنه الجيش، وما كان له نصيراً !

ووشوشه: ولا يندّ عنك أن المعتصم على هيام بنوران. وهو يكيد لك كي يسلبك إياها. على أن نوران، وهي ذات حفاظ وضاء، وولوع بريء من الركاكة، تصانعه، وتداهنه، لتورده المهالك، فتزلّ به القدم في مهواة ذات أضراس، ويفنى لتبقى، وتقبض بيديك على اعنة الحكم. أنت خصم خطر في ناحيتين جسيمتين، في المقعد الاعلى، وفي الصميم. فاظهر لعمك أنك أدهى منه. وانطلق الى بغداد ودقّ فيها أوتادك. ولن يدركك المعتصم إلا وأنت ذو ظفر وناب. وستنكره دولته، وقد بدوت فيها تدعوها الى مبايعتك بالامامة !

فراعه ما يعالنه عجيف من رهيب، وزعق: أيهوى نوران، يا عجيف؟... ألا ماذا تبدي من مسنون التجديف ؟

– إنه لعلى شغف بها يحرمه الرقاد. فما هجم لولاها على الروم، وهي من قذفتهم به، كي ترميه في فوهة المنايا. الا أنه سلم. ومبتغاه، وقد

سما الى القمة ، أن يقتلعك باستهانة المزهوّ ، كأنك شوكة في البنصر . ولن تصادف من يجيرك من بطشه ، حتى بين من يفرشون لك الخدود ، ويتزلونك بالجوانح . إسرع في الطعنة النجلاء ، قبل الفوات !

فزأر قد اندلعت نوازبه : الى بغداد ، يا عجيف !

وأثار سخائمه النبأ . أما اكتفى عمه بالخلافة ، يستلّها منه استلال الروح من مكمنها ، كي يسعى لينافسه في نبضة جنانه ، فيسابقه في حب من باتت ومضة أمله ، وخفقة ضميره ؟... واستكبر التحدي الاثيم . إن عمه لسافك دم ، وهادم حياة . وصاح بمن يثق بهم من رجاله : إني لمنصرف عنكم في غزوة ليس لكم أن تلمّوا بمكانها . فابقوا في مضاربكم لا تبرحونها . وإذا سئلتم عني فقولوا : «هو في خيمته !» . وإن يقتحمْ متطاولٌ الخيمة ، فعالنوه أني في مباغتة الروم ، كي أحتل معاقلهم . أحفظوا سري ، والى اللقاء الوشيك !

وانساب في المضارب يجلو عنها في رفّة عين . وتأثره عجيف ، وجماعة من خلصانه ، يطيرون الى بغداد على أجنحة ، كأنهم يقتعدون بساط الريح ، لا صهوات الجياد . إن بغداد لترقبهم على شوق ، لتنزع منها من بايعته قسراً ، فأذلها في مضاء الانفة ، وتنشر عليها لواء من ترى فيه خيراً ورفقاً ، وتجد في مبايعته حقاً وهدى

وبدا العباس في القوم بعزة المنصور ، وصولة الغازي . وحيا باليمين وباليسار . وهتفت له الزوراء هتفة الاخلاص والايمان ، شاخصةً اليه بابصارها ، وميولها ، رافعة له أعلامها ، ملوّحة بمناديلها ، صائحة من قلوب ملأى بالايناس : الله أكبر ، مرحباً بالسيد الاروع ، وبأمير المؤمنين الاثيل !

وماجت بين يديه ، وكأنها رأس يتلوى ، وخصر يميس . فهي لا تحابي ،

ولا تواربُ في المبايعة، وقد وهبت نفسها لابن المأمون هبة صدوقاً، نصوحاً. ونوران وطّأت له الى هذا المقام الباذخ، بما بثت من دعوة، وبما استغلت من شهوات تناهض سيطرة المعتصم، الخشن المجسّ، الرهيب الظل

وبدت إبنة عجيف في الرعيل الاول من المرحبين . فهفت إلى العباس، وإلى أبيها ، ممتطية فرسها الاشهب ، عاقدة في مفرقها الكوفية والعقال ، وقد تزيّت بزي الفرسان ، ملتحفة بعباءة بيضاء من الحرير ، مطرّزة بخيوط الذهب والفضة ، كأنها إحدى الاميرات المرموقات

وبغداد أطاعت نوران في صبوتها . وتعشقتها مجاهدة مأمونة العهد، ثابتة في الكفاح . ورفعت لها راية من ولاء وحفاظ . فلن تتحول عنها ، وقد لمست فيها المواءمة ، وكره الغاصب المستوري

وهتفت نوران للعباس ، وهو يطل على الحشد المرصوص : عاش أمير المؤمنين العباس بن المأمون !

وتمايلت في يمينها الراية العباسية السوداء . فصرخت الجموع بصوت واحد ، وكأنه قصف الرعد في اليوم الجهم، بل صهيل الجواد المجنّح ، المتحفز لحوض المعمعة اللهبي: عاش أمير المؤمنين العباس بن المأمون، وسقط المعتصم . خلعنا الغاصب من أعناقنا ، وبايعنا السيد الخليق بالامامة !

وقُرعت الطبول.ونُفخ في الابواق.وومضت الأسنّة. وتهادى الموكب الى قصر الخلد ، مثوى هرون الرشيد في عهده الازهر ، وقد بُسطت فيه الطنافس، وخفقت الاعلام ، وعبقت في جوه الطيوب ، وأزدان بالأزهار . ومشى العباس الى شرفة القصر ، يشفي منها على الأفنية ، وقد احتشدت فيها الخلائق المتهالكة على هتافها المتون : عاش العباس بن المأمون أميراً

للمؤمنين ، وهلك الغاصب المعتصم بالشيطان !

فأشار العباس أن سمعاً ، وهو يريد الكلام . وحمد الله ، وقد هدى القلوب المؤمنة ، وأزال الغشاوة عن الاذهان . وشكر للقوم حسن ظنهم به ، ومظاهرتهم اياه على المختلس الغدّار . وقال : يأبى الحق إلا أن يأخذ لنفسه من هاضمه . ولقد انتصف . فالعيون البصيرة لا يحجبها عمى. والبطل لا يستأسد ابداً ، مهما لجّ في الطغيان . وقد تقصر حيناً يمين العدل ، ولكن ليس على الامد. وإنها لتستعيد اليوم مضاءها ، وتنفذ الى صميم الغبن فتذروه ، وتقيم على أنقاضه مشعل الهدى وهّاج النور

« سلبني الغاصب الامامة فنمت عن أشره ، مخافة أن أضرم النار في الصفوف . بيد أن التمادي في البطر ، واستنقاذ السماح ، أهابا بي الى النطق بالكلمة المترددة في النشور لحكمة لم أشأ ان أثلم حدها. غير ان السكوت بات عبثاً . وحان للعليل أن يبرأ ، وللأنفاس المتململة أن تأخذ طلاقتها . وسرّني، وأنا أستظهر بكم ، أن تجيبوني إلى منافرة الذميم . هذه يمني أمدّها اليكم ، لأعاهدكم على المناضلة في رفع منار العدل ، والمسير بكم في نهج الله ورسوله ، وإطفاء الاحن ، ودرء المحن ، والتشبه في رعايتكم بجدي الرشيد، وبأبي المأمون . فالعباسيون اعتصموا بوفر من المحامد ، جئت أضفرها لكم تعويذة من الفساد المستشري ، وضماناً للرغد المنطلق من عقاله . فاذكروا نعمة الله عليكم، ورفقه بكم. وكونوا لي انصاراً ذوي حفاظ. وما أنا فيكم إلا الامام اليقظان ، والراعي الشفيق !

فكان للجو اهتزاز عميق الغور بانفجار الجذل المستعلي ، وقد ضجت له أطراف بغداد على سعتها، وتجاوبت به أصداء دجلة والفرات . وأقبل الرؤوس

يبايعون ، ويشهدون الله على الوفاء والامانة ، ومغالبة كل عارم مستطيل . فإن لبغداد استمساكاً بسدة الخلافة تعاند في جلائها عنه ، ورأياً في الخلفاء نحرص عليه . ولن تجرّها الاهواء الى طمأنة ظهرها ، لمن ليس حقيقاً بركوب المسند الأثير

قال العباس ، وقد شعر بالسعد بواليه ، وبالدهر يبسم له بعد قطوب : أني لأعرف بغداد حصن الخلافة ، وبها نستقوي ونعتزّ ، وعنها نذود . ولست أبتغي منها إلا أن ترسخ في موالاتي ، ولها عليّ يمين الله أني لأستبقيها في الذروة . ما من نسمة ريح تهب ، الا وتختلج فيها ، قبل أن تجوب الاجواء الى سائر الامصار !

فما انفك الهتاف والتكبير على احتدام . فالنصر ادركته بغداد . وهزمت في الشوط سرّ من رأى . واعتزمت مناكرة المعتصم وقهره ، وليس يجود عليها بنثافة من مودة ، كأنها جحر الأرقم . فأعلن العباس ، وقد التفت إلى الغد الحفيل بالصدام : لنتهيأ للمناجزة ، وقد يعود المعتصم وشيكاً من غزوته عندما يسقط اليه أننا خلعناه . فإن صدوركم ، وسواعدكم ، تجاهره بأنه غريب عن الدار ؟

وحدج عجيف بعين تياهة ، آمرة . وبادره بالقولة الحازمة : علينا باعداد الدفاع يا عجيف ، ولا معدى للغاصب عن الرجعة ، لاستعادة المقام الهاوي من تحته . فصاوله بمن نحشد من انصارنا . واضربه في قلبه ضربة تنخع عوده ، وتهدّ حيله ، فلا ترتفع له هامة ، ولا ترتعش فيه روح !

فأبدت نوران بيقين المؤمن : إن بغداد لتؤازرنا في المنافرة ، كما ظاهرتنا في المبايعة . فالحرب بيننا وبين الخليفة المخلوع . وأننا لنتكل على أبي في

رد الغارة ، وقهر الاعتداء . ولا ننسَ أن لنا في الأفشين خير ظهير ، وهو عوننا على الغاشم ، وساعدنا في كسر شوكة الغاصب . فما إن يعلم بما أقرّت بغداد ، حتى يجنح عن المعتصم ، ويخذله ، ليقبل الينا باسطاً يد الغوث !

فابتسم العباس . ما كان ليشك في ولاء أبي الحسن . وقال عجيف : سأنظم الصفوف ، وأجهز الحصون لخضد ذرع كل من يواثبنا . نحن في حمى مأمون الجوانب ، وليس للغوائل أن تعدو علينا ، وقد أقمنا للطمحات نرصدها !

ومضى لاعداد قوات المناضلة ، وتجهيز المعاقل بالمجانيق ، وتزويد الجند الاعتدة والمؤن . وخلا الجو للعباس ونوران . فمال ابن المأمون على ذات الروعة السامقة يقول : والله ، ما عرفت لك مثيلاً في تعبيد طرق المعالي لمن تشوقك نصرته ، يا نوران . بروحي أنتِ . لولاك لخسرنا الجولة ، ولكبونا في الشوط . إلا أن فطانتك ، وماضي سعيك ، دفعا عنا المعرّة ، وكتبا لنا الغلبة . لم يبق لعمي ظل في بغداد ، والجميع باتوا في حزمتنا . واليك يعود الفضل في إبعاد النهيم عن الطيبات ، وقد أمعن فيها التهاماً . فشكراً ، يا ذات الجنان الثبت ، والرواء المنيف !

وأمال برأسها الى صدره ، وانتهبا القبلات على جشع . كم طال عليهما ارتقاب الساعة المرجوّة . قال العباس ، وقد اختمر فمه ، وجنانه ، بالعذوبة المنشورة في ابنة عجيف : من حقي الآن ، ويمني تقبض على دفة السلطان ، أن ألتفت الى قلبي ، فانيله ما يشتاق اليه من هناءة . سيعقد لي عليك ، يا نوران !

وأطال اليها النظرة المفتونة . فقالت ابنة عجيف بجميل الرضى : ليس لي إلا ان أذعن لمشيئة أمير المؤمنين !

وهي تتشهى مثله هذه الساعة الحلوة . فتمسي سيدة الدولة العباسية بلا منازع . وليس لهـا من ينافسها في السؤدد الرحيب ، حتى العباس نفسه ، وهو طوع يمينها . فتقبض على المقاليد ، وتسيطر عـلى الاحكام ، وتبزّ الخيزران وزبيدة في سحيق شأوهما . ولن يكون ابن المأمون غير ذلـك الخاضع لمطامعها

وهدهدها الحلم اللذّ . سترتقي الى عرش لا حسيب عليها فيه ، وهي ملكة ناجزة الرأي ، أشبه بملكات اثينا والقسطنطينية . فتتولى بلا معارض زمام دولة نائية التخوم ، تجثو بين يديها خشوعاً وإجلالاً . وأوضح العباس يضرب موعد العقد له عليها : لن يطول بنا الزمن كي نمسي زوجين . فالسانحة أطلت تختال بنواضرها . والسعد ، كالنحس ، يقبل كله في طفرة واحدة !

قالت ، وليس لها الا أن تؤيد ، والاماني تهفو اليها طفاحاً : أنا في طاعة أمير المؤمنين !

وتمثلت نفسها ذات بلاط ، وذات مجد عريض . فلا رأي يسمو رأيها ، ولا سيدة تتقدمها . وبدا لها المعتصم محدودباً بين يديها ، سائلاً اياها في ضميره ، وطالباً عفوها وقد قضى عليه العباس بالموت . ولكنها لن تعفو ، وفي الابقاء على أبي إسحق مرهف الخطر . وليس لها أن تقطع ذنب الافعى وتوسلها

وأشرق مبسم نوران عجباً . اذا سارت في جادات بغـداد فستزحف في أثرها المواكب الجرّارة . وستنثر في طريقها المال فيلتقطه المزدحمون في ركابها لمرآها . ويقال فيها إنهـا ذات جود ورحمة . وستتسلسل في أبنائها الخلافة . ولن ترتضي ، من العباس ، أن يبايع على ولاية العهد ، غير من تحدر من صلبه منها

أما أبوها فسيتولى امر الجيش ، ويعاونه الأفشين . فإن لأبي الحسن مكانة تفرض نفسها ، ولا مذهب عن إكرامها. ولم تلتفت نوران إلى الرفاه بمقدار التفاتها الى الاستعلاء . فالرفاه حباها إياه ابوها . أما العلاء فما زالت تستزيده نضحاً ، وما كانت لترتوي مما نفحها به عُجَيْف من حظوة

والمعتصم لا يضنّ عليها بالمطمع ، وقد عاهدها على رفعها الى المستوى الانور . بيد أن للمعتصم نساءه ، واولاده، فلن تكون بجانبه ذات طلاقة. عدا أن لها إلى العباس حنيناً لم تحس به في جلوسها الى أبي إسحق . مما حداها على الاستقرار بمودة ابن المأمون . واستوضح العباس ، وما انفك يرهب جانب عمه : وماذا يبدو لكِ من أمر الغاصب يا نوران ، أيوفق لزحزحتنا عما وطدنا فيه لأنفسنا ؟

وما سلمت كلماته من القلق . فإن عمه ليخيف . وكيفما أدار عينيه وقعتا على هذا العم المستفيض الخنق ، المجدول العصب ، وليس يعيا عن صرع بعير هائج . وتراءى له ، وهو يخاطب نوران ، أنه يبصر أبا إسحق بينه وبين ابنة عجيف ، يحاول ان يجنح بها عن إبن اخيه . قالت نوران ، تقصي عنه هواجسه ، وهي تلمّ باسترخائه : أتخيل اليك أن الروم سيخلون له الطريق ، وقد نمي اليهم أن الشقاق يعصف بدولته ؟... سيغتنمونها نهزة سمينة لتضييق المسالك عليه ، وخنقه . وجلّ ما يصبون اليه أن يبصروه في عزلة . لقد خدمناهم فيما نخدم أنفسنا . وسوف تراهم يهادنوننا ، ونحن ننقذهم من الجلف !

ولكن العباس ظل بادي الارتباك . ماذا يكون من المعتصم وقد درى ؟... ونزع إلى التمويه عن نفسه. فقال يتحايل على البسمة: ألا بربك

أصدقيني الخبر ، يا نوران . أصحيح أن عمي رنا فيك الى مجلوّ الحسن ، وحدثته النفس بأن ... بأن يهواك ؟

فشاقها أن تلهو بغيرته . قالت تدغدغ فيه الحنين ، وتزيد في نفرته من عمه ، وفي صلابته في النزال : غفل أبو إسحق عن أمره ، لفرط شغفه بي ، يا عباس . وبات لا يبصر في دولته، على مترامي جنباتها ، غير نوران. وعللني بالمنى الجسام كي أحبس عليه نفسي ، فراوغت ونافقت ، كي أبقى لك . واممت ومانعت . بسمت وعبست . وعدت وأخلفت . حتى لقد سايرته في القضاء عليك، استجابةً لحافز التغرير به . وكلما ثارت فيه شهواته، ومال إلى إرواء أشواقه ، تغفّلته ، وسكنت الى الهرب . فيفتح عينيه ، ولا تقعان عليّ ، فيحرّق الارّم ، ويجري لسانه بدفق من السباب الناقم ، المحموم !

فأوجعت لبه بما قصت عليه . إذن لقد نوى عمه أن يفجعه بالاطيبين ، بالسؤدد، وبالوله . ونبر غضوباً : وهل تجرأ النذل ؟... أيدري بأنك لي ، ولا يتهيّب أن يسلخك مني ؟ ... آه ،لو علمتُ يا نوران !

وزفر عالياً . فاستوضحت إمعاناً في إثارة الغيرة ، وتمادياً في الكره والجفوة : كنت تفعل ماذا لو دريتَ ، يا ابن الاكرمين ؟

فجلجل ، وقد ضاق صدره بحفائظه ، واحمرّ وجهه ، وغلظت عنقه : والله ، كنت أشدخ هامته بنصلة هذا السيف . فالحب الملسوع يقيم من الجبان بطلاً . على أن العباس ، صفيّك، ليس جباناً. الا مـاذا أبقى الوقح من ذمام القربى ؟... أما نال منك بعض مناه ، ففجأك بضمة ، واستطال فاختطف قبلة ؟... ألا صارحيني بأمر المندثر الاباء !

فما تمالكت عن الضحك ، وقد أطربها بلباله . واستقصت : وهب أقدم على البادرة ، فما يكون ، يا عباس ؟

فهدر وقد فارت فيه نخوته : أتستطاعينني ما يكون؟... وهل من نذالة تضارع هذه الخسة الماتكة ؟... إنه لغدرٌ قاصم يحلّ فيه سفك الدم . لا ، لا لومة عليّ وقد قوّضت فيه أريكته، وطمعت في قبض أنفاسه إن يكن تسفل الى هذا الشين !

فهتفت ، وكل ما تشتهي ان تغمد نصلة العباس في صدر عمه ، لتنجو من تقريع المعتصم إياها في التوائها عنه ، وفي سخرها به يوم كانت تحرّضه على الطعان ، وعلى التنكيل بابن أخيه : أسحقه إن يكن الموت عقاب اختلاس قبلة مني . فقد استحل الغاصب الوثوب عليّ، في أحد مجالسنا ، وانتهب قبلة شبعى من خدي ، وكنت أحثه على منازلة الروم. ولما عاتبته تنهد وأبان بلوعة : « ليس على المستهام حرج ، يا نوران . فما أن أبصرك حتى يهفو اليك قلبي ، وينتشي بمرآكِ دمي!». وعزّ عليّ إبلاغك المنكر، ولم يكن الحين بالمؤاتي. فنمت على الجراح الناغرة، كي أفوز بالارب. أما وقد بلغت من الزمن طلبتي ، فلا يضيرني أن أفشو الأسرار ، لتعلم من هو عمك المهيب !

فزمجر وقد تلظت غيرته : له الويل !

وانتضى سيفه كأنه يهمّ بضرب عنق المستهين بالحفاظ . ونتأت عيناه حتى كادتا تثبان من محجريهما قذيفتين محرقتين . على ان المعتصم ليس في قصر الخلد ، وما يزال في عمورية ينزل بالروم النوائب ، ويبيد فيهم شهوة الطماح . فأسر ، وسبى ، ونهب ، وقتل ، ودمر ، وأذلّ

ودخل عُجَيف بن عنبسة على اكفهرار ، وأبصر العبّاس شاهراً سيفه ، عاقداً ناصيته ، فاستفهم بمرارة : هل جاءك النبأ ؟

فجمدت في العباس الغضبة ، واستقصى بوهلة : وأي نبأ يا عجيف؟... هل من رزيئة تجبهنا بسحمتها ؟

فأوضح والد نوران بالتهاب نبرة : درى المعتصم بعودتنا الى بغداد ، وبِعِناداتنا بخلعه ، فعجّل في مهادنة الروم ، وارتدّ الينا بقواته ساعياً لمحقنا. دنت الساعة الفاصلة ، يا أمير المؤمنين !

فزعقت نوران : لنكن على أهبة لتهشيمه قبل بلوغه بغداد . أنصارنا ليسوا على ميعة وهشاشة كي نرهبه ، وفيهم كل ذي نبلة مسنونة لا تطيش !

وبجمج العباس مرتاعاً : وهل صالح الروم وارتدّ الينا، بعدما جعل من القسطنطينية وجهه ؟

فأعلن عجيف : ليس له أن يغزو القسطنطينية والنار تتقد في بيته. فعليه ان يطفىء الضرم المشتعل في الصميم ، قبل ان يلتفت الى السحيق النائي . وانه لعائد يتسخّط ويتوعّد بما تجري به الأنباء الحافلة باليقين !

فصرخ العباس مرعوباً : أتراه مقبلاً يا عجيف؟... ويحك!

فأجاب ابن عنبسة بجهامة سعى لتحرير نفسه منها : لم يكن له محيد عن هذه العودة، يا أمير المؤمنين. ولقد أظهرنا أننا جبابرة ، فلنصن أنفسنا من الهزيمة . ليس لمن انقلبوا على المعتصم بالله أن يكونوا دون المعتصم !

وهتفت نوران: المعركة معركة موت أو حياة، يا أمير المؤمنين. وليس لمن اعتلى أريكة الخلافة أن يكون بعوضة حيال النسر المقحام !

فصرف بأسنانه . وقال في نفسه متذمراً من حرج الساعة : قتلتماني ،

عفا عنكما الله !

وما دعا عليهما بالموت ، وليس يجهل أنهما يبالغان في الجهاد كي يرفعاه الى أعلى ذروة سما اليها الاسلام ، وأن عليه ، وهو الناهد الى السؤدد ، أن يذود عن نفسه ، ممن يغالبه في مهزة الكبر . بل قال وقد استعاد جرأته وحزمه : سنخوضها حمراء ترعف دماً . إن ركناً شيّدناه ، ترخص في الحرص على مناعته الأرواح . أنفخ الحماسة في الصدور ، يا عجيف . دمي وسيفي ورمحي في قهر الغاصب ، غير المتورّع عن نكر ، ولا المتباطىء في عدوان !

١٠

هذه الغيبة الخاطفة ، عن جبهة النزال ، خضخضت روح أبي إسحق . فما انسلّ العباس وعجيفاً ، في الليلة الليلاء ، من المعسكر العربي ، لسعي حميد المرتع . زعما أنهما ينقضّان على حصون الروم يدّ كانها ، فدحض الراهن الجهير زيف الدعوى

وعاد المعتصم يفكر في نوران . ما هجرا الساحة ، إلا ليسلباه من أذاب الجهد في التماس مودتها، وحنانها. وغلبه على نفسه هذا اليقين الخانق ، كأنه الحبل في العنق . وصارح الأفشين بقعوده عن غزو القسطنطينية ، هاتفاً به : ألا ما دعا صاحبيك الى براح المضارب، يا أبا الحسن؟ ... والله، ما أراهما إلا خنجراً في الظهر ، وليسا بحوكان غير السفال . أيكيدان لي، وأنا أبني لمجد قومي ؟ ... ألا خسئا . سيخترطهما سيفي ، قبل أن تستعلي لهما هامة بسلطان. كنت أتحفز لضرب قاعدة الروم في لبها ، فثنياني عنها . لا هنئت لهما مهجة بيوم رفاه. وما ضرّهما لو خلدا إلى المسالمة، ونفيا عنهما ريبة المكايدة ، بنصرتي على العدو التليد ؟ ... اذن لافتتحنا معاقل تخاذل عنها الميامين من أسلافنا ، وكتبنا للأجيال الطالعة صفحة من العز الباقي على الدهر ، تهون حيالها غزوات من جابوا الدنيا على متون النصر الطروح !

فقال الافشين يراوح بين الخشية والبهجة : قد يكون لهما وجيه العذر، يا امير المؤمنين . على أنهما إذا لم يسلما من المفسدة ، فما أقرب أنفاسهما الى الاضمحلال !

فنبر المعتصم بجفوة الموتور : ليسا بريئين من الغدر ، يا أبا الحسن . فما

عادا أدراجهما إلا أرقمين نفاثين، ينهدان الى تقطيع الاوصال. ولكن مهلاً، فما يبرح أبو إسحق ثبت الجنان، واري الزند. فما كلّ سنانه، ولا فُلّت شفرته. لنرجع الى الوكر ننقذه من فحيح الاحناش!

ونزع من خاطره كل جنوح الى التبسط في الغارة. وأقام على غليان جأش وقد أظلم في عينيه الزمن. فهو يتقلى على حامي الشكوك. وهبط حمام الزاجل المضارب يحمل الرسائل الطفحى بنداء الاستغاثة: هلمّ، يا أبا إسحق!

وتلا النداء بيانٌ ودّ المعتصم، وهو يصغي اليه، أن تكون بغداد على مدّة ذراعه كي يطيحها بضربة من فيصله، فيذروها رماداً يحجب اغبراره وجه الفلك. أتخلعه الزوراء وتبايع الكنود إبن أخيه؟ ... يا للباغية!...
وصرخ أبو إسحق برجاله صرخة استطال فيها الزئير: ألا ارتدّوا الى الخائنين. بغداد تمكر بنا. لنمحوّنها محو اليقين للشك، والفجر للظلمة. فالشائنة تأبى إلا أن تجتوح الشائنة. خلعتني، وبايعت إبن المأمون. لا أقامت لها القدرة ركناً أيّد الدعامة يمسك بها عن الانهيار!

ودارت به الارض كأنه في غشيان المشدوه. وتناسى أنه ذلك الظافر في عموريّة، الطاحن الجبروت، التيّاه، المذلّ نواصي الشوس. فما هو غير حانق، مطعون الكبد، مخفور الذمة. وقد كافأت قاعدة العرب فائق مجهوده بتهديمه، مقوّضة به أريكته، وطاوية عنه صفحاً، كأنه المغمور. وضاق هيكله بنقمته. فودّ لو ملك أمد النسور في اقتحام الأبعاد

وأقبل على الروم يصافيهم، وفي بوانيه أحقادٌ تنفجر في شائك أقواله، وشزر لحاظه، وزافر أنفاسه. فهو كتلة تتضرّم ولا تستقر على حال من

السخط والقلق . إن أخيه ذهب بشهوة الفتح المديد

وما انقضت بضعة أيام على اجتياح عمورية ، وقد سقط فيها من الروم ثلاثون الفاً، وامتدت يد السبي إلى ثلاثين الفاً، حتى كان للصلح عهد مبرم . وانفتل المعتصم يجلو عن ديار احتلها بحد السيف ، ليحرر بالسيف بغداد ، قاعدة دولته ، المنقلبة عليه كيداً واضطغاناً ، وما تزال على مظاهرتها لابن المأمون

ولمس أبو إسحق في كل عربي الوجه ازوراراً عنه ، وتقاعداً عن الولاء. ولولا الأتراك لاندثر في موائبة عمورية ، ولوى الروم عنانه . وحنق على نفسه وقد باء بالخذلان في استمالة بني قومه. أفلا يرى فيه العرب ذلك السيد الوقور ، الحقيق بسند الامامة ، المكتوب له أن يرفل في بردة الخلافة ، معتصماً بمنعة الجاه العباسي الركين ؟

ألا ماذا يعيب عليه العرب مما ينبو به عن موئل السؤدد ، وهو إبن الرشيد ، وجده المهدي ، وجد ابيه ابو جعفر المنصور ؟... وإن لم يكن ذلك المتفوّق في بسطة العلم ، فإنه للمتفوّق في رحبة السيف ، وقد خطّ برأس سنانه ، من آيات الابداع ، ما تعجز أقلام العباقرة عن تدوين بعضه في قلائد البيان

وجرّ وراءه الجيوش والغنائم ، جحافل تلو جحافل ، حتى ضاقت القفار بالخلائق المتراصّة فيها ، كأنها في يوم الحشر . وخشي أن يعود القادة الى العصيان ، ومسايرة العباس بن المأمون في المبايعة . فحشد حوله كتائب الأتراك . وعهد الى ايتاخ وأشناس في قمع كل شغب ، والقضاء على كل من تحدثه النفس ببادرة انتقاض

ولم يغفل عن الافشين . فإن له في أبي الحسن ثقة يلحّ في استبقائها ، لولا أن الطمع قد يزيغ بالنفس المطمئنة عن سكينتها . وربما نفر عنه ابن كاوس ، متأثراً عجيفاً ، ومستهدياً بجماح ابن المأمون . فما الأفشين إلا غرسة سقاها أبو العباس ورعاها ، فنمت وأورقت . وليس لمن نهل من الينبوع الرويّ ، أن يجحد اليد البيضاء . فالالتفات الى الأمس الجميل قد يجرف الأفشين ، فينطلق ، على رغمه ، في تيار الدسّاسين المضللين . على أن المعتصم شاء الايمان باخلاص أبي الحسن ، ولن يشيح ، وهو الداهية ، عن ركن وطيد ، ليستظل خيمة مهلهلة ، رخوة الاطناب

وهدد أبو إسحق وما انجابت عنه جهامته . ونادى اليه الأفشين يعجم عوده . أيكون صادق المجسّ ؟... قال وهو يبتسم له ابتسامة تعبة ، ران عليها الأرتياب : هل كنت ترقب هذه المصارمة يجبهنا بها العباس ، يا أبا الحسن؟...والله، ما حسبته في جهل الحمقى، وقحة الشذّاذ . على مَ يقوى فينا ونحن القابضون على غرة المصاولة ، ولنا من رجالنا أصلب درع ، ومن تفوّقنا أمضى نصلة ؟ ... إنه ليهذر ابن أخي، كأن وهج الصواب فيه على انطفاء !

فما استطاع الأفشين الا أن يبتسم ،حرصاً على رضى أبي إسحق. فالفطانة ، والاحتراس، وقد توىمنهما على سمين الذخر، قضيا عليه بالمصانعة، وليس عنها غريب الوجه. ثم هو لا يوالي العباس ضناً بمكانة ابن المأمون، بل سعياً لقلقلة سدة المعتصم . حتى إذا ما تداعى أبو إسحق ، نصب الأفشين نفسه سيداً ، وما للعباس أن يجاوله في مضمار الجد والعزم . قال يوارب دون أن تذيع طلعته سوء دخلته : أحلام صبي مخدوع ، يا أمير المؤمنين ، ترامت له الدعوى

لبّنة المغمز ، فجنح به اليها الغرور . على انه سيوقن انه ضلّ وجهه ، ورماح أبي إسحق لن تصونه من فتكتها . اراه كبا شرّ كبوة . وهو أجدر بالشفقة منه بالبطش الماحي . فما يدري أنه يركب حتفه بمصادمته الصخرة الهازئة بالمعاول ، والاعاصير !

فجلجل المعتصم بالله جلجلة الغيظ المسنون : أأشفق عليه ، يا أبا الحسن؟... والله ، اراك ترتجي له ما يضيق عنه ذرع الحليم . فهل لي أن أرأف بمن نفضني من عنق قومي ، وأطلقني منبوذاً شريداً لا أملك متسعاً لقدم تهدأ فيه رجلي ؟ ... جاوزتَ النصفة ، يا خيذر . ليس ابن أخي الا غرّاً ، غمراً ، كما تقول . ولكن هذا الغرّ الغمر قد يخرج بالدولة العباسية عن محورها ، وهو يقودها في مهب رعونته . والحكمة تقدر علينا أن نصلح فيه أعوجاجه ، لئلا يؤذي . وما نصلح الاعوجاج بسوى القضاء على المشاغب . فالموت للابله السقيم !

– أيلطخ أمير المؤمنين يده بدم ابن أخيه ؟

– نعم ، يا ابن كاوس . فالدمّل لا غنية فيه عن البضع ، وإلا استحكم فساده وألمه . وابن أخي ، وقد استشرى عصيانه ، لا ندحة عن إبادته . وسأعهد اليك في المهمة ، وأنت الندب المرجّى . فاغمد في صدره باترك ، وانقذ منه وضاءة العباسيين !

فهتف مذعوراً : أيقتل خيذر بن كاوس سليل الأكرمين من بني هاشم البررة ؟

وابدى الجزع . إن يمينه لتخونه في الاستطالة على هاشمي . فشزره المعتصم بعين تخرق حدتها العظم ، وتنفذ إلى أعماق النفس تروزها ، وتستجليها .

أي لون هو لون القائد الفارسي ؟... أيكون من أنصار العباس ، فيتفادى من اختلاس أيام العاصي ؟... هذه آزفة التغلّل في مطاوي السريرة . فمن أيّهم هو خيذر بن كاوس؟... وما انفك المعتصم يصوّب اليه العين الفاحصة، الثاقبة . لينكلم المتّقي ، وليكشف عن جبينه . من أي فريق هو ؟...

ودمدم عليه ابو إسحق : أتحاذر الفتك بمشاغب دنيء ، يا خيذر ؟... أنت لا تستأصل هاشمياً في سحقك العباس ، بل تودي بمنافق ، مغتاب ، يتطاول الى ما لا يحقّ له بلوغه ، ولا يبيح له استرخاؤه الهدوء في حرزه . ويبرأ الهاشميون ، الى الله ، من المنافقين ، المغتابين ، المائعين . ومـا يمسك بك عن محقه ، وسنان بن أبي أنس النخعيّ سفك دم الحسين بن علي ، وطاهر ابن الحسين أطاح آخي الأمين ؟... لا تلتفت فيه الى هاشمي، بل الى متمرد متنمّر . هذا ثائر على الحق ، ومن البرّ في الوفاء ، ونشر العبرة ، تأديبه . وعليك أتكل في الحد من أمده . أذهب به ودمه في عنقي !

فقضت الحنكة على الأفشين بالمواءمة ، وإلا استطار شعاعاً هذا الثاوي بين كتفيه . قال يزحزح عن بصيرة أمير المؤمنين لثام الريب : اني لاضنّ بنفسي أن يقال ، في المتوفر على خدمة العباسيين ، انه اجتاح سيداً عباسياً. أما وأمير المؤمنين يريدني على ما يستنكف عنه ضميري ، فإني لاناهض ما أنطوي عليه من حفاظ، واستجيز القضاء على من جمحت به جهالته ، فاوردته موارد الهلكة . سمعاً وطاعة ، يا أمير المؤمنين !

فابتهج المعتصم . اجتثّ في الأفشين عهده لذراري المأمون، وساقه الى اربه مبـذول المقادة ، مأمون الطاعة . قال : إذن عليك به . فاقتله قتلة تتحدث بها بعدنا الأجيال ، وتستزري بطر الخنفساء، النتنة الريح !

فقال الأفشين وما فتىء يتردد في أن يلطخ يده بدم العباس : سأستلّ أنفاسه ، يا أمير المؤمنين . ولكن دون أن أريق دمه . فما يقعد بنا عن طمس أيامه بالعطش ، او بالجوع ؟

فزعق أبو إسحق : أقتله كيفما شئت . على ان تقتله . تنوّعت الأسباب والموت واحدٌ . جلّ ما أشتهي أن أسمعك تبايعني عـلى استلال مهجته ، هلا فعلت ؟

فرفع يمنـاه يستشهد ربه هاتفاً : عليّ يمين الله ، يا أمير المؤمنين ، إني منقذك من المشاكس الرجيم !

ورسخ في خلد المعتصم أنه قبض على زمام الأفشين . فمـا لهذا الميثاق أن تحلّ له عقدة ، وهو المحكم الحبكة . واذا أخلف أبو الحسن بريء من دمه أمير المؤمنين . قال المعتصم بالله : وكلتك به يا خيذر . فانظر ما أنت فاعل ، واحذر الالتواء . فما يخفى عليك ما تكلفك الرجرجة !

فأجاب القائد الفارسي ، ممعنـــاً في اداء الخضوع : ليثق مولاي بخادمه الامين !

وأشرف الجيش العباسي على تخوم الدولة العربية . وهفا إلى أبي اسحق اصفياؤه ، يسردون له أنباء الخلع والمبايعة ، معلنين بنقمة : التدبير تدبير عجيف وابنته نوران ، يا أمير المؤمنين . فلولاهما لم تلتهب الشعلة . نوران جمعت كدسة الحطب ، وأبوها قدح الزناد ، فاضطرمت النار في يابس الهشيم !

فصرخ وفي قلبه وجع ذبّاح : نوران ؟

أهي هي ؟... فاندلعت الالسن بالقول القاصم : هي بعينها . فما عرفنا أدهى ، ولا أروغ . ملاطفتها فحيح ، وقولتها نفث سمّ . فكأنها سليلة الثعابين !

فجمدت فيه كل حركة ، الا خفقان لبه ، وقد توائب فؤاده كأنه في مهب عاصفة هوم . أتكيد له نوران، ولاجلها جاب الوعر ، وتصدى للمنية، واجترح المنكر بسعيه لاغتيال ابن أخيه ؟ ... إذن كانت تخادعه ، وهي تحرضه على العباس. فتوغر صدره على ابن المأمون كي تلطخة بالذلة، وتظهره للعيون زنخ الدخلة ، رثّ الحمية. وهاج بلباله . وتلظت غيرته . سيحصد الرؤوس بلا ونية ، حتى رأس نوران الغَدور

ووقف يصيح في جنده : طيروا الى بغداد، ولتعلم الضلول أننا سنشقّ كبدها ، ولا نبقي منها غير أطلال نواعب . فما للجانح عن العهد أن يستنيم الى دعة ورخاء !

وامتطى جواده يتقدم كتائبه ، المتدفقة كالسيل القَشوش، لا تقف ولا تبقي في طريقها على عقبة ، وقد ذللت الشامخ ، ودكّت الحرون ، وعبّدت الغور ، واشرأبت الى العلياء تبتغيها سناماً . وأحرق سويداءه صدود ابنة عجيف وكيدها . نوران غرّرت به ، وزلزلت فيه مرتع النبل

ولكن ما هذا الحشد في سهول الفرات وأدغالها ؟... ما هذه العصائب الموّارة تموج في بساط الرمل ، وتنتشر فيه على رفيف أجنحة ؟... أقبيلة تهفو الى التهنئة والتأييد ؟... وجاءه من يعالنه بالشادخ الدامغ : عجيف ابن عنبسة ، يا أمير المؤمنين !

فجلجل : عجيف ؟... ويحكم ، هل زحف الى لقائي برهيف سنانه ؟... تباً له من وقح زنيم . لأفضمنّ عظامه . هل تجرأ على مصادمتي الحؤون ؟

قال الرواة : عجيف ووراءه العباس ، ونوران . وقع في روعهم أنك مقبل مرضوض العزمة ، فنفروا الى الاجهاز عليك !

فزادوا في جيشان حنقه ، وهدر : أنا لهم وحدي . ما أجيز لذي نبلة أن يسددها اليهم ، ولي من نبالي ذوات رنين ، لا تخيب . ما كنت أحسب الصرصور ذا إبرة تدمي !

واندفع الى لقاء عجيف ممتطياً جواده السبوح . على أن رجاله عدوا في أثره ، يأبون أن يبيحوه لشفار المناوئين . وعجيف دعا الى مقاتلة المعتصم قبل بلوغه بغداد . فقد يستريح في طريقه الى الزوراء ، ومن الخير مفاجأته وهو ينوء باعباء النزال ، ويكبو في الخطو بعد نفاد العزيمة في قهر الروم

وجمع عجيف قواته ، وقد لملمها من بغداد ، وما حولها من الفلوات ، وأغار بها على الخليفة العائد لركوب الذروة . على أن المعتصم ، ما لقي الشمل الخصيم ، حتى صرخ صرخة مادت لها القلوب رعباً . وهجم ، من ساعته ، على عجيف يختطف رأسه بحد السيف ، فجدله . وأبصرت قوات عجيف قائدها يتشحط بدمه ، فاهتزت وانكفأت تولي الادبار ، كأنها السوائم المخلوعة السرب . وزمجر أبو إسحق يطلق في أثرهم رجاله : ألا ادركوهم وأشبعوهم تقتيلاً باسنتكم ، وبواتركم ، وأظفاركم ، وأنيابكم . دماؤهم حلال لكم . فاسقوا بها الرمال العطاش ، وقد جفتها الديَم !

وكانت مذبحة صاهلة ارتوت بها الصحراء الجافة الحلق ، تنهل من نجيع الهاربين . ووقف المعتصم بجواده يجيل عينيه في المنظر الرهيب ، وفي أساريره استبشار المنتقم الجبّير . قضى على جرثومة الفتنة ، واطعم الأرض لحوم المكابرين . وسرّه أن يدهده جمجمة عجيف عن مستقرها ، وأن ينتقم من نوران بالقضاء على أبيها ، وان يخنق الفتنة في مهدها بسحق رأسها . ولكن بقي العباس ونوران ، ولا محيد عن نحرهما معاً تشفياً ، ودفعاً للشر الكريه ،

وللغيرة العضوض. فأين الوبيثان ينقذانه من شرهه الى الاثئار لأنفته ولجنانه؟

ولحق بجنده الفائر الغيظ ، المستنسر في ضرب الأعناق ، كأنه يغير ، في يوم عرس ، على قطيع من النعاج . وزعق بنبرته الآمرة: هناك وجهٌ آخر قبيح ، علينا بطمسه . وما لدميم أن يستمتع بالوجود !

وهو يريد العباس . والعباس هرع الى النجدة ، في طليعة فيلق جرّار من الفرسان والرجالة ، وقد سقط اليه الصياح والصهيل . ولاحت له المذبحة الضارية يفنى فيها رجاله ، وقد سكنوا الى القهقرى ، كالعبيد الفارين من نقمة سيدهم الغضوب . فانقضّ يحفزهم الى الثبات في المناجزة ، كالصقر الهاوي من سمائه على الفريسة المعاندة في إباحة أمرها للمنسر الكاسر ، الضروس

وأمسك المعتصم عن الاغارة على ابن أخيه ، وقد لاح له العباس في وثبته الجموح. لن يخضب نصله بدمه ، وما في عروق ابن المأمون غير الدم النابض في شرايين أخي المأمون . وبدا بجانب العباس فارسٌ بمضاء الشرر، يشهر سيفه برشاقة مطبوعة ، ويدفع جواده على مداه

وتجلت في الفارس الاناقة ، وقد التفّ بعباءة من الحرير ، وعقد على ناصيته العقال المطرّز بالقصب، وكوفية الخز البيضاء ذات الخشيش . وساءل المعتصم نفسه : من الفارس المقدام ؟

وأخفت الكوفية وجه المغير الصدوق الهمة . فما ظهر منه سوى عينيه . وخفق قلب المعتصم . أتكون نوران هذه المتحمسة ، الهاجمة على المتفانين هجمة النمر الصؤول ؟... وأيقن أنها هي ، فارتعش وأصابه سهو المشدوه . وهاله أن يلطخ سيفه بدم عزيز ، فيصمي من لا يزال يتقد فيه اليها حنين . حسبه أن يكون فتك بعجيف أبيها

ومع شديد نقمته عليها ، وعلى ابن أخيه ، ومع رغبته الحاسمة في البطش بالاثنين معاً ، لغدرهما به ، وعبثهما الصافع بذمته ، تراجع عنهما متعبساً ، دامي الروح . ليس يطيق أن يضرب ، ولا ان يرى . إن نوران لتهوى العباس، لا المعتصم . وإغارتها بجانب ابن المأمون، على كتائب أبي إسحق ، تدل على استمساكها بالعباس ، دون عمه

وتصاعدت من صدر المعتصم الزفرات الحرار . فهو مفجوع بحبه اليتيم، العنيف. وتوارى على إغضاء وحسرة. فتناسى أنه في معركة، مشبوبة الأوار، ليلتفت الى قلبه المرضوض . هشّمت فيه نوران جلالة الهوى النبيل

وضاع عن نفسه. فما يدري أين هو ، ولا ما سوف يقع . فإذا ما انهزم رجاله فلن يبادر الى الاستنقاذ، وقد أخذ يحس بكون يمينه تنوء بعبء سيفه، ولا تجيد الطعن كأنه الاقطع .فأين الافشين ؟

وعلا في كتائبه الزئير . فتصامّ عنه، وقد ساوره شحوب نمّ على كاوي الالم . وهفا اليه الأفشين حائراً، هاتفاً : روحي فدى أمير المؤمنين، الى مَ يدعوني مولاي الكميل ؟

فغمغم وفؤاده يقضقض التياعاً : هما يصطليان بنار الواقعة يا أبا الحسن، فانطلق اليهما برجالنا وأحسن التدبير !

فاستوضح الأفشين : ومن هما ؟ ... العباس وعجيف ؟ ... ولكنك قطعت رأس ابن عنبسة يا أمير المؤمنين !

فأبان بصوت يكاد يتلاشى : العباس ، وابنة عجيف . فانظر ما يحملك عليه فيهما الرأي الجميل !

ففطن الأفشين الى المبتغى، ولم يفطن . أيقتلهما معاً، ويذهب بنوران

فيما يطيح العباس ؟... ولكن لأمير المؤمنين أرباً في ابنة عجيف . فاذا أباح القضاء عليها ، فقد يندم وينتقم من الأفشين المتجرىء على محو من يهواها المعتصم بالله

وما زال أبو الحسن ، خيذر بن كاوس ، يترجح على حيرة . غير أن تردده لم يطل ، وليس له أن يبدو على التباك حيال رغبة مولاه . فاعلن : سأداويهما بما يرضى عنه أمير المؤمنين !

وحثّ اليهما الخطو ، على رأس جيشه ، يصادمهما ، وقد اعتلى جواده الأدهم . وأخفى وجهه بمسدول كوفيته ، لئلا يعرفاه . وحاذر أن يسدد اليهما سهامه ، وقد أبى أن يصرعهما . فسيحملهما الى أبي إسحق والحياة فيهما على دفق ودفء . ولكن تبعتهما على صاحب الأمر الصريم

وشهر سيفه في وثوبه عليهما . وعرفته نوران ، فهتفت به : إيه ، أبا الحسن ، ما وراءك ؟

فلم يجب ، بل مضى في المصاولة والعباس ونوران يتقيانه بزوغانهما عنه مدهوشين ، لا يكادان يصدقان ما يلوح لهما منه . هل انقلب عليهما ؟... واستوضحت نوران بجزع : ألا تكون منا ، يا أبا الحسن ؟

فأجاب بصوته العريض : أنا لأمير المؤمنين !

وما أبان لأي أمير مؤمنين . فهو للظافر من الاثنين . أما والغلبة بجانب المعتصم ، فهو للمعتصم ، حتى يميل لواء النصر الى الجانب الآخر . فيكون عند ذاك للعباس ، بل لنفسه . وليس يرى خيراً منه في ركوب السدة ، بعد أبي إسحق . فصرخت به نوران : لأي أمير مؤمنين ؟... ويحك ، يا خيذر !

فظل ممسكاً بالصمت . وأغار على العباس بضربة من حسامه ، فحطم له نصلته . وامتدت اليه يسراه ، فتناوله عن صهوة جواده ، واقتلعه عن السرج ، كما يقتلع شعرة من أنفه . فزعقت نوران : لك الويل ! ... أتغدر بنا ؟

فلم يلتفت اليها ، وقد أخذ في شدّ وثاق العباس . فزأرت تستحثّ طغمتها على العون : تداركوا خليفتكم العباس ، يا موالي ابن المأمون !

وهجمت على الافشين تشدخ رأسه بشفرة مهندها . فتباعد أبو الحسن عن مهوى الضربة ، وصاح بمن حوله : إقصوها عنا !

ورمى الى تشريدها لئلا يتلطخ بدمها ، فيُحفظ عليه الخليفة ، ويطيحه المعتصم . واشتاق في ضميره حذفها كيلا تبوح بسره ، فتفضحه ، وهو في من كادوا لأبي إسحق ، وجنحوا الى خلعه ونسفه . على انه اختار ما تسعفه فيه النهزة . وان يكن لا بد من حذف فلن يتماسك الافشين عن الغائلة ، فيصبغ باتره بدم ذات الرواء الكميل

ولم يقوَ رجال العباس على الحركة ، وقد طوّقتهم كتائب الافشين ، وأباحتهم للشفار والنبال . فسقط معظمهم قتيلاً ، أو جريحاً ، أو أسيراً ، أو تقهقر مهزوماً . ومن خطر له منهم أن يهبّ لنجدة ابن المأمون ، لقي في طريقه أسواراً مكتنزة من جند المعتصم، تسدّ عليه المنافذ الى النصرة ، وتتوعده بالقضاء عليه إن هو سعى لخطوة الاغاثة

وفسح جند المعتصم بالله لنوران إلى الفرار ، إجابة لمطلب الافشين . لترحل على بركة الرحمن سليمة من العطب ، ولتحذر العودة الى ابي اسحق ، والبقاء في ظلال الراية العربية . فان لها من افياء الروم خير منتجع . وان لم يكن الروم فليكن الهنود، او الترك، او الابالسة . فالمنشود ان تنأى عن

وسعة العرب . بيد ان نوران أبت ان تلتوي عن مكانها . فهي بقرب العباس تروم ان تفديه بنفسها ، ان تجود بدمها كله ، قبل ان يصاب من أخلصت له بخدش . ونهد الأفشين الى النجاة من شرها ، وظلها يحرجه ، فصاح بجنوده : إحملوها إلى امير المؤمنين !

وهو يعلم أنها لا تحتمل هذه القاصمة ، ولأمير المؤمنين فيها شهوة ملحاح ، وله عليها ثأر غليظ . فاذا لم يسفك دمها ، فلن يتقاعد عن انتهاك حرمتها . وانها لتؤثر الف مرة الفرار على الوقوع بين يدي الخليفة المسنون الناب . وما أخطأ حدس الأفشين. فما وقعت صيحته، في مسمع نوران، حتى لكزت إبنة عجيف جوادها ، تجدّ في الهرب السحيق

غير أنها أحست بضياع الامل . فتلاشت فيها الأماني على جسامتها ونضارتها . وأيقنت بأن القضاء أذوى كل رجاوة ، وبدد مذخور السعي . فلم يبقَ من سبيل الى الاستبشار بالغد الجهم

وطوى بها جوادها الفلوات على متنائي الوثبة. وبدت لها ادغال الفرات ، فجمعت أمرها على الاختباء بين جذوع الاشجار ، وفجوات الصخور . وأطلقت نظرة الى الوراء فلم تبصر أحداً يطاردها . فهي وحدها تمور في منبسط الرمل ، وقد أجدبت المفازة من خيال يتمايل فى أرجائها. وأدهشها أن يبيح لها جنود المعتصم أمرها ، كأنهم لا يبالون خطرها . ألا ينتوون أسرها ، وسوقها إلى سيدهم المقيم منها على لظى الشوق ، ولذعة النقمة ؟

وتبطنت الادغال . ولكن ماذا لها في الموحش القفر؟... وتبيّنت بعين رمداء انهيار المجهود السمين ، وقد كلفها كدّ الروح ، وبذل الوسع . ولم تطق البقاء في العزلة الآمنة ، والعباس يثوى بالأسر . وربما اغتاله الموت ،

ولن ينجو من غضبة أبي إسحق ، المشتعل السخيمة، فعادت تقتحم المنايا . إن لم تظفر باريكة الخلافة ، فعليها إنقاذ من تحب من أشداق الهلكة. وليس لها أن تسلم ويهلك ابن المأمون

ونشرت ما طوت من بساط الرمال الغُبر . وتمثلت الفاجعة الرهيبة ، فأزمعت انتشال العباس من مخلب عمه ، والعياذ بعطف الروم . فلا بد أن يظاهروها على الغاصب العنيد ، وما ينفكون يتضرمون كرهاً له ، وحقداً عليه

والمعتصم، وقد درى بوقوع العباس في قبضة الأفشين ، وبفرار نوران، جنح عن مرأى إبن أخيه . فلن يجود عليه بنظرة ، ولا بكلمة ، إمعاناً في الزراية . وقد يلين وهو يبصره بين يديه على هوان ، فيعفو عنه رعاية لذكرى المأمون . على حين لا ينهد إلى هذا العفو الوخيم المغبة ، وله في العباس أشأم منافس في قلبه ، وفي عرشه . وما طمع في سوى ملء عينيه من نوران . فأين هي ، وما ينفك يحجبها عنه الزمن بصفيق الستر ؟

وانتابته الغصة الواخزة ، لما بدا في حضرته الأفشين، يسرد له ما أسفرت عنه المعركة. قال يتحرّق : أهكذا تزلق من أيمانكم نوران، يا أبا الحسن؟... والله ، ما ابتغيت سواها ، وهي روح الشغب . فكلما ظلت بنجوة من القفص لن ننعم بالهناءة . وما العباس ابن اخي سوى ظلها ، بل مطيتها . تلمزه بالمهماز ، فيجري في وجهها غير مدرك أنى تدفعه . لا أشتاق مرأى هذا الطائش المسترخي، يا أبا الحسن. فأطرحه حيث تفيض أنفاسه النتنة ، ولا تعد فتحدثني عنه بسوى نعيه الحيّ !

وأشاح عن الأفشين . فتوارى ابن كاوس وقد اعتزم أن يميت العباس

عطشاً ، وأن يدفن معه سره الماحي . فيجبسه في سجن لا مـاء فيه ، حتى ولا نداوة . ويمنع عنه بلّ ريقه بقطرة ، ورؤية عمه المعتصم ، لئلا يبوح بالدفين. ومن الجداء أن يتلاشى من فرط الظمأ وخفاياه مطوية بين ضلوعه. وليس للاثنين أن يروّجوا أن سيف عمـه ولغ في دمه ، ولا أن يزعموا أن الأفشين اخترمه . فما خطف روحه سوى محرق الصدى

وتأوه المعتصم . فلم يخض الأهوال على متلاطم عبابها لسوى الارتواء من مواهة ابنة عجيف . فأنى تفلت منه وقد جازف لأجلها بدعائم دولة وارفة المتسع ؟... وشعر بلوعة نغصت عليه سكرة الظفر . فهو ثملٌ بالاكتئاب، لا بالجذل . وعاد ينادي الأفشين صارخاً به : جدّوا في البحث عن نوران، واحملوها اليّ عـلى رمق . فليس لأفعى أن تفلت من الجحر ، وعلينا أن نستأصل كل من يأوي اليه من أصحاب النفاثات الموبؤة . إن رشاشاً من السم ، تطلقه ذات فحيح ، ليمحق أمة كاملة !

فبلع الأفشين ريقه. هذه الدعوة الى البحث عن نوران لا توائمه ، وقد تذيع إبنة عجيف كل ما تدخر من سر . وليس في ما تبطن من الخفايا ما تطمئن اليه نفس خيذر بن كاوس ، وهو ممن يماكرون المعتصم ، ويحرضون عليه . إلا أنها رغبة أمير المؤمنين، وليس له عن المعاهدة على إنجازها مناص . قال : الأمر أمر مولاي . سنمعن في مطاردتها حتى تقع بين أيدينا !

غير أنه ما صبا إلى القبض على ابنة عجيف ، وهي ذات نفس . فلن يحملها إلى المعتصم غير رمة بالية . وانطلق إلى جنوده يحثهم على التنقيب . ويميل بهم الى الايذاء. فاذا ما أبصروها فليكدحوا في مجاولتها. ومن الخير أن يضيّقوا عليها المدى، فلا تظل طليقة الجناحين. وأقام المعتصم على بحران

زعزع فيه رغادة الانس ، كأن هذا الظفر الشامخ لا تزهو له ناصية ، ولا يتألق له عز ، وقد عدم نوران

واعتزم أبو إسحق الاسراع في دخول بغداد ، قبل أن تصلب في المناوأة. فيمعن في خضد شوكتها ، وفي قهر دعاة الفتنة فيهـا. ويلوي فوراً جماح الاستنسار العارم،لا يأذن له في النماء. فاذا ثارت الزوراء على أخيه المأمون، وأيدت عمه ابرهيم دون أن تلقى في أبي العباس مؤدباً قاسياً ، فلن تكون حال المعتصم إزاءها مخضّبة بسماح أخيه ، وسيقمع فيها كل مجانبة ، ويفري كل نشوز

وآله أن يمضي في زحفه ، ونوران بعيدة عنه . فما يرى بجانبه سوى ريحانة، إبنة عمه، وهو منقذها من أسر الروم . ولكن هل تصبو نوران إلى الثواء بقربه، وقد بطش بأبيها ؟... أتكون لمن سقى الأرض دم عُجَيْف، وأسر العباس ، ويوشك ان يجهز عليه ؟

واستبعد المعتصم وقوع المعجزة. نوران انسلّت منه الى الأبد ، وليس له أن يرتجي عودتها ، ولا أن يطمع في حنانها. ورجحت، في ظنه ، خسارته إياهـا ، كسرة الروم اعدائه . وعضّ شفته السفلى يدميها . وضغط اعصابه ، مستجمعاً قبضتيه، كأنه يحاول الانقضاض على القدر اللئيم. فما أهاب بعجيف إلى منافرته ، فساقه الى قتله؟

وانتظر اياماً ثلاثة للاهتداء الى نوران . فضلّت عنها العيون . على أن الأفشين لم يجهل مقرها . إلا أنه تحامى الارشاد اليه ، لئلا تفضحه إبنة عجيف. وكلما سأله عنها ابو إسحق أنكر معرفته مخابئها . قال يبدي اللهفة والحيرة: جميع الأرصاد يعودون على كلال من الفحص عن مثواها، يا أمير المؤمنين.

ما أراها في سوى بغداد ، وقد سبقتنا اليها تضرم الفتنة !

فزمجر ابو إسحق، وقد زاد النبأ في لذعة الصميم ، وفي اضطراب النهية: أتكون في بغداد ، يا ابن كاوس ، تستعديها عليّ ؟ ... إذن لنشمّر إلى الزوراء ، ولكن الغضبة حمراء كعين الشمس المحرقة . ما بغداد سوى جهنم النار، وهي بؤرة الفتن. عاهدت على إذلال شموخها ، ومداواة كيدها بتقويض معالمها ، ولن أتوانى عن سحق دلالها الكفور !

ووكل الى الأفشين أمر العباس . قال : إبق حارساً على ابن المأمون ، ولا تلحق بي إلا وقد أزجيته إلى رمسه . وعليّ تحطيم التيه الانكد ، في بغداد المسترسلة الى النزق المحموم !

وما برح يتمثل نوران ، ويزمع ملاينتها ورفعها اليه . فلا بد أن تنسى أباها ، وخطيبها ، والخليفة يعفو عن زلتها ، ويسبغ عليها النعمة. وسيقيمها سيدة قصره ، وشريكته في سلطانه . هؤلاء النساء تشغلهن في يقينه الفخفخة عن الحقد . فيتعامين عن الاذى وقد رتعن في الجاه والأبهة

وانسابت جيوشه الى بغداد تبتغي إطفاء شعلتها ، واستلال نوران من أعماق السراديب ، إن تكن لاذت بها . غير أنه ما كاد يغيب عن منبج ، وقد استقر العباس بن المأمون بزاوية كئيبة ، مظلمة ، من حصنها القاتم ، حتى بدت نوران تهفو إلى الأفشين وقد جلت عنه بطانته ، وقرّ في مثواه وحيداً كأنه حبيس الصومعة ، هاتفة به : هات الوديعة ، يا خيذر . فما العباس غير أمانة لديك ، يفرض عليك العهد الموطد بيننا أن تردّها الى أصحابها !

وما بدت في زيّ إمرأة ، بل في بزّة الفرسان . فبهت الافشين . هل درت نوران بمكان العباس ؟ ... ألا ما أعظم الحب من قائد جريء ،

ودليل بصير . وابتسم « خيذر » ابتسامته الهادئة ، الخبيثة . وقال بمفرط اللين : أتلعبين بدمي ، يا نوران ؟... ألا ماذا يكون من المعتصم وقد علم أني أطلقت أسيره ؟ ... إنه ليحتزّ عنقي ، ويطرحني للغربان . ولست بمن يرتضي هذا المصير الفاشل ، يا ابنة عجيف . فصونيني من المجازفة !

فصاحت : إذن أنت تميل الى الفتك بـه ، تأييداً للغاشم . لا والله ، يا أبا الحسن ، لن نجاريك حتى هذا الامد . إذا أنت لم تطلق العباس ، وتمنع عنه الاذى ، فلن تطول أيامك . أذكر أنك من حزمتنا . ممن ناوأوا المعتصم وحرضوا عليه . ولن ندفع عنك الملمة إذا لم تدفعها عنا . فكن فطناً ، ولا تتردد في الاختيار . إما الافراج عن العباس ، وإما التضحية بمهجتك فيما تضحي به !

فارتعد . انه ليخاف من سعة حيلة نوران . فإذا هددت فلن تكتفي بالقول الهازل . وارتأى أن يخنق فيها الصوت بطمس روحها . فلن تكلفه غير طعنة صادقة المرمى . قال ، وما زال يبتسم ، متماسكاً على الوعيد : لن تبلغ بنا الضغينة هذا المدى ، يا نوران . جلّ ما أدعوك اليه أن تدركي أني عبد هذا السيد الطاغية ، المقتعد الذروة ، وإني اذا فسحت للعباس ، إلى الهرب ، فساحلّ محله في الاسر . بل سيلتهمني الردى . فهل يشوقك أن تقضي على الافشين ؟

فأعلنت بمضاء : يشوقني أن نعيش جميعاً . فما عليك وأنت تنقذ العباس من بليته ، وتفرّ وايانا الى بلاد فارس ، فنعتصم بجبال البذّ ، على مثال بابك الخرّمي ، وقد جاوز رسوخه في تلك الاوكار عشرين سنة حافلة بالمنعة والخيلاء ؟

فما ابدى الارتياع ، ولا تحرّج من استحسان الرغبة . قال : إنك

لذاتُ خاطر رهيف ، ينضح بالدهاء ، يا نوران . لا علينا اذا حققنا الشهوة بالمناداة بالعصيان ، ونأينا الى هاتيك المعـــاقل . اني لمن هـذا الرأي ، يا ذات القسامة والفطانة . سنثور على المعتصم . الموت لأبي إسحق !

فاضاء البشر محياها . ما يزال في قرارة الليالي علالة من أمل . بيد أن الافشين ، وقد تبين فيها الغفلة ، وهي تصغي الى مكذوب الوعـد ، أجال عينه في ما حوله فتراءى له أنه وإياها على خلوة . وطابت له السانحة كأن الزمن يؤاتيه ، فاخترط سيفه بومضة الشرر ، وسدد نصلته الى هذه الرائعة ، الراعبة ، يروم ان يخترق قلبها . فمالت عنه بوثبة الغريزة المرتاعة ، فأصاب خاصرتها وهو يدمدم عليها: أتغرينني بدم أمير المؤمنين ، يا ابنة الشنار ؟... والله ، لاقبضن روحك جزاء ما يجلجل فيك من كافر الاستطالة !

فهالتها المباغتة ، ولاذت بفيصلها ترد عنها وطأة الغائلة . والتقت النصلتان يتطاير من احتكاكهما العنيف مستفيض الشرر . وتمادى في نوران الجريح الاعوال المتظلم ، الفاضح : خائن ، خائن . أنت نسجت شبكة الغدر للايقاع بالخليفة الهمام . أنت هو الماكر الوغد . سوف ترى ما يصيبك من غضبـة المعتصم . إني لمنطلقة الى أبي إسحق أحدثه عن نذالتك . سيطلع الخليفة على سريرة قائده المجبول بالشين . أتغدر بي ، وأنت تعدّ نفسك بطلاً ؟

وسمع نفر من الحراس الاعوال والصياح ، فوثبوا عفـواً لمشاهدة ما يقع . وابصروا فارساً ينازل الافشين ، مع أن صوته صوت إمرأة . ومـا لبثوا ان عرفوا المناجز . فهو نوران بنت عجيف . وبدت لهم تختلج في ألمها ، وقد اصابتها النصلة بجرح غليظ يفور دماً . إلا أنها ما انفكت تـذود عن نفسها بقوة خارقة تأبى الموت . وصرخت بالجند ، وقد لاحوا لها ، تستعديهم

على بلواها : إشهدوا بما ترون من قائدكم النبيل في امرأة ضعيفة . إشهدوا بطولة الكميّ الجبّار ، وقد استجاز لنفسه نحر النساء !

وخشيت أن يصيبها بطعنة أخرى ، فيطويها لقمة سهلة في مبلع المنية ، فسقطت الى الارض لا حراك بها . وانتابها الاغماء بسقطتها ، وقد خارت عزيمتها . فشخص للناظرين اليها انها جادت بانفاسها . وخلع كبد الأفشين أن يتصل بالمعتصم أنه استباح حياتها ، فأغمد نصلته على عجل في القراب ، وهتف بهؤلاء المتحلّقين عليه على ذهول ، وقد هزّه مرآهم : جاءت تحرضني على الخليفة ، فأرقت دمها . إحملوها إلى ضفاف الفرات . واطرحوها في الماء فتغرق ، ويجرفها التيار الى حيث لا تبصرها عين . عجّلوا . كل ما تفوّهت به يشيع فيه الافتراء . وليس لمن يتجرأ فيغريني بالمعتصم أن ينعم لثانية واحدة بالحياة !

فاطاعوا . وهفوا بها الى الضفاف . على أنهم شعروا في الطريق بأنها تتحرك وتتنفس . هل صرعت الموت ؟ ... وهالهم أن تعود الى النور وتعرفهم ، فتشكوهم الى الخليفة ، وهي لديه على منيف حظوة ، فتتطاير أرواحهم كالاوراق الذابلة في مهب الريح الرعناء . وأهووا بها عنهم على ارتعاد . ولجّوا في الهرب يروون للافشين أنهم صدعوا بالامر ، وألقوها في التيار تغيب في لججه . فاستوضح ابو الحسن ، وما كان دونهم ارتعاداً : هل لاحت لكم تغوص في الماء ؟

فأجابوا : باتت في جوف المسيل ، أيها المولى المطاع !

فانطوى لهم على خاتل الضغن . ما قادهم اليه في المدحة الفاصلة ، واذا سلم من شر نوران ، فلن يأمن ثرثرة من غيّبوها في الكفن المورّار؟... ووكل بهم

من يزهق في الليل أرواحهم . فليس لهم أن يعلن ما كان منه في ابنة عجيف. فان مقتل نوران لجريمة منكرة، في عرف أبي إسحق، لن يغتفرها لمرتكبها، وهي تفوق في جسامتها انهيار إمارة، وغؤور نعمة، وغنم معركة. ولن يدري المعتصم بما كان من الأفشين فيها، وقد محا أبو الحسن كل لائحة من شبهة . فما نوران، لدى المعتصم، سوى غذاء روح، وبهجة جنان. وهيهات ان يكتمل المجد الاثيل، إذا خلا من ملهمة المتعة، وواهبة الانشراح !

١١

تحاملت نوران على نفسها ، وقد عادت اليها خفقة الجأش ، بعد طارىء الغيبوبة . فنهدت الى الضفاف الآمنة بما ينغش فيها من واهي الوسع ، وغسلت جرحها ، وضمدته بثوبها . وزحفت تبحث في الشطوط عن زورق يبلغ بها الجانب الآخر من الفرات

لم تمت في مصادمة الافشين ، إلا انها تظاهرت بالموت كي تتقيه ، وتنشط في ما يبيح لها الانتقام من أبي الحسن المراوغ ، الخافر الذمة . ساعد على فتل حبل الدسائس ، وما تهيّب عن ادعاء الولاء . إلا انه ولاء زائف ، وستفضحه نوران ، وتذهب بحياة المحتال

ولمحت في صدر الماء قارباً يدفعه صياد في المجرى الساكن . فرفعت يدها تلوّح بمنديلها أن تعال . وأبصرها الصياد ، فلم يرَ أن يتنكب عن المروءة المتظلمة . وهفا الى المستجيرة به يدفع عنها شدتها . قالت بصوت عيّ ، وقد اقترب منها الملاّح : خذني الى الضفة الاخرى . وجهي بغداد !

فاقلقه كل ما فيها . فهي امرأة ، وترتدي ثياب الفرسان . وتلطخت بالدم . وساد الذعر سحنتها . فوثب اليها يقول بطاغي اللهفة : ألا من أساء اليك ؟ ... أي كافر ؟ ... أي لص ؟ ... من المعتدي الرجيم ؟

ووقف حيالها وقفة المرعوب المفتون . ففي مظهرها ما يشير الى كونها ضحية عدوان صارخ . وفي طلعتها حسن يفرض الخشوع . وخطر له أنها طعمة غرام خائب . قالت وقد تجلى لها فيه الاضطراب حيال مرآها البهيج ، الاليم : إحملني الى قاربك ، وسأقص عليك حكايتي . لا تبقني في فوهة المكروه !

فامتثل ورفعها بين يديه الى الزورق المتهادي على سطح الماء، وهو يحس بانها مظلومة بائسة . وقبض على المجذافين وقد أودعها القارب . وشق بها كبد النهر . فتنفست مرتاحة وقد آمنت بانها نأت عن الخطر . واستنبأت : من لي بان يقودني إلى بغداد ؟

وانتزعت من عقدها ديناراً يتدلى منه بين وفرة من الدنانير . ونفحت به الصياد وهي تقول: لمن يسير بي الى بغداد هذا العقد بكامله . فمن ينطلق بي في دروبها ؟

فهتف الصياد ، وقد شغلته محاسنها عن الدينار والعقد على وهجهما : ولكن من أنتِ ؟ ... من أنتِ ؟

فما بخلت عليه باسمها . قالت بألم وانكسار : أنا نوران !

فوقع عليه الاسم وقوع فيّاض النور على السادر في الظلام ، وقد فتح له فمه ، واتسعت به عيناه . وأطال النظر اليها وهي المسبوكة من ضياء ، وما يكاد يصدق أنها ذات الشهرة الصاهلة . وأنى لمثلها ان تتيه في هاتيك القفار ؟ ... وصرخ من بهرة احشائه صرخة المبهوت ، المرتاب : أأنت نوران ؟

ولم يزد . كأن الاسم يزري بالتعريف ، وهو يملأ دنيا العرب عطراً ولألاء . فما نوران سوى ابنة عجيف، وخطيبة العباس، وحبيبة المعتصم . وليس في دولة العباسيين من يجهل الاسم الساطع ، كاللهبة المتعالية الضرم . فالقوم ، على بكرة ابيهم ، يروون حكايات هذه السالبة قلبين نبيلين ، والمعتلية سدة الروعة . فهي في ظنهم جميعاً مصدر العداء بين العم وابن اخيه، كأن الخلافة، على متوهج آلائها ، باتت دون هذه الرائعة في أسنى بهاء

وقد يكون الصياد يعرف عنها اكثر مما تعرف عن نفسها، وهي السابحة في جو من الأساطير . فذاع عنها في القوم أنها ساحرة العباسيين ، وربة الدولة ، وأن لا كلمة للمعتصم حيال مشيئتها القهّارة ، وأن في عينيها الفتنة والامر، وليس لمن يقفون بين يديها غير الامتثال، بانحناءة الصاغر المستكين. وأجابت فيما الصياد يستوضحها : « أأنت نوران ؟ » : إني هي . إنطلق بي الى بغداد ، ولك العقد الثمين !

فهتف ، وقد خنق في نفسه صولة الجشع المادرة : إبقي لك العقد . سأحملك اليها بلا مقابل . وجلّ ما يغريني، بهذا الجهد الحرّ، ان ابذل من نفسي ما أنال به رضى فاتنة دولة العرب عني . والله، ما رأيت لك مثالاً في الانس والجن !

وأشار الى كوخ في الادغال ، كأنه كهف انفرجت عنه هاتيك الصخور، وقال : هذا هو منزلي . ولي فيه زوجة ، واطفال ، وبعير . ونحن نعيش من الصيد ، ومن الرحلات . فصبراً ريثما أنطلق الى امرأتي وأولادي ، وأرجع اليك ببعير في قوائمه اجنحة النسور !

غير أنها التفتت الى نفسها، وأحست بالعياء عن القيام ، في القيظ اللاذع، بالرحلة الى بغداد . ولن يهب لها جرحها القدرة على بلوغ سر من رأى ، ونشر مخازي الافشين فيها . والتمست أن تستريح في كوخ الصياد ريثما تملك بعض الهمة. على أن هذه الاستراحة قد تذهب بحياة العباس بن المأمون، فيمعن في كعمه الأفشين ، ويطويه

وما زالت ترتجي إنقاذ العباس من الويل المتوعد . ولاجل العباس جازفت بأيامها . وخاطبت الصياد من رمق يكاد يفيض : أسرع بالسبوح ،

وهذه الحلية لامرأتك جزاء سعيك الحميد !

فامتنع حتى من الالتفات الى العقد ، مع أن نوران نزعته من جيدها وامتدت به يدها الى المنقذ الابيّ . قالت تناشده الله ألا يرّد لها شهوتها : خذه ، بحق السماء !

فظل يمانع . فنبرت نوران ، والانين يطفو على قولتها : رفقاً بجرحي. لا تزد في لوعتي وألمي . اليك بالعقد، وليس من شيمة الكريم أن يرفض الهدية ، مهما تفه قدرها !

فخجل من نفسه إزاء الالحاح الصبّاح . وتناول العقد الوزين ، وقد أحس به في قبضته ثقيلاً . وعرّج على كوخه المستظل الشجر الرؤوم . ولم يكن بالكوخ الاوحد في هاتيك الاصقاع، وقد ازدحمت طفوف الفرات ، في تلك النواحي القريبة من منبج ، بوفر من بيوت الطين ، تناثرت في جوانب النهر كالنجوم

وما لبث أن أطل بالعبير، يسلك به جسراً قديماً، بناه الأشوريون للجمع بين الضفتين في طريقهم الى شواطىء البحر الابيض. ورفع على السنام شبه خيمة ، كالهودج ، لوقاية نوران الجريح لهبة الهجير . وأناخ بعيره . وساعد إبنة عجيف على اقتعاد مسند وثير، هو كل ما يحوي كوخه من متاع رفيه. ولحق به اولاده وزوجته لرؤية نوران،الفاتنة المعطاء. ووجموا وهم يبصرونها في وهنها ، وفي اصفرارها . ودنت منها الزوجة تحييها بلهفة ، وخشوع . أهذه هي ربة الحسن المنيف في دولة العباسيين ؟

وشكرت لها دفاق جودها ، وهي تتألم لألمها ، وتدعو لها بوشيك البرء. ووثب البعير بنوران، لا يعدو ضفاف النهر، حذر العطش، والتماساً لنوافح

النسيم ، وليس للقيظ أن يشفع في الجرح الثخين .وأبت نوران أن تموت قبل مرأى المعتصم. فجاهدت في احتمال أوجاعها ، وفي التغلب على الفناء الناهش ، الحديد الظفر والناب . ولم يغب عن الصياد ، وقد بات سائق أظعان ، أن يحمل في جرابه الزاد ، وأن يصبّ في حقّ بعض ما لديه من البلسم المحيي، ليسكبه على جرح نوران . وتوالت الليالي ، وهو يحرس إبنة عجيف بعين يقظى ، وبضمير أمين . فلن يبيحها للهلكة ، وهي درة في تاج الحسن ، ودعامة من دعائم السلطان في دولة بني العباس

وشعرت نوران بما يسخو به عليها الصياد من عنايته ، فغبطته على سلامة روحه، ونصاعة ولائه. وسألته عن إسمه، فاجاب بابتسامة الحيّ الطروب : حارس بن يقظان ، يا مولاتي !

فتفاءلت بالاسم . إذن ستبلغ الوطر ما دام الحارس اليقظان مفتوح العين عليها ، ولن تقضي نحبها في الطريق . على أنها يئست من البقاء . فلن يتفق لها أن تعود فترى العباس والمنية ترصدها . فإن لم تمت في سبيلها الى سرّ من رأى ، فسوف تموت في سر من رأى نفسها . وازدرت الموت ، وكل أمل بالرخاء اضمحل ، بل ازدرت الحياة ، والرجاوة افلتت منها . فالمجهود باء بالخذلان بعد مقتل أبيها ، والقبض على العباس حبيبها

ومال بها الى الرسوخ في اليقين بدنو ساعتها ، ما اخذت تشعر به من استرخاء عزماتها . فما استنزفت من دمها نصلة الأفشين ، قضى عليها بارتقاب أجلها الخبيث . ولا تكاد تستسلم إلى مشيئة القدر العاتي، حتى تثور ، وتدمدم على هذا الجائر القاهر . ما كان يضيق به لو فسح إلى حلو المنى ، وليس لكفة ترجح ، ولكفة تشيل، من الاثر في نظام هذا الكون الوعر ، ما يقف

به عن الدوران ؟

وتوفر نوران وتنوح . ويعلو أنينها فيسمع السائق الصياد ، ويلتاع . لم يكن يعلم أن نوران ذات البهاء ، والضلاعة ، تنتحب وتتفجع كالمناكيد . فهل للدمعة أن تجول في عيون تموج بالسحر ، وتتفجر من شفاه تشيع فيها جواذب الاستهواء ؟... إذن ليس هؤلاء الرابعون بالذرى من جبلة تسمو طينة من هم دونهم . فما دامت الحسرة تلذع كل قلب ، فالجميع على وحدة في المستوى ، مع كون الناس طبقات

وتعجب حارس بن يقظان من هذا التشابه في البشر ، وقد خلا ذهنه من الايمان بالمساواة . فهو يعرف أن ليس في من يدبون على الارض من الناس معادلة ، وهم اشبه بدرجات السلم ، بعضهم فوق بعض . اما الآن ، وهو يبصر نوران تكتوي بالرزايا ، فوقع في لبه ان بني الانسان من معدن واحد، وأن ما يختلفون فيه من ثراء، ومقام،وطلعة،لا يصونهم من اللقاء ، جميعاً ، على صعيد الشعور والالم ، وكلهم من معين فرد

واشتد بحارس بن يقظان التوجع لحالة ابنة عجيف ، وقد شابتها حقارة الخلجة . فليست من أولئك الصلاب على البلاء والكدر . وتولى بنفسه تضميد جرحها . وأحس بكونه سعيداً وهو يلامس جسدها الناصع ، الحافل بنفائس الرواء ، والباهر بصباحته كل ذي شعور بالرونق النبيل، الريّان

وبدت بغداد تسبح في مياه الرافدين، في مسيل الفرات ومنكب دجلة ، وقد تحاذى النهران ، إلا أنهما حاذرا في مدينة المنصور العناق . وسددت نوران عينيها إلى عاصمة بني العباس، وهي تسأل نفسها : هل دخلها المعتصم؟ وتنفست ملياً ، واشتد بها الميل الى مغالبة الانطفاء. ستعيش . ستعيش

على رغم الزمن. وسرّها ان تكون استعصت على الهلكة. وإذا ماتت، كما مات ابوها، وقضي على العباس، فسيودي القدر الماكر بالأفشين. بل ازمعت ألا تلفظ انفاسها ويبقى خيذر بن كاوس مستمتعاً بالوجود، اذا اضمحل العباس

وأحست بالحياة تعود اليها، وهي تدخل بغداد المغتسلة سرمداً بالنهرين المتغنيين بعظمة البقاء، وقد عبثا بالاحقاب، وخادنا الأبد. واهتز فؤادها بالشوق الى العز المهيض. ستنعشه وتسالم المعتصم. بل ستكون له، على أن يعفو عن العباس. ولكن هل سقطت بغداد العنود في قبضة أبي إسحق؟

وطاب لنوران أن تبصر الثورة مندلعة اللهيب في الزوراء، فيشقى في إخمادها المعتصم بالله. ولكن ضجيعة الرافدين خلت من كل أثر للغليان. فهي ساكنة سكون الفراشة في خميل الزهرة. تضحك بخلو بال الوليد للنهار الطالع، كأنها ما بايعت العباس، ولا شنأت عمه أبا إسحق. فصرفت نوران باسنانها، ووخزتها غصة هلوع. وأدركت أن من يلويه الزمن، يعرض عنه حتى صفوة الاخوان

ودفعت السائق الصياد الى استطلاع أمر المعتصم، وموقف بغداد منه. وما نشب حارس بن يقظان أن ارتد اليها يقول: بغداد رحبت امس بالخليفة المقدام ترحيبها بالفاتح الظافر. وسمعت فيه قصيدة أبي تمام، واستعادت أبياتها بحماسة المؤيد الجذلان. وإنها لترددها في ساحها، ودكاكينها، ومجالسها. فما مررت ببغدادي إلا هزّ مسمعي بمستهل عصماء حبيب بن أوس الطائي: «السيف أصدق انباء من الكتب ...». وأبو اسحق يثوي بقصر الخلد، وقد ازدحمت ببابه وفود التبريك!

فدعته كي يزجي المطية الى القصر. وتفاقمت فيها الاحقاد. إنها لبركان

ينفث أحشاءه الجمر . وأناخ حارس بن يقظان بعيره بباب القصر العالي المناف ، الفياض بالزخرف، الباسط مهابته على كتائب مو ّارة من العظماء، والوجهاء ، وابناء الشعب ، وقد أقبلوا يهنئون الخليفة الموفق الغزو

وتغلغلت نوران في الزحمة ، لا تبيح الامام بأمرها . وعجزت عن أن تتسلق سلالم الصرح ، فالتفتت الى السائق الصياد تستظهر به على الوكد . فأقام لها حارس من ذراعه متكئاً ، وبلغا على مهل مجلس أمير المؤمنين ، وقد تصدره المعتصم يتقبل فيه تهانيء المبتهجين بالفوز الصارخ ، الاشم ّ . ووقفت نوران ُ في صميم الحشد وقد ضاعت فيه . وحجبتها عن المعتصم سدول ، تلو سدول ، من الخلق المتدفق بابداء الغبطة اللهبى

وأجاز المعتصم للجميع ، في اليوم الهانيء الطلعة، المثول بيْن يديه . إلا أن من رنا ، بجدة المستقصي ، الى أبي اسحق ، لاحظ عليه انه يكافح ، بجهد وعياء ، مضضاً يقلق فيه الروح. فليس يخاطب هؤلاء القوم بسوى جهد المسلوب الطمأنينة . ولولا فروض الموقف ، لأبعد عنه الجميع ، وقد سئم حتى نفسه. فما زال يتمثل نوران في صدوفها عنه ، وفي نزوعها الى العباس ابن اخيه . ولكن العباس في محبسه . وقد يكون عدا عليه الموت ، والأفشين موكل بافنائه. ولمن تبقى نوران والعباس يأوي الى اللحد؟.. ألا اين هي محرجة البال ، وطلبة الصميم ؟

وشاقه أن يراها ، وأن يستغفرها زلته . قتل أباها، الا انه لم يقتله عن رضى ، بل مكرهاً على أمره ، وعجيف يتحداه في الطعان . أما العباس ، فقد لجت نفسه في محقه . وتعامى المعتصم عن جميع الواقفين بين يديه ، ليتمثل نوران . فإنه ليجهل هؤلاء الاكارم على سعة جاههم ، ولا يعرف

الا القابضة على المهجة ، الثاوية بالجنان . وما أولئك المهنئون ، في عرفه ، المتظاهرون بالغبطة ، غير هباء منثور . وكما يتهالكون على تهنئته ، ما كانوا ليحجموا عن تهنئة العباس، لو نعم في نشوزه بالقوة. بل ما كانوا ليترددوا في طأطأة الرؤوس للروم ، لو تم للاعداء قهر ابي اسحق

وهتف الحاجب محمد بن حماد : الافشين خيذر بن كاوس !

فعلت في الافواه صيحات الترحيب والاكبار . اكتمل الانس . وما خيذر من سوى رهط الابطال الاعلام . فاذا أكرمه بنو قومه ، فلقد بنوا للبطولة المترقبة المجد المقدور. ولكن المعتصم رماه بعين الدهش المستطيلة . ما حمله على المجيء ، وبراحه منبج رهين بتلاشي العباس ، فهل ركدت أنفاس ابن المأمون ؟

وانحنى الافشين في حضرة المعتصم بالله ، حتى كاد يقبل الارض ، وقد أوشكت أن تتمسح بها جبهته . فنبر أبو إسحق مستنبئاً بطافح الفضول : ألا ما وراءك ، يا خيذر ؟

فأعلن وقد رفع هامته: أنعى الى أمير المؤمنين إبن اخيه . لقي العباس ابن المأمون منيته، مكفناً بظمإه . هنيئاً للخليفة المنصور !

فماج المجلس بغمغمة التكبير . إن الخطب لجلل . وتبين فيه الكافة يد أبي إسحق . فهو القاضي بالنسف المبيد . وعاد المجلس يهتز بصيحة أخرى ، أمضى أثراً ، وأبعد صدى : لك الويل ، هل أوديت به ؟

والصوت صوت امرأة . والتفت الجميع ، فابصروا نوران على صفرة محيا ، وامتهان حلة . وعرفها المعتصم من صوتها، فنبر : من ؟... نوران؟ فاقتربت منه على ولولة دامغة . وساقت قولتها الى الافشين المرعوب ،

المرتجف ، المنكر ما يسمع وما يرى ، صارخة به : ألا من هو الغادر فينا يا خيذر ، أأنت أم نحن ؟ ... من هو الدسّاس ؟ ... ويحك ! ... أإبن المأمون ، ام ابن كاوس ؟ ... ألست من حرضنا على المعتصم كي نزلزل به الارض ، ونبني دولتنا على أنقاض دولته ؟ ... أمـا بايعتنا على التقهقر في مقاتلة الحرّمي ، كي يخزى أبو اسحق ؟ ... تكلم إن تكن على فضـالة من جرأة . تكلم ، وقل إنك خائن . حرضت على الفتنة ، ثم لقيتهـا خاسرة ، فجنحت عنها ، وأبقيت من أغريتهم بها يحترقون في السعير. إنك لأذل من حصاة تحت قدم. فما بطولتك إلا زائفة، نخرة ، تقوم على الخداع والبطل. هذا هو عدوك الزنيم ، يا أمير المؤمنين !

فهال المعتصم ما يسقط اليه ، وما ينتفض في باصرتيه . من يرى ؟ ... أهي نوران ؟ ... ولكن ما بها متداعيـة ، صفراء ؟ ... فأين نضارتها ورونقها ؟ ... اي داهية نابتها ؟... وصاح مستفهماً بشديد التأثر: نوران؟

فاجابت بما تملك من بقية العزم المرضوض: إني لهي ، يا أمير المؤمنين . وما حبوت اليك لسوى اطلاعك على كيد المراوغ ، الزنديق . يقودنا في طريق الكفر ، ثم يقبل اليك مدعياً نصاعة الدخلة ، وهو الفاسد الضمير . ما تحامى أن يطعنني بسيفه، وأنا أهدده باذاعة إثمه . فتظاهرت بالموت للنجاة من سفاله . هذا من تفرض الحكمة قتله ، لا العباس بن المأمون ، الشهيد الوضاء المهجة . بالغت في التنكيل ، ايها السيد الخطير !

ونفدت قواها فتدحرجت عند قاعدة المنبر ، طريدة أصمتها نبلة صيـاد سديد الوتر . فوثب اليها الخليفة مخلوع الكبد ، مخضـود النهبة ، صارخاً بلوعة المكلوم، البليغ الجراح : نوران ، نوران !

على أنها ضاعت عن نفسها . فلم تكن تخادع في الغيبوبة . فهتف أبو إسحق : إحملوها الى دار الحرم . ونادوا الطبيب . غالوا في الرفق بها . أريد أن تشفى !

وزعق وهو يرنو الى الافشين المشدوه ، الهلوع ، وما حسب الاموات يبعثون : أما أنت، يا خيذر ، فما عرفتك غير ثعبان خبيث تنفث سمك وتتوارى. بيد أني قبضت الساعة على عنقك، ولن أفلتك الا وقد سحقت رأسك . إطرحوه في المطبق . عقني الكفور !

فضجّ القصر بما دهمه في يومه الانور من الغواشي السود . وهجم جند المعتصم على الأفشين يجردونه من سيفه، ومن شاراته . ويكبلونه بالاصفاد . ويجرّونه الى المطبق، المحبس الرهيب . وطغى السهوم على الانس . وارتعدت افئدة الموتورين . واحس المعتصم بدوار يقلقل روحه، ورشده . أي زعازع جوائح تهب عليه في الاغرّ الضحوك ؟

واغلق باب القصر . وصرف عنه الجميع وهو يعاني الصداع الأليم . ولم ينم ليلته . كم يكتنفه من الدسائس الدهم . وفي الغدوة، بكر إلى نوران ، يسأل عنها . هل نضت عنها الغشيان ؟... ولكن نوران لم تكن في فراشها . فما استيقظت من إغمائها حتى كانت تنسلّ الى فناء القصر ، باحثة عن السائق الصياد . ولاح لها يغطّ في نومه ، في اكناف الصرح، فهزته تقول : هيا بنا يا ابن يقظان ، لنرجع !

ورجعت الى منبج صابرة على مضض جرحها النغّار . وفي منبج بحثت عن ضريح العباس . وجثت على قبر الحبيب تنوح . هذا هو عرشها في دنياها . حجرٌ في قفر . ما احقر العيش وما يعدو طعنة ، وأنّة . وعضّ فرارها

من قصر الخلد قلب أبي إسحق. أتظل تنسلخ منه كلما همّ بامساكها ، كأن لا توثقها به صلة من حنين ؟

ودفع رجاله الى التنقيب عنها . ليأتوا بها اليه كيفما اتفق لهم أن يظفروا بها . على انهم لم يدركوها غير جثة باردة تتوسد ضريح العباس بن المأمون ، الحبيب المفدّى ، الكابي الزند . وردة ذابلة على قبر موحش . فليس لقلبين اتحدا أن يفترقا ، حتى في الموت الغدور

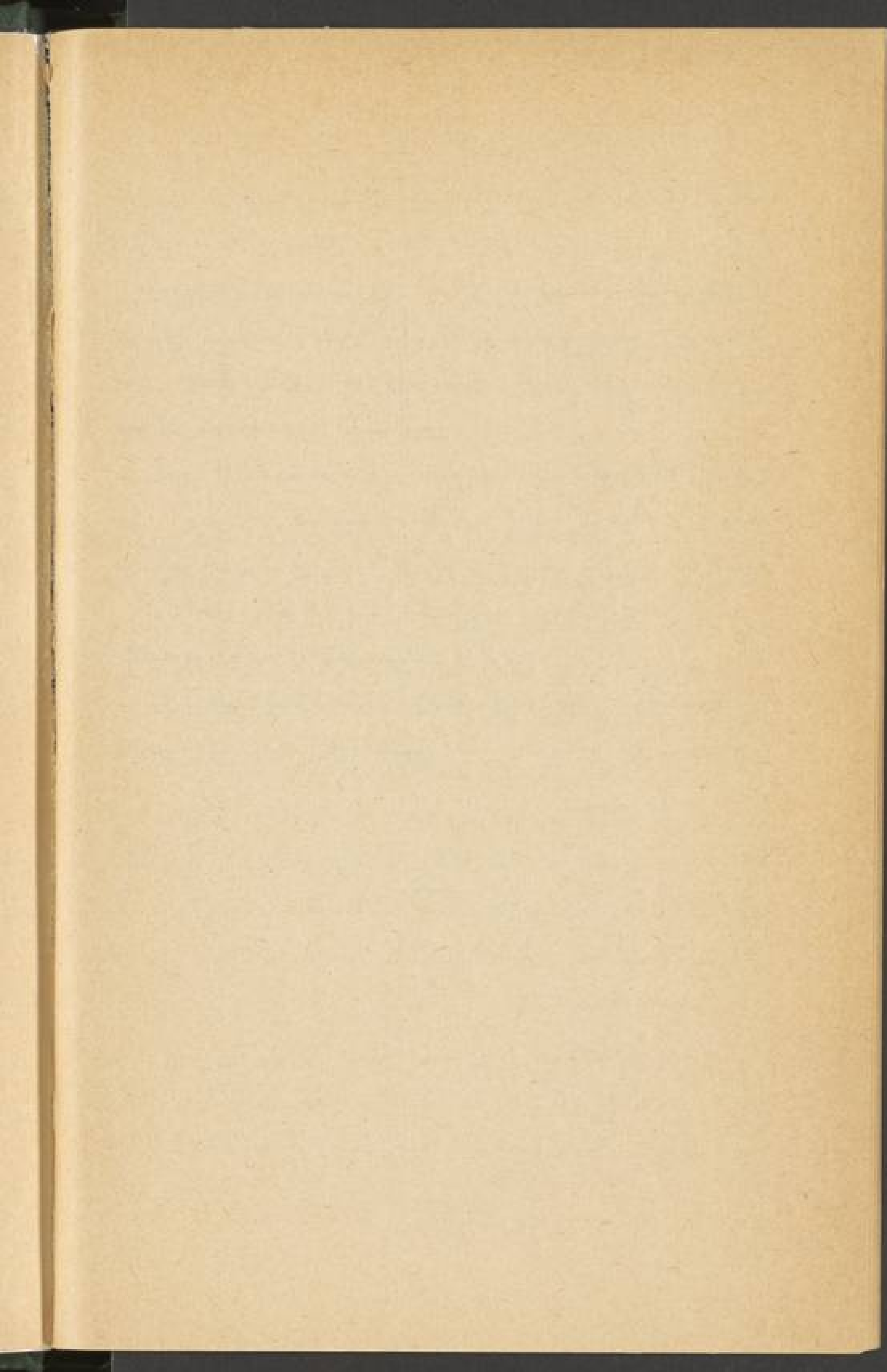
ونعيت الى المعتصم فضاقت به أنفاسه ، وأظلمت أيامه . ودعا بالأفشين فصلبه . ونفرت من عينه دمعة ، دمعة كاوية كالجمرة المتوهجة . وما ذرفها حزناً على خيذر بن كاوس، ولا على العباس إبن أخيه ، بل على قلبه الشهيد نازل الجبابرة فاخزاهم أكباشاً محطمة القرون . وأحب فأخزته من هام بها . كأنه، وهو الطاغية في الوغى، صعلوك في الولوع

نوران طوت فيه زهو الوثبة ، وبسطة الجناح. فأيقن — وامعتصماه! — أن تدويخ الممالك، ليس كل ما تتشهّى النفس المطماع، من غزوات وفتوح

تمت

•

بيروت في سنة ١٩٥٢



من كتب المؤلف

صرخة الألم

أشباح القرية

أطياف من لبنان

صقر قريش

قهقهة الجزار

وامعتصماه

عفراء

أم البنين

انتقام الخيزران

